س. ج سليجمان

السلالات البشرية في أفريقية

ترجمة
يوسف خليل

مراجعة
دكتور محمد محمود الصياد

مكتبة

شيخ المترجمين

عبد العزيز توفيق جاويد

السلالات البشرية في أفريقية

تأليف

س . ج . سليجمان

ترجمة

يوسف خليل

مراجعة

دكتور محمد محمود الصياد

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة العالم العربي
٥ شارع كامل صدقي بالفجالة ت ٤٤٧٠٦

طبع بمطبعة العالم العربي بالقاهرة
٢٣ شارع الظاهر تليفون ٤٤٧٠٦

RACES OF AFRICA

C. G. SELIGMAN

مقدمة المترجم

مؤلف هذا الكتاب الدكتور سليجمان أستاذ الدراسات الأثنولوجية بجامعة لندن، وقد شغل هذا المنصب حتى قيام الحرب العالمية الثانية فدرس بالجامعة . وقام بدراسات ميدانية لعدد من الشعوب المعروفة باسم الشعوب البدائية كما عنى بدراسة الشعوب النيلية دراسة مستفيضة ، وقد دخل إلى ميدان الدراسات الأثنولوجية عن طريق تخصصه فى علوم الطب والتشريح مما جعله يهتم فى كتاباته الأولى بالخصائص الجسمانية وأقيستها اهتماما كان له أثر بالغ فى كثير من دراسات الأجناس .

وهذا الكتاب — فيما نعلم — أشمل مؤلف تناول جميع الشعوب فى القارة الافريقية . وقد استعرض فيه المؤلف أربعة من الجوانب الهامة التى تؤخذ بعين الاعتبار فى الدراسات الأنثروبولوجية وهى : السمات الجسمانية ، والعناصر اللغوية ، والعادات والتقاليد ، وأنواع الهيئات التى تنظم شئون الجماعات البشرية وبذلك يعتبر هذا الكتاب أول محاولة من نوعها فى وضع خريطة لكثير من المعالم الأثنولوجية لهذه القارة ، إذ المعروف أن هناك جملة من البحوث والمقالات التى عالجت منطقة بعينها أو شعباً بذاته فى إفريقية ولكن هذا الكتاب يمتاز بجمعه لكثير من هذه البحوث المتفرقة ومحاولة التوفيق بينها لتستوى الخريطة البشرية الكاملة لكل من يحاول التعرف على صورة شاملة لشعوب القارة الافريقية ومقومات حياتها .

وقد يؤخذ على الكاتب أنه — كسائر علماء الأجناس — جعل من معاييره الهامة فى تصنيف الشعوب معيار السمات الجسمانية، وقد كان هذا من الاتجاهات الشائعة فى ميدان تلك الدراسات حتى الأمس القريب وقد تبدد هذا الإهتمام بالخصائص الجسمانية كعنصر من العناصر الأساسية فى دراسة حضارات الشعوب

وزاد الاهتمام بمقومات الحضارة المادية والإجتماعية والثقافية ومنهج الجماعة البشرية فى تفاعلها وتكيفها مع ما يحيط بها من ظروف جغرافية ...

أضف إلى هذا أن الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة تأخذ بوجهة النظر الكليه : فتدرس مدى الارتباط والتأثير والتأثر بين عناصر الحياة الإقتصادية والإجتماعية والفكرية لتبرز جوانب الإرتباط بينها ، وانعكاس ذلك كله فى مختلف نواحى النشاط البشرى لشعب من الشعوب . ولم يغفل سليجمان هذا الإتجاه إغفالا تاماً ؛ إلا أنه ، نظراً للمجال الواسع الذى تعرض له فى قارة بأسرها ، فقد اضطر فى كثير من الأحيان إلى معالجة عناصر حياة الشعوب والقبائل الافريقية معالجة لا تبين الارتباط بينها أو تأثيرها فى نمط الحياة القائم لدى هذه الشعوب .

كذلك تعنى الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة عناية كبرى بعمليات التغير الاجتماعى بحيث يبرز الماضى كبعد من الأبعاد الرئيسية فى حياة الشعب الحاضرة ونموه وتطوره على مر الزمن وبهذا يكون وصف الجماعة البشرية وصفاً ديناميكياً يبين مقومات استمرارها ومجالات تطورها . .

وقد تعرض سليجمان فى غير موضع إلى عملية التغير الاجتماعى هذه حتى وقت وضعه هذا الكتاب ، ومع هذا فقد طرأ على الشعوب الافريقية فى السنوات الأخيرة تغيرات عديدة فى أكثر من جانب من جوانب حياتها سيما فى الميدان السياسى والإجتماعى . . فقد كان من أجل نتائج الحرب العالمية الثانية شأناً ، اشتداد تيار الحركات الشعبية فى النطاق العريض الممتد من شواطىء المحيط الأطلسى فى الغرب إلى أندونيسيا فى أقصى شرقى آسيا ... وأخذت شعوب هذا النطاق تدع عن نفسها أصفاد الاستعباد وتكافح فى عزم وإصرار من أجل تحقيق مبدأ تقرير المصير ، والتحرر من القيود الاقتصادية التى جعلت مواردها خاضعة لمصالح الدول الاستعمارية ، كما أنها أخذت فى الوقت نفسه ، تنتهج منهجاً إنشائياً يقوم على استغلال القوى المادية والاجتماعية لمصلحة شعوبها ، وجاء ميثاق

الأمم المتحدة مؤكداً مبادىء حقوق الإنسان ، والمساواة فى الحقوق بين الأمم صغيرها وكبيرها ، وتوفير أساس التقدم والكرامة لجميع شعوب العالم . .

والنتيجة اللازمة لذلك أن ظهرت على خريطة إفريقية دول قومية جديدة أخذت مكانها تحت الشمس ، كالسودان والمغرب وتونس وغانة وليبريا وغنيا الجديدة ... ورغبة فى تأكيد شخصية الدول الإفريقية المستقلة وفى الدفاع عن استقلالها ووحدة شعوبها ، والتكافؤ بينها وبين الشعوب التى لازالت تناضل من أجل تبلور كيانها ، فى القارة الناهضة ، تعاهدت تلك الدول فى مؤتمر أكرا (أبريل ١٩٥٨) على انتهاج سياسة واحدة خارجية ذات طابع جوهرى واحد حتى يتاح للشخصية الافريقية أن تقوم بدورها فى خدمة قضية السلام العالمى بالاشتراك مع كافة الأمم المحبة للسلام ... كما أنها تعاهدت على تنسيق الخطط الاقتصادية وتنمية اقتصادياتها لرفع مستوى المعيشة لشعوبها . . . .

كل ذلك يحتم النظر إلى هذا الكتاب على أنه خريطة جغرافية بشرية أكثر منه تصور دقيق صادق لحياة الشعوب الافريقية اليوم ، ومثل هذه الخريطة الجغرافية لاغنى عنها كنقطة بداية لأى دراسة علمية منظمة . . .

ثم إنه لايخفى على ذهن القارىء ضرورة إحداث تعديلات أخرى فى متن الكتاب تتصل بالنواحى الاحصائية أو بالحدود السياسية أوبالمسميات مما أشار إليه المترجم أحيانا فى بعض المواضع، ومما لم يشر إليه اعتماداً على فطنة القارىء؟

القاهرة ، يناير ١٩٥٩

يوسف خليل

الفصل الأول

مقدمة المؤلف

يواجه مؤلف مثل هذا الكتاب فى مستهل بحثه بعض الصعاب التى يحسن أن يقدرها القارىء حتى يقوم بما هو ضرورى من تعديل أو تصحيح ...

إن من الجلى أن مسائل الجنس يجب أن تحددها أولا وآخراً دراسة الخصائص الجسدية ، ولكن ليس هنالك ما يشبه الدراسة الأنثروبولوجية على أساس تلك الخصائص الجسدية لأى جزء من أجزاء القارة الافريقية : كما أنه لا يمكن القول بأن ثمة رقعة كبيرة من القارة قد درست دراسة أولية . ولئن كان جهلنا بالناحية الحضارية لا يصل إلى هذه الدرجة الكبيرة فهنا أيضا جهات واسعة غير ممسوحة وقبائل لم توضح معالمها على الخرائط . . . بيد أن لدينا من ناحية أخرى، عدداً لا بأس به من البحوث القيمة التى تعالج شعوباً معينة ، فإذا نحن اتخذنا كلا من هذه الشعوب نواة للأقليم الذى تعيش فيه ، فإنه يمكن فى بعض الأحيان وضع خطة تقريبية معقولة لبعض المناطق ... أما فى الناحية اللغوية فإن الأمر أحسن حالا ، لكن على الرغم مما قد يكون للغة من فائدة ، إلا أنها ليست بالمرشد الذى يطمأن إليه فى دراسة الجنس .

ومع ذلك فإن دراسة الأجناس فى إفريقية قد تحددت لدرجة كبيرة عن طريق الاهتمام بدراسة اللغة ، ومن الميسور أن تحصل على معلومات قيمة عن اللغة أكثر مما تستطيع الحصول عليه من معلومات عن أى جزء آخر من عناصر الحضارة الإنسانية ، حتى إنه ليطلق على مجموعة كبيرة من النوع البشرى أسماء تقوم على أسس لغوية ، وهى بلا شك تؤدى — إذا أحسن استعمالها — إلى

الغرض المنشود . ومن هنا تستخدم عادة فى وصف المجموعات الجنسية الكبرى بإفريقية اصطلاحات مثل « البانتو » ليس لها فى معناها الدقيق إلا أهمية لغوية . وستلعب الأسس اللغوية فى هذا الكتاب دوراً رئيسياً فيما يتبع من تقسيم مختلط نوعا ما .

أما الصعوبة الثانية فهى طريقة عرض المادة وضرورة الاعتماد على الألفاظ وحدها لتصور فى ذهن القارىء نماذج جسمانية دون الاستعانة بالصور والرسوم التى كان يمكن الاستفادة بها فى مجلد أضخم وأثمن من هذا الكتاب . وإذا كان من العسير تفادى هذه الصعوبة فإنه يبدو فى الإمكان التخفيف من حدتها فى هذه المقدمة بالتعريف الدقيق للاصطلاحات المتواترة مثل طويل القامة وقصيرها ، ومستدير الرأس وعريض الأنف وما إلى ذلك ؛ كما أنه من المفيد أيضاً الإشارة إلى أن عدداً قليلا من الكلمات تستخدم فى معناها الفنى فكلمة «العشيرة» مثلا تشير إلى جماعة من الناس تراعى انحدار النسب فى جانب واحد سواء أكان ذلك هو جانب الأب أم جانب الأم ولا يسمح فيه بتزاوج داخلى ومثل هذه الجماعات يرتبط بعضها ببعض غالباً فى وحدة أكبر هى القبيـــلة . . . كذلك تشير كلمة طوطم Totem إلى فصيلة من الحيوان أو النبات تعتبر كل وحداته الحيوانية مرتبطة برباط الدم مع أفراد مجموعة بشرية تتفق عامة مع العشيرة كما سبق تحديدها .

أما كلمة (Fetish) التى ترد كثيراً فيما يكتب عن غرب أفريقية فقد تجنبنا ذكرها عمداً ، وهى فى أجلى صورها تمثل نوعاً من الاعتقاد فى وجود أرواح قابلة للانفصال تحل فى الكائنات الحية والجمادات على السواء بما فى ذلك بعض ما تصنعه يد الإنسان من أشياء .

ومن المستحسن أن نضيف أنه لا تقوم فى إفريقية صلة وثيقة بين العقائد الدينية التى سنكثر الإشارة إليها والأخلاق بمعناها المعروف لدينا . فهى ليست فى الواقع قانوناً خلقياً صادراً عن وحى إلهى ، تفرضه وتهيمن عليه قوة خارجية

بل إنها أقرب إلى شرح حقائق الوجود . ولهذا كانت العقائد والطقوس التي تصحبها مجرد جزء من صميم الحياة اليومية ، وليس فيها عادة ما يمكن أن نشبهه بأفكارنا عن وجود إله قادر على الحساب يعاقب المسيء ويثيب المحسن . وإذا ظهرت فكرة من هذا القبيل ، فمن المهم أن نستبعد التأثير المسيحى أو الاسلامى قبل أن نتقبلها على أنها جزء من تفكيرهم ، بل إنه ليحتمل كذلك أن تكون بعض معتقداتهم الساذجة وليدة تأثير أجنبي كاعتقاد جماعات الكرو Kru فى أن أرواح الصالحين تصعد إلى السماء عن طريق نهر المجرة - الذى هو مجاز الأشباح .

والأسس الرئيسية لتقسيم الأجناس هى لون البشرة ونوع الشعر والقامة وشكل الرأس وخصائص الوجه ويدخل فيها بروز الفك ثم شكل الأنف . أما اللون فيوصف بالاصطلاحات التى يجرى العرف بها ، وأما الشعر فيقسم عامة إلى ثلاثة أنواع مستقيم وناعم سواء أكان مموجا أم مجعداً ثم صوفى ، أما القامة فمن الخير أن نلتزم الدقة فى تحديدها وسنتبع — حيث تتوافر المقاييس — هادون A. C. Haddon فى استعمال الاصطلاحات الخاصة بطول القامة وقصرها وما إلى ذلك متمشين مع الجدول التالى مع إعطاء المقاسات بالبوصة نظراً لأن غالبية سكان هذا القطر (يقصد انجلتره) لم تألف القياس بالمتر والسنتيمتر . لكن سيجد الذين يريدون تكملة قراءتهم جدول تحويل ملحقاً بآخر الكتاب لأطوال القامة بين خمسة وستة أقدام .

قزم	أقل من ¼ ٥٨ بوصة	أقل من ١,٤٨ متراً
قصير	من ¼ ٥٨ — ¼ ٦٢ بوصة	من ١,٤٨ إلى ١,٥٨ مترا
متوسط	من ¼ ٦٢ — ٦٦ بوصة	من ١,٥٨ إلى ١,٦٨ متراً
طويل	من ٦٦ — ¾ ٦٧ بوصة	من ١,٦٨ إلى ١,٧٢ متراً
طويل جداً	من ¾ ٦٧ بوصة فما فوق	من ١,٧٢ متراً فما فوق

ومن الواضح أن ثمة تفاوتاً كبيراً فى الطول بين أفراد معظم الشعوب ولكننا هنا — كما هو الحال فى المقاييس الأخرى — يمكن أن نعتبر متوسط

القياس فى مجموعات مكونة من ثلاثين أوأربعين شخصاً صورة صادقة إلى حد كبير للمجموعة كلها . أضف إلى هذا أنه لا يوجد فى الجنس الطويل — مع استثناء الأفراد الشواذ الموصوفين بقصر القامة لدرجة كبيرة — أفراد قامتهم قصيرة جداً كما لا يوجد بين الأقزام رجال طوال القامة .

أما فيما يتعلق بشكل الرأس فانا إذا نظرنا نظرة جانبية ظهرت بعض الرءوس طويلة وظهرت رءوس أخرى قصيرة مع وجوب إسقاط الشعر من الحساب ، أما إذا نظرنا إلى الرأس من أعلى فان هذه الرءوس تبدو بالتتابع طويلة ومستديرة إلى حد ما . ويعبر عن اختلاف الدرجات فى تمييز شكل الرأس بالنسبة الرأسية للأحياء أو النسبة الجمجمية للأموات وهى عبارة عن نسبة عرض الرأس ، أو الجمجمة إلى طوله مع افتراض أن هذا الطول مائة فتكون النسبة الرأسية إذاً $\frac{\text{العرض} \times ١٠٠}{\text{الطول}}$

والمألوف أن تنحصر النسبة الرأسية بين ٦٥ ، ٩٠ اللهم إلا فى الرءوس التى شوهت تشويهاً صناعياً أما الكثرة العظمى فتنحصر بين ٧٠ ، ٨٥ وتطلق عادة الاصطلاحات الآتية على النسب الراسية :

أقل من ٧٥	طويل	Dolichocephalic
من ٧٥ إلى ٨٠	متوسط	Mesaticephalic
فوق ٨٠	عريض	Brachycephalic

ويبلغ الفرق بين النسبة الرأسية للأحياء وبين النسبة الجمجمية للأموات حوالى وحدتين ولذا فإنه يمكن تحويل النسبة الرأسية إلى النسبة الجمجمية بطرح وحدتين ، والعكس بالعكس .

أما عن صفات الوجه وبروز الفك فانه على الرغم من الاستعمال الشائع لعدد من النسب الخاصة بالوجه ، لا حاجة بنا لمناقشتها أو استعمالها فى هذا

الكتاب. ولما كان من المألوف النظر إلى الوجوه فان اصطلاحات كاستدارة الوجه واستطالته توضح نفسها بنفسها كما أنه لابدمن أننا قد لاحظنا الاختلاف فى درجة بروز الجبهة وعظام الخدين. ومن السائد فىافريقية بروز الجزء الأدنى من الوجه و خاصة الفك الأسفل، وعندما يصل البروز إلى درجة متطرفة يكون مايشبه الخيشوم فى الحيوان ويعتبر هذا عند البعض من الصفات الدنيا. وهذا اعتبار صحيح دون شك، وذلك على النقيض من استواء الفك الذى يعتبر دلالة على مقدرة عقلية عالية لاسيما إذا اقترن بامتلاء الجبهة لكن مما تجب ملاحظته أن كثيراً من الزنوج لهم جباه بارزة ومع ذلك فهم لا يظهرون ذكاء ملحوظا على حين أن أقل الأجناس رقياً ممن تتمشى نسبة رءوسهم مع رءوس الأطفال قد يكون الفك عندها منسجما نسبياً [1]

أما الأنف فقد يكون طويلا أوقصيراً، عريضاً أو ضيقاً، وقد يكون أفطس أو متوسط الارتفاع أو بارزاً والنسبة بين طول الأنف وعرضه على درجة كبيرة من الأهمية ولذا فمن المستحسن أن نشير إلى الاصطلاحات والأرقام المستعملة عادة فى هذا الصدد. ونظراً لأنه ليس هنالك اتفاق تشريحى معقول يصلح أساساً للنسب الأنفية للأحياء والأموات كما أنه ليس هناك طريقة سهلة لتحويل إحداهما إلى الأخرى فسنقتصر هنا على إعطاء الأرقام الخاصة بالنسبة الأنفية للأحياء وهذه النسبة هى $\frac{\text{العرض} \times ١٠٠}{\text{الطول}}$ والمصطلحات المستعملة فى ذلك هى :

من ٥٥ - ٧٠	أنف ضيق	Leptorrhine
من ٧١ — ٨٥	أنف متوسط	Mesorrhine
من ٨٦ — ١٠٠	أنف عريض	Platyrrhine

---

(١) لم يعد بين علماء الاجناس الا بهين من يجرؤ على الربط بين الصفات الجسدية والعقلية . ومما يؤسف له أن ساجمان على علو مركزه لم يستطع التخلص تماما من أوهام المدرسة القديمة . (المترجم)

والأنوف التى يزيد عرضها على طولها (Hyperplatyrrhine) ليست نادرة بين الزنوج ، وللنسبة الأنفية أهمية خاصة فى المناطق التى يرجع سكانها إلى أصول مختلطة كما هو الحال فى شرق إفريقية ولدرجة نمو أصل الأنف أهمية فى دراسة الأجناس فهذا الأصل إما أن يكون منخفضاً أو متوسطاً أو مرتفعاً كما أن هناك أشكالا خاصة للأنف لها قيمتها أيضاً . ومعظم الاصطلاحات فى هذا الصدد واضحة لاتحتاج إلى بيان . ومما يجب ملاحظته أن ما يعرف بالأنف اليهودى على الرغم من أنه يطلق عليه غالباً « الأنف السامى » إلا أن هذه التسمية الأخيرة ليست صحيحة ، إذ أنه ليس موجوداً بين الساميين الخلص بل من مميزات الحيثيين القدماء وممثليهم الحديثين من الأرمن ، ولهذا وجب أن يطلق عليه « الأنف الأرمنى » وحيث يتمثل هذا الأنف فى مظهره المثالى يؤخذ دليلا معقولا على اختلاطه بالدم الأرمنى . وهذا القول على أى حال صحيح فيما يختص بالقارة الأفريقية .

تلك هى الأسس التى سنتخذها فى دراسة أجناس إفريقية فى هذا الكتاب وهى أسس محدودة فضلا عن أنها — فى مظهرها على الأقل — بسيطة نسبياً وإذا بحثنا عن تعريف للجنس فان أقصى مايمكن أن نقول هو أن الجنس يدل على « مجموعة من الناس تشترك فى خصائص جسمانية بارزة » كما أنه على الرغم من قلة الأجناس النقية فى الوقت الحاضر نستطيع لأغراض وصفية أن نعد الجنس نقياً إذا كان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه يرجع فى تكوينه فى أزمنة حديثة نسبياً إلى أكثر من أصل واحد .

وفى نطاق هذه الحدود ، تكون الأقسام البشرية الكبيرة، أى الأجناس البشرية التى يمتاز كل منها عن سواه على النحو الآتى بترتيب أهميتها :

(١) الحاميون } وهؤلاء ينتمون إلى أصل واحد
(٢) الساميون }

(٣) الـزنوج

(٤) ا البشمن } ويعرف أحيانا باسم الخويصان Khoisan

(٤) ب الهتنتوت

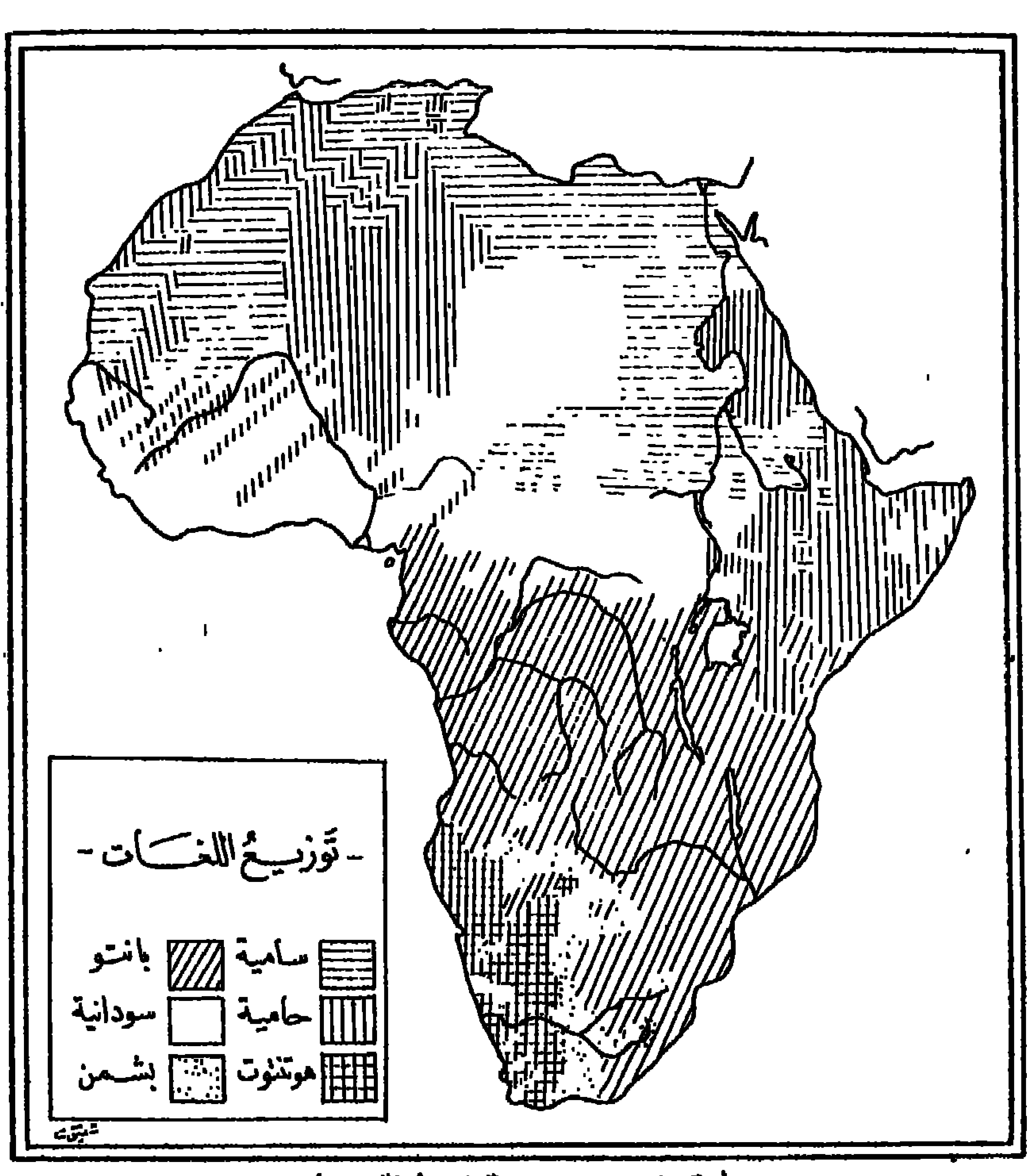
(٥) النجريتو (أو الأقزام)

على أنه من الواجب مع هـذا أن تتذكر أن الجنس السامى لم يظهر فى إفريقية إلامنذ أمد يزيد قليلاعن الألف عام إذاما استثنينا قدراً من الاختلاط فى بلاد الحبشة .

أما اللغات التى تتكلم بها تلك الأقسام الكبرى فانها موزعة بوضوح على خريطة الأستاذ ستروخ Struck التى أعدنا نشرها فى هذا الكتاب (ص١٥) وبمقارنةالمناطق اللغوية الموضحةبتلك الخريطة بما ورد من تفصيلات عن الأجناس خلال فصول هذا الكتاب يتضح بوجه تقريبى مدى أهمية الدور الذى لعبته الناحية اللغوية فى التقسيم الذى اتبعناه ، ونظراً لهذه الأهمية فإنا نقدم التحليل الموجز التالى لخصائص اللغات الأساسية بإفريقية .

إن اللغات الحامية لغات تقبل التعريف والاشتقاق ، أى أن للأسماء فيها تصريفاً لغوياً بحسب التذكير والتأنيث ، كما أنه يضاف إليها نهايات تدل على العدد أو الاعراب وتصرف أفعالها بوضع زيادات فى أولها وآخرها كما يتفرع منها عدد من المشتقات .

أما اللغات السامية فإنها تشبه اللغات الحامية شبهاً لايدع مجالا للشك فى أن ثمة صلة وثيقة بين هاتين المجموعتين من اللغات ، بحيث يمكن ارجاعهما قطعاً إلى أصل مشترك غير بعيد . لكن اللغات السامية تختلف فى أنها ذات أصول ثلاثة Triliteral Roots فمثلا أصل الفعل المنسوب إلى ضمير الغائب المفرد يتركب طبيعياً من ثلاثة حروف « ساكنة » كما هو الحال فى الفعلين قتل ونصر فى اللغة العربية وأما الأفعال التى تتكون من أكثر من ثلاثة حروف ساكنة، فهى إما أن



خريطة رقم (١) - توزيع اللغات

تـكون مشتقة وإما أن ترجع إلى تركيب حديث . أما تلك التى تتـكون من حرفين فمن المحتمل أن تـكون قد اختصرت، إذ أن الأصول الثلاثة من خصائص اللغات السامية .

وأما اللغات الزنجية التى يتـكلمها الزنوج الخلص وغيرهم من السود (كالشعوب النيلية) فيطلق عليها بوجه عام اسم اللغات السودانية . وإذا حاولنا تعريفها أمكننا أن نقول إن جميع ألفاظها تتركب على أساس مقطع واحد ، وإنها ليست من اللغات المتصرفة أو التى تتغير أسماؤها بحسب الجنس كما أنه يسبق الاسم المتبوع مايلزمه من تابع . على أن واحداً من هذه الأسس الثلاثة لايجب أن يؤخذ على أنه خصيصة لازمة ، فمن النادر وجود لغات نقية خالصة تماما ، لـكن الخصائص الثلاث السابقة تنتظم بوجه عام اللغات السودانية كافة ولذا يمـكن التزام هذه الأسس مع تجاهل ماقد يوجد من استثناءات وآثار مستعارة فى حالات فردية بين هذه المجموعة من اللغات .

وتعد لغة توى Twi ولغة يوروبا (Yoruba) فى غربى إفريقية من بين أكثر المجموعات تمثيلا للغات السودانية، فهنا نجد أن العدد الأكبر من الكلمات وبخاصة الأفعال يتألف من مقطع واحد يتـكون من حرف ساكن يتبعه حرف علة وهى تشبه — كما أشار إلى ذلك Ellis — المقاطع الموجودة فى كتب المطالعة الأولى للأطفال ، مثل با ، بى ، بو... الخ . ولما كان عدد هذه التركيبات محدوداً فقد أصبحت لغات هؤلاء الافريقيين نبرية تعتمد على نبرات الصوت Tonic بمعنى أن الزنوج قد لجأوا إلى نفس الوسيلة التى لجأ إليها الصينيون من تغيير الأصوات وتعدد المعانى فإن تغيير طبقة الصوت قد يستعان به فى تغيير معنى الـكلمة تماما . وعلى هذا فكلمة دا (da) حين تنطق بصوت منخفض يكون معناها «يرمى» على حين أنها إذا نطقت بصوت مرتفع كان معناها «قاسى» أما كلمة دو (do) فمعناها حزين فى النغمة المنخفضة لـكن معناها ينام إن كان مخرج النطق بها مرتفعاً .

أما عن لغات البشمن فمعلوماتنا الحالية لا تمكننا من توضيح خصائصها توضيحاً كافياً . على أن كلماتها – إلى حد كبير – ذات مقطع واحد تنعدم فيها الإضافات فى أوائل الكلمات كما ينعدم التمييز اللغوى للمذكر والمؤنث ، لكن يشيع فيها استعمال الإضافات فى أواخر الكلمات ، واستعمال المقاطع والتكرار . وللبشمن أصوات حلقية خاصة بهم لا توجد فى اللغات الأخرى اللهم إلا لغة الهتنتوت وبعض لغات البانتو (ولغة قبيلة سانداوى بتنجانيقا التى لا نعرف عنها إلا القليل) وإن كان يرجح أن هذا قد انتقل إليهم عن طريق البشمن.

ويعتبر الهوتنتوت فى الوقت الحاضر كالبشمن مع انفرادهم ببعض الخصائص اللغوية مثل اختلاف الكلمات فى حالة التذكير والتأنيث نتيجة اختلاطهم بالحاميين . أما النجريتو فلا يعرف شىء البته عن أى لغة خاصة بهم .

ولعل أكثر الأجناس الإفريقية – السابقة – أهمية هى الأجناس الحامية والسامية والزنوج . ولا شك أننا لا نجوز الحقيقة كثيراً حين نقول بأن تاريخ إفريقية جنوب الصحراء الكبرى لا يعدو أن يكون عرضاً لقصة امتزاج السكان الأصليين من الزنوج والبشمن بالدماء الحامية وتمثيلهم للثقافة الحامية فى مراحل مختلفة وفى عصور متباينة. والواقع أن الحاميين كانوا القوة الكبرى التى حضرت شعوب أفريقية الزنجية منذ زمن بعيد نسبياً . أما التأثير السامى فلم يظهر إلا فى فترة متأخرة ، ويكاد أثره ينحصر فى إفريقيا البيضاء شمالى الصحراء الكبرى حيث تسكن الشعوب الحامية .

وإذا رجعنا إلى العوامل الجغرافية فإن الخريطة المرسومة فى صفحة (١٩) توضح بصورة تقريبية مختصرة بعض المظاهر الأساسية لأفريقية ذات الأثر الهام فى توزيع شعوب القارة وتفسير هذا التوزيع . فهنا لا تقوم حواجز جبلية شاهقة تحول دون الاتصال الحر ، فالعوائق الحقيقية فى القارة – كما صادفها الرحالة دائما – إنما هى صحاريها وغاباتها ... ففى الشمال تفصل الصحراء الكبرى أساساً بين سكان البحر المتوسط وأرض الزنوج ، أما الهضبة الحبشية التى يشتد

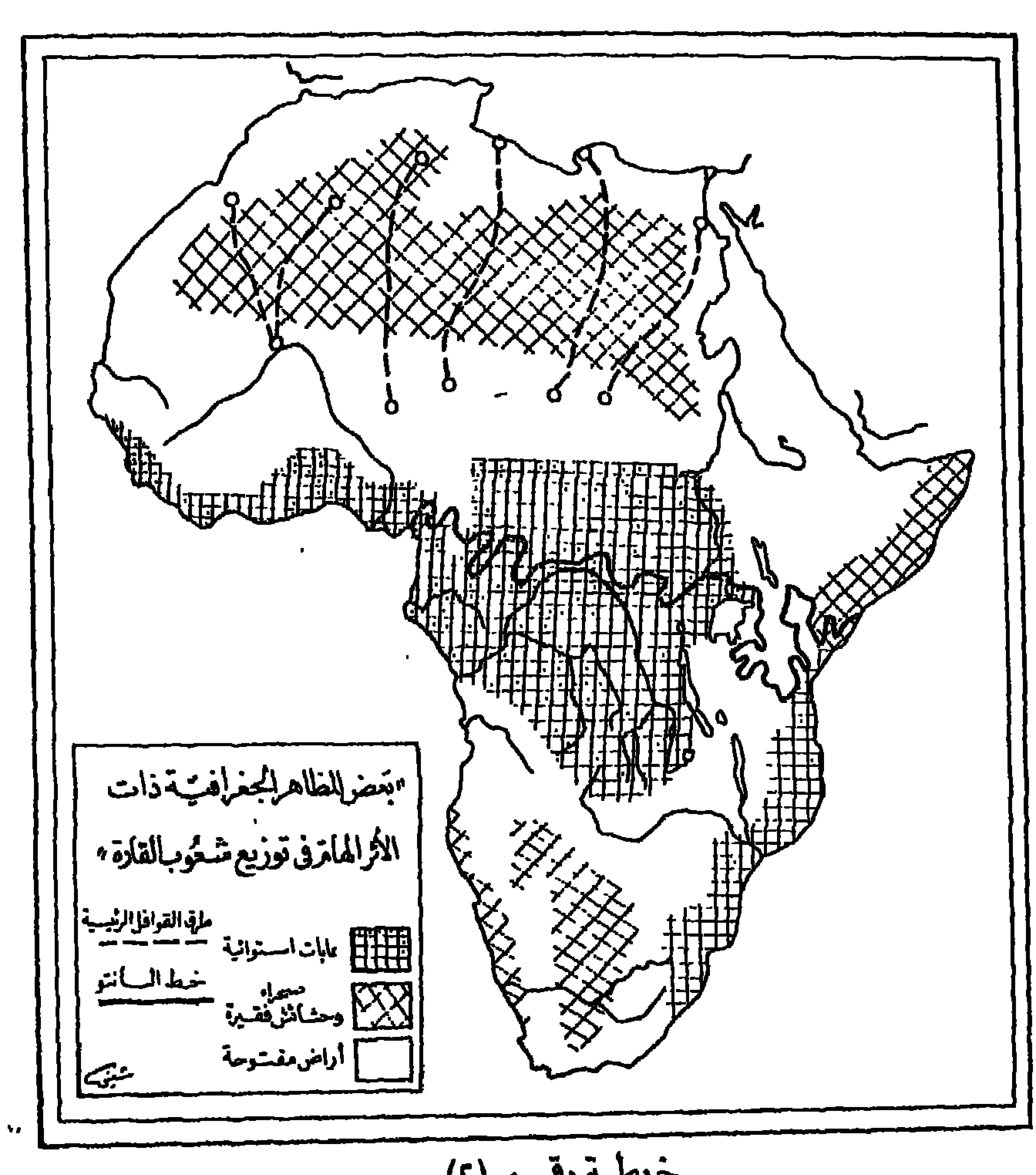
انحدار جوانبها وما يتصل بحافتها الغربية من رقعة تكسوها الغابات الكثيفة ، فقد كانت إلى حد كبير حائلا دون انتشار القبائل الزنجية فى هذا الجزء من الحبشة؛ كما أن خط تقسيم المياه بين النيل والنيجر مع منطقة غاباته الكثيفة الضيقة الحافة بروافد بحر الغزال التى تجرى شمالا قد يبرهن — بالرغم من أن ارتفاعه يتراوح بين ١٥٠٠، ٢٠٠٠ قدما —على أنه كان مانعاً قوياً لانتشار النيليين غربا. وما تزال بقايا قبائل البشمن محصورة فى منطقة المرتفعات الفاصلة فى جنوب غربى القارة وفى صحراء كلهارى .

وثمة ارتباط أيضاً بين توزيع الحيوانات الأليفة وما يتصل به من طرق الحياة والنظام السياسى والاقتصادى من ناحية وطبيعة الأقاليم من ناحية أخرى . فما يستطيع سكنى الصحراء مثلا — مع استثناء الواحات — إلا رعاة الأبل على حين أن الماشية لا وجود لها فى مناطق الغابات الاستوائية ، بيد أنها تعد أهم عنصر فى حياة البانتو وانصاف الحاميين فى مناطق السفانا والمراعى الغنية فى المناطق الجبلية بجنوب أفريقية وشرقها .

وتمشياً مع وجهة النظر التى سبق بيانها ينبغى أن نبدأ بوصف جماعات النجريتو والبشمن التى هى أكثر شعوب إفريقية بدائية ، ثم يأتى الزنوج والحاميون ، ومن بعدهم شعوب كالهتنتوت والبانتو وغيرهم ممن تكونوا نتيجة اختلاط هذه الأجناس . والواقع أن ثمة شبهاً قوياً بين الهوتنتوت والبشمن حتى أنه ليس من الحكمة أن نفصل بينهما فى بحث محدود كهذا ، ولهذا سنتبع التنظيم التالى :

مجموعة البشمن والهتنتوت ، فالنجريتو ، فالزنوج ، فالحاميون ، فالزنوج المتأثرون بالدماء الحامية (وينتظم هؤلاء أنصاف الحاميين والنيليين والبانتو) وبعد هذا كله يأتى الساميون أخيراً .

وسوف لانتعرض لذكر بقايا السلالات البشرية التى سكنت أفريقيا قديما وهى التى تتصل ببقايا العصر الحجرى القديم التى اكتشفت حديثاً فى أوربا .


"بعض المظاهر الجغرافية ذات
الأثر الهام في توزيع شعوب القارة"
طرق القوافل الرئيسية
خط البانتو
غابات استوائية
صحراء وحشائش فقيرة
أراضي مفتوحة

خريطة رقم (٢)

كما أننا لن نشير إلى الآلات الحجرية التى ترجع إلى العصر الحجرى القديم والتى عثر عليها فى شمالى أفريقية (بما فى ذلك مصر) وبلاد الصـــومال . وجنوبى افريقية ، بل إننا سوف نصرف النظر عن البقايا الأثرية التى وجدت حديثاً بشرقى افريقية والتى قد تكون مفتاحاً لكشوف على جانب كبير من الأهمية .

غير أنه يجمل بنا أن نشير إلى أنه على الرغم من بقاء عنصر البشمن ممثلا فى افريقية حتى اليوم فانه ينتمى إلى عنصر قديم جداً ، قد يرجع تاريخه فى القارة إلى عشرات الآلاف من السنين ، وأن هذه الجماعات كانت إلى أقل من قرن ، تستعمل نفس الآلات الحجرية التى كانت تصنع فى أوربا إبان الفترة الأخيرة من العصر الحجرى القديم .

ولعل من الواضح أن قراءة هذا الكتاب تحتاج إلى استعمال خريطة أو على الأصح أنها تتطلب الاستعانة بالجزء الخاص بأفريقية فى أحسن مصور جغرافى يمكن توافره ، ولهذا السبب وتسهيلا للمراجعة سيجد القارىء أنا نذكر الحدود الجغرافية الطبيعية والسياسية حتى ولو لم يكن لها أهمية جنسية .

أما الإشارات التى توضع قبل بعض الكلمات الوطنية مما سيرد ذكره فى الفصل الثانى وفى نهاية الفصل الرابع مثل // ganab فهى علامات اصطلاحية للدلالة على أصوات معينة .

الفصل الثانى

البشمن والهتنتوت والنجريتو (الأقزام)

البشمن :

تتفق الآراء عامة على أن البشمن قد وصلوا من الشمال إلى موطنهم الحالى فى جنوب أفريقية ، إذ من المحتمل أن يكون أسلافهم قد استوطنوا الشطر الأكبر من المناطق الاستوائية فى شرق أفريقية ووسطها الشرقى . ومما يؤيد هذا الرأى اكتشاف ما تركه البشمن فى تنجانيقا بل وفى أوغندة وجنوبى السودان ، من رسوم على الصخور وكرات حجرية مثقوبة من نوع الأثقال التى يضعها البشمن فى أطراف عصيهم التى يستعملونها فى عملية الحفر ، وليس هنالك من سبب قوى يجعلنا نربط بين هذه الآثار والأقزام القاطنين فى غابات أواسط أفريقية وان كان لهذا الرأى أنصار كثيرون ، كما هو المنتظر .

كذلك يبدو أنه ليس ثمة شك فى أن جماعات ستراند لوپرز Strand Loopers (أو المتجولين على السواحل) التى انقرضت حديثا والتى كانت تحتل جنوب مستعمرة الرأس وساحلها الغربى ، لم تكن سوى جماعة من البشمن انتهجت سبيلا خاصا فى حياتها أدى إلى تعديل فى أسلوب المعيشة يتلاءم مع ظروف المنطقة الساحلية الضيقة التى كانت تلك القبائل قد استقرت فيها .

ويرى ستاو (Stow) أن البشمن كانوا ينقسمون إلى قسمين كبيرين لكل منهما خصائصه فى الحياة والفن : سكان الكهوف وكانوا يمارسون الرسم

وسكان الجبال وكانوا يشتغلون بالنحت مستخدمين فى حفر الصخور حجراً مدببا نوعا ما أو (حصاة) عادية ، لكن يظهر أن هذا رأى خاطىء قد أسرف فى إبراز الفروق الفنية التى اتخذها أساسا لتقسيمه — والتى ترجع غالبا إلى ظروف البيئة .

ويتضح من توزيع مخلفات البشمن وبخاصة رسومهم على الصخور وبقايا هياكل أجسامهم ، بل وأسماء بعض الأماكن — الانتشار القديم لهذا الجنس فى سائر جهات إفريقية الجنوبية كلها تقريباً . وإذا نحن استثنينا الجماعات المنعزلة والحالات الفردية الشاذة فإن موطنهم الحالى ينحصر فى الأجزاء الوسطى والشمالية من صحراء كلهارى والشطر الشمالى من أفريقية الجنوبية الغربية ، ففى هذه الجهات وحدها احتفظ البشمن بطرائق حياتهم الأولى. لكن حتى هذه الجماعات من البشمن قد تأثرت جنسيا وثقافياً باتصالها بجماعات البانتو .

وللفرد من البشمن هيئة خاصة به حتى أنه ليمكن تمييزه لأول وهلة عن سائر الأجناس الأفريقية الأخرى فيما عدا الهتنتوت ، فهو قصير القامة يبلغ متوسط طوله ستين بوصة ، ولهذا يمكن اعتباره قزما ، وله أطراف حسنة الشكل دقيقة نوعا ما ، ويدان وقدمان صغيرتان وبشرته صفراء أوسمراء مشربة بالصفرة قابلة للتجعيد بسهولة ، وشعر رأسه متفرق متباعد يلتف لفات صغيرة منفصلة فيتخذ المنظر المعروف بمظهر حب الفلفل (شعر مفلفل) ورأس البشمن متوسط منخفض ، ووجهه مستو لا يبرز الفم فيه مع ظهور عظمتى الخدين وفرطحة كبيرة فى الأنف وبروز فى الجبهة . أما العينان فضيقتان فى انحراف طفيف وقد تتميز الأذن بأنها لا شحمة لها . وهنالك زيادة واضحة فى الانحناء الأمامى للطرف الأسفل من العمود الفقرى مما يجعل العجز بارزاً بشكل خاص ويلحظ فى حالة الأنثى تجمع الشحم بوفرة على العجز والفخذين ، وهذه هى الظاهرة المعروفة بثقل الأرداف (تضخم العجز) . وفى الشمال تتمشى الزيادة فى طول القامة وفى سواد البشرة وكبر الرأس والوجه مع درجة الاختلاط بدماء البانتو .

وسيظل من دواعى أسفنا دائماً أن العادات الاجتماعية لهذا الشعب الذى يثير اهتمامنا لم تكن موضع الملاحظة الدقيقة والتسجيل منذ ثلاثة أجيال خلت وذلك قبل أن يؤدى اعتداء البيض والبانتو مشتركين إلى انقاص عدده وانحلال نظمه ، مما تسبب عنه خسارة نهائية لتراث علمى على أكبر جانب من الأهمية ولذا فقد حاولنا أن نعطى فى الصفحات التالية مختصراً وافياً لحد كبير لما بقى من تراثهم فأهمية البشمن تبرر أن نخصه بشىء من العناية والبحث برغم مانشعر به من ضيق المجال فى هذا الكتاب .

ويقسم البشمن على أساس لغوى إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الجنوب والوسط والشمال . وتتألف كل منها من عدد من القبائل المنفصلة ، لكل قبيلة منها لغتها الخاصة واسمها الخاص . وليس ثمة اتفاق يذكر بين العلماء بصدد لهجات البشمن، لهذا لم يكن من الميسور أن نقرر باختصار شيئاً عن خصائصها اللغوية ، وإنما المسلم به أنهم يشتهرون بتلك التكتكة المعروفة فى كلامهم . (يذكر أربوسيه Arbousset أحد رجال الارساليات الفرنسية القديمة أنهم يحدثون أصواتاً شبيهة بأصوات الديكة الرومية) والحقيقة أنه يمكن إدراكها على وجه أدق إذا قلنا إنها أشبه بالصوت الذى نستعمله أحياناً لنستحث الحصان على السير .

وتعتبر المجموعة الجنوبية من البشمن وهى التى كانت فيما مضى تحتل مستعمرة الكاب فى حكم المنقرضة . أما المجموعة الشمالية فتتركز فى الشمال الشرقى من أفريقية الجنوبية الغربية ، وتنتظم عدداً من القبائل المشهورة نسبياً هى الهيكوم Heikum وأون Auen وكونج Kung ، بينما تنتظم المجموعة الوسطى بصحراء كلهارى قبائل نارون Naron (وتسمى أحياناً ايكوى Aikwe) وتنكوى Tannekwe وهكوى Hukwe وجالكوى Galikwe وهبشوار Hiechware (تاتى Tati وما صاروا Masarwa)

والتنظيم الاجتماعى والطابع الثقافى للبشمن بدائى للغاية ، فهم يعيشون فى مجتمعات صغيرة أو جماعات صيد تتكون الواحدة منها عادة من عدد يتراوح

بين خمسين ومائة شخص . وقد يرتبط عدد من هـــذه الجماعات برابطة اللغة فى الاسم فتكون قبيلة . بيد أنه ليس للقبيلة هناك إلا أثر قليل فى تنظيم الحياة الاجتماعية إذ تحتفظ كل جماعة بكامل الحرية والاستقلال . والتقسيم الوحيد القائم داخل الجماعة هو تقسيمها إلى أسر ، تتألف كل منها من زوج وزوجته ـ أو زوجاته ـ وأطفاله ، ويدبرشئون الجماعة فى الغالب كبار السن وذوو التجارب من الرجال . ومع أن منصب زعيم العشيرة بين قبايل الشمال الغربى منصب وراثى فليس لهذا الزعيم سلطة قضائية ونفوذه ضعيف ينصب أساساً على شئون الحرب والصيد .

ولا يشتغل البشمن بالزراعة أو برعى الماشية وإنما يعيشون على القنص وجمع الجذور والخضر الصالحة للغذاء . وهذه الحيـاة تضطرهم إلى أن يعيشوا رحلا تدعى كل جماعة منهم حقوق الصيد داخل نطاق قطعة معينة من الأرض يعترف الجميع بها ويحترمون حدودها الدقيقة . ومسكن البشمن عبارة عن مأوى بدائى شبه دائرى يقيمه النساء من فروع الأشجار على مقربة من بئر غالباً ، ولكل أسرة مأواها الخاص بها . أما سلاحهم الأساسى فهو القوس والسهم المسمم ، ويؤخذ السم من الأفاعى وبعض أنواع من النبات . وفى صحراء كلهارى تحصل عليه الجماعات من عذراء حشرة صغيرة خضراء . كذلك يستخدم البشمن فى الصيد العصى والحراب كما يستخدمون الفخاخ والشراك والحفر وجمع الثمار والخضر للغذاء من عمل المرأة أساساً ، وهى تستخدم فى ذلك عصا حفر مدببة الطرف يحفظ توازنها أحياناً حجر ركب فيها . أما توليد النار عند البشمن فيتم بطريقة احتكاك عصى خشبية . وفى العادة يقتسم الطعام كل من يحضره ، لكن لكل من يصطاد حيواناً الحق فى الاستئثار بجلده يتخذ منه كساء له ولأسرته .

ويتخفف البشمن فى لباسهم فيلبس الرجل قطعة من الجلد مثلثة الشكل تشد وسطه وتستر عورته ، وترتدى المرأة ازارا صغيراً من الأمام وإزاراً أكبر من الخلف وكذلك يتشح كلا الجنسين بعباءة من قطع جلدية تخيط بعضها ببعض ، ويتخذ سائر النساء والأطفال والشبان حلياً هى فى الغالب عقود يصنع

خرزها من قشر بيض النعام كما تتزين بعض القبائل بمساحيق سوداء وحمراء توضع خاصة على الوجوه . وفوق هذا يمارس الوشم كوسيلة للتزين ، ويضمد الجروح بالرماد . وفى قبيلة «نارون» يقوم كبار القوم بوشم الصياد الناجح مقابل هدية يقدمها مما اصطاد .

وتشيع بين البشمن كافة إقامة حفلات خاصة للبنات عندما يبلغن سن المراهقة لكن يظهر أن مثل هذه الحفلات لا تقام للأحداث الذكور إلا بين القبائل الشمالية. والبشمن لا يمارسون الختان، وإن كانت «قبيلة هيشويرى Hiechware قد أخذت بهذا التقليد من جيرانها البانتو . وإذا بلغ الشباب الحلم قام « مدعى الطب» بإثبات العلامة المميزة للقبيلة وشما على جباههم، ثم يعيش هؤلاء الشبان منعزلين مدة شهر أو شهرين يحيون فيها حياة شاقة بين الأحراج ويتلقون أثناءها تعاليم القبيلة وتقاليدها . أما الأنثى فإنها حين تبلغ هذه المرحلة فى عمرها ، تعزل فى كوخها ويحرم عليها تناول أنواع معينة من الطعام . وبين القبائل الشمالية الغربية تقام احتفالات للبنات فى تلك المناسبة يرقصن فيها رقصة دينية تعرف باسم رقصة « الظبى » وفيها يعقد الراقصون من الرجال على رؤسهم قرون الظبـــاء أو ما يشابهها فإذا تمت عملية التنصيب والانتظام فى مجتمع الكبار اعتبر البنات والشبان أهلا للزواج .

والقاعدة العامة أن يتخذ البشمن زوجة واحدة وإن لم يكن تعدد الزوجات محرما ، وعند القبائل الشمالية يحرم على الرجل الزواج من نساء عشيرته بل عليه أن يبحث عن زوجة له من العشيرة المجاورة وأن يقدم لها عند الزواج كساء من الجلد يعرف باسم كاروس Kaross وتحتم بعض القبائل أن يصطاد الزوج غزالا يقدمه لوالد العروس أو للعروس نفسها لإقامة وليمة العرس . وغالباً ما يعيش الزوجان مع أهل العروس مدة الأشهر الأولى وينتسب الأولاد لأبيهم ، وتتزوج الأرامل عادة مرة ثانية ، ويكون الزوج الثانى مسئولا عن أولادها ، فإذا ظلت الأرمل بغير زواج فإن المنتظر أن يمد لها أخو الزوج يد

المعونة ، وعلى الأخ أن يتجنب الاختلاط بأخته إذا ما كبر كما أن على الزوج أن يتجنب الاختلاط بحماته .

وتتم ولادة الطفل عامة فى الأحراج ثم ترضع الأم وليدها حتى الثالثة أو الرابعة من عمره فإذا حدث أن ولد طفل آخر قبل فطام الرضيع، فإن مصير الوليد الجديد الوأد عادة . ومن هنا ندر وجود أسر كبيرة العدد، فمتوسط أسرة البشمن ثلاثة . وإذا مات أحدهم دفنت الجثة على مقربة من الكوخ فى وضع نائم مضطجعاً على جنبه مرفوعة ركبتاه إلى أعلى ، وتدفن مع الميت جميع مخلفاته وتوضع الأحجار على قبره لتحول دون عبث الحيوانات بجثته ثم تنأى العشيرة بعد ذلك عن مكانها نازحة إلى موطن آخر لمدة عامين .

ويوجد بين جميع قبائل البشمن مشتغلون بالطب من الذكور والأناث ولعل أعظم أعمالهم أهمية هو استنزال المطر وتنظيم حفلات تنصيب الشبان (التى سبقت الإشارة إليها) هذا فضلا عن أنهم يعالجون أفراد جماعتهم ، ووسيلتهم المحببة فى العلاج هى اجتذاب الداء ونبذه ظهرياً ، وليس لهذه الطائفة زى خاص يميزها عن بقية أفراد العشيرة ويبدو انهم لا يتمتعون الآن بنفوذ كبير .

ومعلوماتنا عن معتقدات البشمن وعاداتهم الدينية ضئيلة جداً ، لكنهم جميعاً يعبدون القمر وغيره من الأجرام السماوية . وقد نسجوا حولها سلسلة من الأساطير والخرافات ، كما يعتقدون فى بعض الكائنات الخرافية التى تختلف مسمياتها بين قبيلة وأخرى (كاجن Cagn) (وجوناب Gaunab) (وهوو Huwu) (وهيش Hishe) (وتورا Tora وغير ذلك) وفى اعتقادهم أن هذه الكائنات تمثل قوى الطبيعة وبخاصة تلك التى تنزل المطر . . ولذا فهم يلجئون إليها كثيراً . ويعتقد البشمن بأن لبعض هذه الكائنات قوة الخلق كما يبدو ذلك خلال أساطيرهم الخاصة بأصل الوجود . والثابت أن بعض القبائل الشمالية تحرم ألوانا من الطعام وتراعى اعتبارات خاصة فى الصيد . ويسود بين البشمن جميعاً طقوس دينية معقدة تتصل بالحيوانات وغيرها من

مصادر الغذاء ولكننا لانعلم عن تفاصيل ذلك إلا النزر اليسير نظراً لأن العقائد الشعبية التي عرفها أسلافهم تذهب سريعا في زوايا النسيان .

والبشمن أهل مرح وبهجة ، ولهم شغف زائد بالرقص الذي يسود كافة القبائل كوسيلة من وسائل التسلية الاجتماعية وكشيء متصل بالطقوس الدينية ، وكثير من هذه الرقصات تتم في صورة تنكرية ، فللبشمن قدرة فائقة على التمثيل الهزلي وفي استطاعتهم أن يقلدوا بدقة من يشاءون تقليده من الناس والحيوان سواء في المظهر أو الحركات والأصوات ، حتى لقد كان التخفي في جلود الحيوان شائعاً في وقت ما كوسيلة يستعينون بها على الاقتراب من فريستهم كما يتضح ذلك من النقوش الشهيرة المحفورة في الصخور في مقاطعة هرشل بمستعمرة الرأس حيث ترى البشمن وقد ارتدى جلد نعامة وهو يغافل قطيعاً من هذا الحيوان ليتمكن من اصطياده . كذلك يولع جميع البشمن بالغناء وإن لم يكن من السهل على الأوروبيين أن يميزوا نغماتهم ، ولديهم آلات موسيقية متعددة الأشكال وأكثرها شيوعا أنواع مختلفة من الكمان .

وتتميز حضارة البشمن الجنوبيين بمـــا خلفته في المـاضي على جدران الكهوف والمغارات الصخرية والمساكن من رسم وحفر لمناظر رائعة . وهي في الغالب دراسات متعددة الألوان ذات قيمة فنية كبيرة ، ولعل كثيراً منها يرجع إلى زمن حديث نسبياً ، ومن بين الموضوعات الممثلة في ذلك رسوم لغارات على الماشية ورقصات ومشاهد دينية سحرية وهي تمثل آدميين ، وقد تنكروا وظهروا برءوس حيوانات . بيد ان معظم تلك الصور بمثابة تسجيل لأنواع الحيوانات التي كانوا يصيدونها ويتغذون من لحومها . ومع أن ممارسة الفنون قد قضي عليها تماما — فيما يبدو — فهناك أدلة كثيرة تثبت أن ثلث الرسوم المنقوشة على الصخر والتي تنتشر في كثير من الجهات إنما هي من عمل البشمن ، ويكاد لا يبقى اليوم من الفن الزخرفي سوى تلك النقوش المحفورة على قشر بيض النعام الذي يستخدم في اختزان الماء .

ومهما كان مدى احتكاك البشمن بألوان الثقافات الأكثر تقدما فانه لم يغير من طريقة حياتهم البدائية ولم يحفزهم على أن يتمثلوا شيئاً من الحضارة الأوروبية ، أو غيرها من الحضارات الأفريقية ، أو على أن يمارسوا التجارة أو يستأنسوا الحيوان أو يزرعوا الأرض . وعلى الرغم من كثرة استخدام أصحاب الأراضى للبشمن فى رعى الحيوان ، ومن صلاحيتهم ليكونوا خدما مخلصين أمناء إذا ما أحسنت معاملتهم ، فالظاهر أنهم كجنس ليس فى مقدورهم أن يكيفوا أنفسهم بحسب ما تقتضيه ظروفهم الجديدة ، وهم لهذا آخذون فى التناقص السريع ، وإذا حرموا الحرية هلكوا كما يهلك الذباب . وقد أخذت تتلاشى فى السهول قطعان الصيد البرى التى هى قوام غذائهم ، كما حرمت عليهم قوانين الصيد الصارمة أن يمسوا مابقى من الحيوان الأمر الذى اضطر البقية الباقية منهم وهم أصحاب البلاد الأصليون الاقتصار على غذاء نباتى غير مضمون ، وعندما وصل الأوروبيون إلى جنوب أفريقية كان الهوتنتوت الأشداء وجيرانهم من البانتو قد شنوا على البشمن حرباً عواناً واضطروهم إلى مغادرة مواطن صيدهم الأولى . وقد تابع المستعمرون عملية تجريد البشمن من أراضيهم وأخذوا فى الاستيطان الدائم بها كما أبادوا الصيد أو طاردوه . وما أن شرع البشمن فى الثأر لأنفسهم بنهب قطعان هؤلاء الغزاة حتى حاربوهم حرب ابادة مروعة فلم يبق من هذا الشعب القديم سوى بقايا قليلة مبعثرة آخذة فى النقصان .

الهتنتوت :

يشبه الهتنتوت البشمن فى معظم صفاتهم الجسدية والفارق الرئيسى أن الهتنتوت أطول قامة (٦٣ بوصة أو ١٥٦ سم تقريباً) ورأسه أكثر استطالة وضيقاً ، وفمه أشد بروزاً . ويكاد يكون من المسلم به أن الهتنتوت هم نتيجة اختلاط البشمن بالعناصر الحامية الأولى التى غزت هذه البقاع ، ومن هؤلاء استمد الهتنتوت تلك الخصائص اللغوية والحضارية التى تميزهم عن البشمن . وإذا نحن استثنينا اختلاطا بدماء البانتو فى بعض الجماعات فانه يغلب على الظن

أن هذا العنصر الخليط — قد ظهر أولا فى الشمال — فيما يجاور منطقة البحيرات العظمى ، وأن الهتنتوت لم يصلوا إلى جنوب إفريقية إلا بعد وصول البشمن إذ عبروا أعالى نهر الزمبيزى وانتهوا إلى الساحل الغربى ثم اندفعوا إلى الجنوب حيث صادفتهم طلائع الأوربيين الذين زاروا منطقة الكاب .

وكان التوزيع السابق للهتنتوت يشمل كل الشطر الغربى من جنوب إفريقية تقريباً من نهر كونينى Kunene شمالا حتى شبه جزيرة الرأس جنوباً ممتدين فى الداخل حتى نهر كى (Kei) وعلى الرغم من انتشار بقايا الهتنتوت فى جهات كثيرة من تلك المنطقة فان نظامهم الاجتماعى لايحتفظ بطابعه فى غير جنوب غرب أفريقية شمال نهر أورنج ومع أن الهتنتوت قبائل عديدة إلا أنهم جميعاً يتكلمون إحدى لهجات أربع متصلة بعضها ببعض اتصالا وثيقاً ، ومن ثم جرت العادة بتقسيم الهتنتوت إلى أربعة أقسام رئيسية هى :

قبائل جوناكوا Gona Qua وقبائل كورانا Korana وقبائل ناما Naman والجماعات القديمة التى سكنت الكاب .

وينتسب من بقى من الهتنتوت فى جنوب غرب أفريقية إلى قبائل ناما ولايزال منهم عدد كبير يربو على خمسة عشر ألف بحسب تعداد سنة ١٩٢٦ . أما قدامى الهتنتوت بمنطقة الكاب فقد فقدوا شخصيتهم بسبب الاختلاط الجنسى مع الوافدين من الأوربيين ومن رقيق جزائر الهند الشرقية وهم بهذا يكونون العنصر الأساسى فى الخلاسيين الحاليين من أهل الرأس الملونين وجماعات جركو Griqua وريهوبوث Rehoboth .

والهتنتوت شعب مهدد بالانقراض ولم يبق إلا النذر اليسير من عاداته ومعتقداته القديمة . والمجموعة الوحيدة التى تعرف نظمها الاجتماعية معرفة طيبة هى قبائل ناما ، وذلك بفضل الدراسة القيمة التى قامت بها السيدة هيرنلى Hoernle والتى اعتمدنا عليها إلى حد كبير فى إعطاء الصورة التالية :

تتألف الناما من مجموعات أو قبائل عدة لكل منها إسمها ورئيسها وتحمل كلها إسم « ناما » ، وتذهب تقاليدهم إلى أنهم ينحدرون جميعاً من أصل واحد وتدعى كل قبيلة منها ملكيتها لبعض الينابيع والغدران وتأخذ فى الانتقال من ينبوع الى ينبوع انتجاعا للمرعى . وتضم القبيلة عددا من العشائر التى ترتبط أنسابها بفرع الأب ، والتى لايجوز التزاوج فيها بين أفرادها . وتدعى إحدى هذه العشائر أن فيها مركزاً ممتازا وهى لهذا تتوارث زعامة القبيلة كلها ، ومع ماتتمتع به هذه العشيرة من عظيم الاحترام فان رئيسها لايستطيع أن يؤدى كثيراً من الاعمال دون معونة رؤساء العشائر الأخرى ولذا كان تصريف الأمور فى القبيلة فى يد المسنين من رجالها . وليست القبيلة وحدة مركزية ، ومع أنها قد تقيم بأسرها أحياناً فى منطقة واحدة — وفى مثل هذه الأحوال تبنى العشائر أكواخها بنظام محكم حول أكواخ عشيرة الزعيم — فالقاعدة المتبعة هى أن تميل الأسر التى تكون عشيرة واحدة إلى أن تقيم معاً فى جهات مختلفة من الأرض المخصصة للقبيلة التى تنتسب إليها . ولكل أسرة كوخها الخاص الذى يقيم فيه الأطفال حتى يتزوجوا ، وقد يحدث أحياناً أن تقيم البنات اللاتى أصبحن أهلا للزواج فى كوخ واحد مشترك .

ويقوم نظام القرابة عند الهتنتوت من حيث المبدأ على قاعدة التصنيف . فيطلق اصطلاح معين على جميع الأجداد . واصطلاح آخر على جميع الأحفاد كما يمكن التمييز بين الإناث والذكور باضافات لغوية خاصة ، ويحمل أبناء العم والخالة الاسم الذى يطلق على الأخوة والأخوات ، أما أبناء الأخت فانهم يتميزون بلقب خاص وقديما كان الزواج من هؤلاء مباحا . وكذلك يتميز الخال والعمة بألقاب خاصة بكل منهما وهم يراعون بدقة — فى الاصطلاحات المستعملة الفرق فى السن بين المتكلم والمخاطب .

والاختلاف البارز بين حضارة البشمن وحضارة الهتنتوت أن البشمن لا يمارسون إلا الصيد والجمع على حين يشتغل الهتنتوت بالرعى ، وتتميز ماشيتهم بقرونها الطويلة وأغنامهم بأذيالها السمينة وكذلك يختلف الهتنتوت عن البشمن

فى أنهم يمارسون أعمال صهر الحديد، يصنعون منه أدوات ورءوس حراب وسهام، كما يصنعون من الخشب أوانى وأوعية يحفرون عليها زخارف أحياناً ويصنعون من الخوص والحشائش حصيراً وأسبتة ومن الجلود حقائب ودلاء لحفظ اللبن والماء. لذلك كانت حضارتهم المادية بوجه عام أرقى من البشمن ولكنهم فيما يظهر لم يكونوا يوما يعرفون فن النقش أو الحفر على الصخر الذى نبغ فيه الجنس الأقدم على بدائيته.

وتمثل الألبان غذاء الهتنتوت الرئيسى وهم يحفظونه فى أوان وصحاف من الخشب حتى يصير غليظ القوام ثم يشربونه؛ وعلى النقيض من قبائل البانتو فى جنوب إفريقية فإن النساء وحدهن يقمن بحلب اللبن ويستكمل الهتنتوت غذاءهم بالخضروات كالجذور والثمار المختلفة والشمام البرى وتشبه طريقتهم فى الصيد طريقة البشمن وإن كانت فخاخهم أكثر اتقانا، ولم يعد الهتنتوت يستخدمون الحراب والسهام والأقواس وهم لا يذبحون ماشيتهم إلا فى المناسبات كالأعياد وإن كانوا يأكلون لحم الحيوان الميت، وقد قلت الحيوانات عندهم فى السنوات الأخيرة حيث اتجهوا إلى الزراعة ولكنهم ما زالوا رحلا إلى حد ما وفقا لحاجتهم إلى المرعى الأخضر وهم لا ينتقلون كثيراً كما يفعل البشمن فمعسكراتهم أكثر ثباتاً.

ويحيط بمضارب الهتنتوت سياج من الشوك له بوابتان احداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب، وتتقارب أكواخ العشائر على هيئة دائرة على الجانب الداخلى للسور ويخصص الجزء الأوسط للقطيع مع حظائر خاصة للعجول والحملان ولاشك أن بناء الأكواخ على شكل خلية النحل أكثر رقياً من أكواخ البشمن وهى تبنى بقطع من الخشب اللين غير المشذب بعد تثبيتها فى الأرض مع ثنى أطرافها العليا قليلا نحو الداخل وربطها بسيور من الجلد وبذلك يأخذ الشكل العام هيئة نصف دائرة.

وتزرع أشجار الصفصاف حول المعسكر وتثبت على حصير من الحلفا وتدهن

الأرضية بخليط من الدم وروث الماشية ويرقد أفراد العائلة على الحصير حول المدفئة فى الوسط وعندما ينقل المعسكر من مكان إلى آخر يجزأ إلى أجزاء تنقلها الثيران إلى المكان الجديد .

أما الملابس فقد أصبحت أوربية وكانت تتكون قبلا من الجلود بعد تجهيزها وتنعيمها فيلبس الرجال أردية من الجلد مع لفاع صغير فى بعض الأحيان .

ويرتدى النساء وزرة (مريلة) بديعة النقش وفوقها كساء طويل يتدلى من الأمام والخلف وأحيانا يضعن قبعات فوق رءوسهن ، كما يلبسن النعال . وكلا الجنسين يزين رأسه بحلى من النحاس ، ويرسم على جسمه رسوما بمادة المغرة والدهن ، ويتخذ الأناث حلية من الودع ويلبسن أشرطة من الجلد الخام حول أرجلهن ، بينما يلبس الرجال فى أذرعهم أساور من النحاس والعاج ، والظاهر أنه لا يعرف بينهم الآن أى لون من ألوان التشويه الجسدى بالرغم مما ذكره الكتاب الأقدمون من قيامهم باستئصال إحدى الخصيتين وبتر عقدة فى الاصبع الخنصر .

ويقوم الوالدان للطرفين بترتيب أمور الزواج والمألوف أن يبدى أهل الفتاة شيئاً من التمنع وحينئذ يقوم أهل الشاب باقناع أسرة الفتاة ، ثم ينتهى الأمر بالموافقة ولا يسمح للفتى والفتاة بالاختلاط أثناء فترة الخطبة إلا عن طريق وسيط ، ويشهر الزواج بحفل يقيمه والد العريس وقد يساهم فيه والد العروس أحيانا . وفى يوم الزفاف يقدم كل من الزوجين إلى حماته بقرة على سبيل التذكار لأنهما صاحبتا الفضل فى تربيتهما منذ الطفولة ... وتتم مراسيم الزواج عادة فى بيت والد الزوج ، حيث يقام للعروس حفل بمناسبة انضمامها إلى عشيرة زوجها لا يشترك فيه سوى النساء المتزوجات كدليل على قبول العروس عضواً فى مجتمعهن ، وعلى الزوج ان يكرم حماته الاكرام كله ، ويقال إنه يظل على استحياء منها واحترام لها وأنه لا ينبغى له أبداً أن ينظر إليها أثناء مخاطبته إياها .

وتعتبر الزوجة سيدة كوخها وما يحويه من أثاث منزلى ، وهى التى تقوم بحلب الماشية ، ولا يستطيع الزوج أن يتناول شيئاً منه إلا بإذن منها ، وبوجه عام يبدو أن المرأة تتمتع بقسط كبير من الاستقلال وأنها بمنأى عن تحكم زوجها.

ويسود نظام وراثة الزوجة ، بحيث تؤول الأرملة إلى أخ الزوج المتوفى .

ويحرم على المرأة الحامل عدة أمور منها على سبيل المثال أنه لا يجوز لها أن تشهد حيواناً يذبح ، إذ يعتقدون أن ذلك قد يؤثر فى الطفل تأثيراً سيئاً ، والمألوف أن تطول مدة رضاعة الطفل . وليس هنالك من الشواهد مايدل على أنهم يئدون الطفل إذا ما أنجبت الأم أخاً له قبل أن يتم فطام الأول كما يفعل البشمن . ويتسمى الأطفال الذكور باسم أمهاتهم ، ويتسمى الأناث باسم أبيهم ولذا يحمل الأطفال الأخوة الذين هم من جنس واحد إسماً واحداً ، أما الفروق فى أعمارهم فتراعى بإضافة كلمات خاصة فى نهاية الاسم . ويمنح الوالدان كل طفل بقرة خاصة يصبح لبنها وقفاً عليه .

وعلى الرغم من أن الشخص المسن كان يترك قديماً ليهلك جوعا ، فإن تقاليد الحياة الأسرية تقضى الآن بتكريم كبار السن وبأن تقدم لهم فروض الاجلال والاحترام ، ولذا كان للأخ الأكبر مقام ممتاز وله الكلمة المسموعة فى أى موضوع يطرح للمناقشة وبجانب هذا ، فإن ثمة حواجز قوية بين الذكور والأناث من الأخوة عندما يكبرون ويجب عليهم عندئذ أن يتجنب كل منهم الآخر ، فلا يجوز للأخ أن يخاطب أخته مباشرة أو أن ينفرد معها فى الكوخ ولا أن يتحدث عنها إلا بأعظم آيات الاحترام . « وإن أغلظ قسم يمكن أن يقسم به المرء أن يقسم بأخته الكبرى » . وليس فى مقدور الرجل إطلاقا أن يخاطب أخته بنفسه بل ينبغى أن يفضى بما يريد إلى شخص آخر وهذا يتحدث إليها بالنيابة عنه . أما إذا لم يظفر بشخص وسيط فإنه ينطق بحاجته على نحو تسمعه أخته كأن يقول : أود شخصاً يبلغ أختى أنى أريد أن أشرب لبناً .. وفى استطاعة الأخت الكبرى أن توقع العقاب على أخيها الكبير إذا ما حاد عن التقاليد الواجبة من قواعد التلطف وآداب السلوك .

وهـــذه العلاقة بين الأخت الكبرى وأخيها تؤثر بالتالى فى العلاقة بين الأطفال وعمتهم وخالتهم . فتراهم يعاملون العمة بمزيد الاجلال والاحترام بينما يتمتع الأطفال بوافر الحرية فى صلتهم بخالهم فيستطيع الولد أن يفعل مايشاء فى بيت خاله دون أن يلومه أحد على سلوكه . كما يجوز له أن ينتقى ما يحاوله من ماشية خاله دون استئذان .

وفى تقاليد الهتنتوت مراسيم يقومون بها فى مناسبات الميلاد والمراهقة ، والزواج ، والزواج من أخرى ، والشفاء من مرض .. الخ . وهى أمثلة جيدة لما يسميه Van Gennep مراسيم الانتقال - أى مراحل الانتقال فى حياة الفرد - فإن كل فرد فى مجتمع الهتنتوت ينتمى إلى طبقة معينة يلتزم أفرادها بواجبات محدودة ويعرفون قدرهم تماماً كما يدركون الطريق السوى لآداب السلوك مع زملائهم فى طبقتهم أو مع من هم أدنى أو أعلى منهم مرتبة . والشخص الذى يكون فى مرحلة انتقال من طبقة إلى طبقة فى المجتمع والذى يعرف فى لغتهم باسم عناو Inau يكون فى حالة التحريم إذ يكون خطراً على نفسه وعلى كافة من يتصلون به ، فإذا بلغ الطفل فعلا مرحلة المراهقة فإنه لا يعتبر فى عداد الأطفال ولا ينتمى إلى طبقتهم ولكنه فى الوقت ذاته لا يعتبر عضواً ناضجاً فى القبيلة فيكون بذلك فى مرحلة انتقال ويصبح ولا موضع له فى طبقة من الطبقات فترة من الزمن ، إذ يجرد من ظروف الطمأنينة والثقة التى كان ينعم بها فى طفولته ويعرض لمخاطر جسيمة ، ويجتاز تبعاً لذلك طائفة من المراسيم القصد منها أن يتدرب على الاندماج فى سهولة ويسر فى طبقة الشـــبان الناضجين . وتتلخص أهم مظاهر تلك المراسيم فيما أوردته الكاتبة هورنلى Hoernle إذ تقول :

« إنه فى حالات الميلاد أو الزواج أو المراهقة أو الثكل لابد أن يكون هنالك اعتراف صريح وإقرار واضح بتلك الحالة الجديدة ، فتتخذ الخطوات اللازمة لصالح الفرد والمجتمع معاً وذلك بتقبل الفرد — ذكرا كان أم أنثى — فى المجموعة الجديدة التى بدأ ينتمى إليها، ويتم ذلك بإعداد وليمة مقدسة لايدعى

إليها سوى الأشخاص البارزين ، أما فى الأزمات الأخرى فلا بد أن تسبق الولية المقدسة مراسيم أخرى لامفر منها ، ومؤداها أن يحقن الفرد — الذى يعتبر دنساً حتى يندمج فى المجموعة الجديدة — بشيء من كيان تلك المجموعة حتى يغدو مشابها لها ، وطريقة ذلك أن يحدثوا جرحاً بعضو من أعضاء الجسم ، يختلف باختلاف المناسبات ، ويكون الحقن بخليط من الدهن والأوساج ينتزع من جسم الشخص الذى يقوم بتلك المراسيم ويحدث هذا فى حالات الزواج للمرة الثانية وبلوغ سن المراهقة للأولاد وقبول الفرد فى طبقة الصيادين ، وعلاج بعض الأمراض الدنسة ... أما المرحلة الثانية التى يمر بها الفرد بعد اجراء هذه المراسيم فهى اعتزاله المجتمع مدة تختلف طولا وقصراً يتخلص بعدها من كل مايمت بسبب لمظاهر حياته السابقة ويخرج الفرد من عزلته وكأنما ولد ميلاداً جديداً ، فيقوم الشخص الذى يجرى هذه المراسيم بتنظيف جسم الفرد تنظيفاً خاصاً حتى يبرأ من دنسه ويلبسه بعد ذلك زياً جديداً ، وفى الوقت ذاته يطهر البيت تطهيراً شاملا ثم يتناول أفراد الأسرة جميعهم طعاما خاصا يقال له طعام التطهير يذبح فيه حيوان واحد يأكل منه الشخص — الذى يعتبر بعد دنساً — ويشاركه إياه فى تناوله كل فرد لاخوف عليه من تلوثه بالدنس ويتبع ذلك أخيراً تعريف الفرد تعريفاً دقيقاً بواجباته اليومية والمألوفة فى طبقته الجديدة والتى ظل بمعزل عنها زمنا طويلا . وبذا تعود حياته إلى مجراها الطبيعى ومن ورائه الجماعة الجديدة التى ينتمى إليها تشد أزره وتأخذ بيده .

ومهما اختلفت مراسيم مرحلة الانتقال فى تفاصيلها فإنها تتفق فى مظهر معين هو ألا يمس الشخص الماء بأى صورة من الصور إذ يعتقد الهتنتوت أن للماء تأثيراً غريباً كما يخلعون عليه صفات القداسة وذلك نظراً لطبيعة بلادهم المجدبة ولما يلقونه من مشقة فى الحصول على الماء اللازم لقطعان أغنامهم وماشيتهم ، وبينما يستعمل الهتنتوت الماء فى الظروف العادية دون مبالاة للطقوس الدينية ، فإنه فى الأحوال الخاصة الحرجة يكتسب معنى ذى وجهين : فهو يعتبر من ناحية مصدراً من مصادر قوة القبيلة وحمايتها ويكون من ناحية أخرى مصدر خطر

لكل من يتورط فى مأزق لأى سبب من الأسباب . فالماء البارد يعتبر مصدر خطر كبير للشخص الدنس، فعليه ألا يمسه إطلاقا حتى إذا تمت طقوس التطهير فإنه يسمح له بذلك إذ يقوم شخص ذو مكانة برش الماء على جسمه كافة .

وللماء — فى اعتقاد الهتنتوت — قوة فاعلية غريبة ، فالطبيب الساحر مثلا لا يغتسل بالماء البارد ولا يمسه إلا مرة كل عام (من نهاية العام إلى نهاية العام التالى) ويتركز تأثير الطبيب وقوته فيما يكون بجسمه من وسخ ودهن يتخذ منه مادة لطبه، فإذا مامس الماء تناقصت قوته . وقد حدث أن أمر رئيس إحدى القبائل بإلقاء ساحر يدعى برسيا Berseba فى البركة عندما ألقاه يستعمل قوته فى أفاعيل الشر ، وبذلك سلبه قوته السحرية سلباً تاما وجرد طبه من تأثيره الضار . . ومما يماثل ذلك أن الشخص الذى يرش جسده بالماء يقى نفسه من الشياطين ، كما يصب الماء البارد على القبر حتى تستريح روح الميت وتحفظه مما قد يزعجه . وإذا ماهبت عاصفة على كفر من كفور الهتنتوت ، فسرعان ما تبادر الأسر إلى داخل أكواخها تعد الماء البارد لتلقى به فى طريق الريح ، فإذا أهملوا ذلك فمن المحقق — فى اعتقادهم — أن يموت واحد منهم .

وثمة دليل آخر على ما للماء والمطر من أهمية قصوى لدى قبائل ناما Naman ذلك هو إقامة حفل سنوى للمطر يعتبر أعظم حدث اجتماعى أثناء العام حيث تجتمع القبيلة بأسرها وتقدم أضحية من النعاج الحوامل التى لا يضحى بها إلا فى هذه المناسبة الكبرى جلباً للخصب والبركة .

وتبدأ مراسيم الانتقال فى صورة جلية فى الحفلات التى تقام للأناث عند بلوغهن المراهقة إذ أن الحفلات التى تقام للذكور وشيكة الزوال منذ أن غدا صيد الحيوان الكبير أمراً مستحيلا . أما الفتاة فلا تكد تظهر عليها علامات المراهقة حتى تجوز مراسيم وطقوس محكمة الوضع . فهى تعزل أولا عن الحياة العادية فى كوخ صغير مظلم يلحق بداخل كوخ أمها وتلف فى ملاءة من جلد الغنم وفى عزلتها هذه لا تكلم الناس إلا همسا ، غير أن صديقاتها يقمن بزيارتها

ويسحقن لها صنفاً من أوراق الشجر ذى رائحة طيبة ويغمرنها بمسحوقه غمراً.. وطالما هى فى الكوخ ، لايجوز لها أن تمس الماء البارد فإذا ماحان موعد مبارحتها الكوخ تتكفلها مربية يشترط فيها أن تكون زوجة صالحة نجحت فى تربية أطفالا عديدين وأن تكون قد تجاوزت سن الحمل وهى التى تولت رعاية الفتاة أثناء فترة الاعتزال فتقوم بتدليك جسدها بمزيج من المسلى وروث البقر المبلول لإزالة ماعلق بها من أوشاب الطفولة واوساخها ثم تدثرها زياً جديداً وتقودها بعد ذلك إلى الكوخ الخارجى حيث تعد معها طعاماً للنساء اللاتى احتشدن لاستقبالها . وعلى المربية أن تأخذ بيدها فى كل ماتفعله ثم تصبح الفتاة حرة أن تطهو طعاماً جديداً لتقدمه مرة أخرى . . وتقوم العجوز التى ترعاها بتعريف الفتاة جميع واجباتها اليومية فيجمعان الخشب معاً كما تلتقط معها الجذور والثمار الوحشية وتسند ذراع فتاتها أثناء حلب اللبن الذى يعد محرماً فلا تشربه إلا المربية العجوز ومن فى عمرها من النساء . وفى المساء عندما يحين موعد إحضار الماء تذهب الفتاة فى رفقة العجائز من النساء وتسير المربية أمامها وامرأة عجوز أخرى من خلفها ، وكلهن فى صف واحد ، وعندما يبلغن مورد الماء تمسك المربية فرعا من الشجر وترش به الماء على الفتاة ثم تدعك قدميها بالطين ، وفى النهاية تأخذ كل منهما فرعاً وتضرب به على صفحة الماء ثم تملأ العجوز وعاء البنت بالماء كما تملأ وعاءها هى وتضع الوعاء الأول على رأس الفتاة وتعودان معاً للكوخ . وهذا السماح للبنت بمس الماء يعد إيذانا بانتهاء فترة الانتقال لديها . ويذكر «هان Han» أنه إذا مابلغت الفتيات سن المراهقة عند بعض القبائل ألزمن بالجرى والتطواف عراة أثناء أول عاصفة رعدية تحدث حتى تغتسل أجسامهن بماء المطر ، وفى اعتقادهم أن مثل هذا الاغتسال يجعل المراهقة امرأة صالحة تنجب عدة أطفال. ويقول الكاتب أنه رأى بنفسه هذا المشهد وشاهد الفتيات تجرى فى ليلة ممطرة والرعد يصم الآذان والسماء كأنها رقعة فسيحة يغمرها وميض البرق .

ولا يبدو أن هناك مراسيم تحريم أو دنس خاصة بالرجال عند الزواج الأول ، وإنما تجرى مثل هذه المراسيم والطقوس للرجال والنساء على السواء

عند الزواج مرة أخرى : وفى حالة الوفاة فإن موت الإنسان لا يؤثر فى اعضاء أسرته فحسب بل يتعداهم إلى سائر أفراد القبيلة جميعهم إذ ينبغى عليهم أن يجوزوا مراسيم وطقوسا تمحو ما يترك الموت فيهم من آثار الدنس . كذلك يصبح الوالدان دنسين إذا فقدا طفليهما ويعاملان معاملة مماثلة .

ويكفن جثمان الميت بجلود يحبكونها بعضها إلى بعض ويقضى الأقارب والأصدقاء ليلتهم خارج الكوخ الذى يوضع فيه الميت ويأخذون فى بكاء وعويل ذى صبغة دينية خاصة ثم يوارى الجثمان فى ظهيرة اليوم التالى . وللقبر حفرة فى أحد طرفيه يوضع الميت فيها مستلقياً على ظهره ورأسه إلى الغرب . أما فيما سلف فكان الميت يوضع على هيئة الجالس ووجهه نحو الشرق . وتسد تلك الحفرة بأغصان الشجر وقالب من الحجر ثم يهال على القبر كومة عالية يضع عليها كل من شهد الدفن حجراً أو غصناً .

وجرت العادة فيما مضى بأن تهجر الأسرة كوخ الميت إلى مكان آخر ، أما الآن فإنهم يكتفون بنقل الكوخ إلى موضع آخر من مخيم القبيلة ، وقد يستغنى حتى عن هذا الإجراء .

وعلى أثر الانتهاء من عملية الدفن يقوم أقرباء الميت بغسل أيديهم بالماء قبالة كوخ الميت ويأخذون فى البكاء والتلوّى حزناً عليه . وقد استبدلوا بالبكاء تراتيل دينية يرنمونها . ثم تقوم أسرة المتوفى بنحر الذبائح حسب مقدرتها ومواردها ، وتساهم كافة الأسر فى اعداد الآنية لجمع الدم واللحم والاحشاء كل على حدة .

أما الدم فيسخن لدرجة الغليان ويمزج بنوع من العشب ويحرك حتى يتصاعد منه البخار ، وهنا يجتمع أهل الميت حول القدور ، وقد وضعوا الجلود فوق رءوسهم حتى يتصببوا عرقا ثم يأتى رجل مسن ليس من أهل الميت ويأخذ من سفاج القدور ليرسم خطاً على بطن كل فرد من أسرة الميت ولا يتناول أقارب

الميت سوى لحم الذبائح والآخرون يتناولون الأحشاء ، أما الدماء فلا يتعاطاها سوى ذلك الشيخ ومن كان فى مثل سنه .

وتتم هذه المراسيم فى كوخ الميت دون مشاركة أرملة الميت إذا كان المتوفى رجلا ، ودون مشاركة الأرمل إذا كان الميت زوجته ، فالأرمل والأرملة يعتبر كل منهما دنساً عقب موت أحد الزوجين ، ويحرم عليهما أثناء هذه الفترة تناول اللحم النيء ومس الماء البارد ، كما يحرم عليهما أيضاً المرور بين قطعان الماشية أو تناول أى قدر من القدور .

وتنتهى فترة الحزن وهى فى الواقع فترة الدنس بتطهير شامل يعقبها تقديم الطعام والقيام بالمراسيم الدينية للاقتراب من الماء والاضطلاع بأعباء الحياة اليومية كما يحدث فى المراسيم الخاصة ببلوغ الفتاة سن المراهقة مع ماهنالك من من اختلاف طفيف فى التفاصيل .

وفى أساطير الهتنتوت ومعتقداتهم الدينيـــة ما يمكن أن يوصف « أبطال آلهة » وهى منتزعة فيما يبدو من عقائد روحانية ومن تمثيل أو تجسيم لقوى الطبيعة التى تحدث المطر . وأكثر هذه المعبودات ذيوعا تسويل جواب Tsuill Goab وهيستى ايبيب Heitsi Eibib وجاواب Gauab أو جاوناب Gaunab .

وهذا الأخير وهو معروف لدى البشمن يعتبر الآن بمثابة الشيطان ويرجح أن يكون ذلك نتيجة لأثر الارساليات المسيحية ، وكان فيما مضى رمزاً لأرواح الموتى كما كان يظن أحياناً أنه يتخذ شكل عاصفة عاتية مشئومة . وقد أثبتت حديثاً السيدة هورنلى Hoernle أن ثمة صلة وثيقة بين الجاوناب هذا «وهى هن» Hei Hun تلك الأشباح التى ترفرف على القبور أو تنبعث فى داخلها والتى ترتعد منها قبائل الناما .

وفى أساطيرهم أن جواناب كائن شرير وفى صراع دائم مع ســــيد آلهتهم

تسويل جواب الذى يبتهلون إليه بالدعاء طلباً للمطر والغذاء ويقال إنه استطاع أن يفتك بجواناب الشرير غير أنه تمكن من العودة إلى الحيـــاة مرة أخرى .

وتزعم الأسطورة أن النزاع بين الاثنين نزاع ســـنوى ومن أبطالهم الخرافيين هيتس ايبيب Heitsi Eibib ويعتقد أنه يعيش على الأرض وأنه قد مات وبعث عدة مرات ، ويتحدثون عن أعماله العجيبة التى يؤمن بها الهتنتوت إيمـاناً مطلقاً . وكل مايروى عنه من الأعمال إن هى إلا أعمال رجل قد وهب قوة خارقة .

و « قبوره » التى هى أكوام من الحجر ، يصادفها فى أقطار الهتنتوت ولا يمر شخص منهم على واحد من تلك الأكوام دون أن يضيف إليها حجراً أو فرع شجرة وقد يتمتم داعياً إياه أن يهيء له حظاً موفوراً من الصيد .

ويبدو أن عبـادة القمر كانت ذائعـــة بين الهتنتوت زمناً ما ، ذيوعها وانتشارها بين جماعات البشمن اليوم ، ولـكن يظهر أن عبادته قد تلاشت الآن ولو أن ذكر القمر يبرز بوضوح فى بعض أساطيرهم إذ يجعلون له صلة بأصل الموت .

إن هذا الوصف الذى قدمناه للبشمن والهتنتوت قد كتب منذ عشر سنين ولا يزال صحيحاً إلى اليوم ، غير أنه ينبغى أن نشير إلى نتـائج بعض الأبحاث الحديثة فى بعض أرجاء جنوب افريقية حيث كشف الغطاء عن بعض البقايا البشرية تتمثل فى جمجمة إنســان بوسكوب Boskop التى عثر عليهـا فى أقليم بوتشستروم Potchestroom بالترنسفال ويرجح البعض أن بقايا بوسكوب هذه تمثل النمط الخاص بأسلاف البشمن والستراندلوبر والهتنتوت ، إذ كانوا جميعاً من طراز جنس واحد ولم يك ثمة فروق بينهم .

وتتألف هذه البقايا من غطاء جمجمة كامل تقريباً وعظمة الخد الأيمن ، وجانب كبير من الجزء الأسفل للناحية اليسرى للفك الأسفل وبعض أجزاء من عظام الأطراف . وقد رسم السير آرثر كيث صورة لانسان بوسكوب : فهو ذو جمجمة كبيرة كاملة التكوين — ومن المقطوع به أنه من نوع الانسان الراقى ورأسه منخفض ونسبته الرأسية ٧٥ تقريبا كما تبرز فى جبهته بوضوح مميزات البشمن هذا فضلا عن بعض الخصائص الأخرى التى تساق دليلا على الارتباط الوثيق بين إنسان بوسكوب ومجموعة البشمن والهتنتوت . وليس هناك رأى قاطع فيما إذا كانت جمجمة إنسان بوسكوب تمثل عنصرا لا يفترق عن عنصر بوسكوب خويصان Boskop Khoisan أم أن إنسانى بوسكوب والخويصان يمثلان معا سلالة من سلالات ماقبل البوسكوب Proto-Boskop وهذا الرأى أكثر ترجيحاً . ومهما يكن الأمر فلإنسان بوسكوب أهمية كبيرة فى الجغرافيا الأنثروبولوجية لجنوب القارة الأفريقية إذ كثيراً ما يظفر الباحثون هنا وهنالك بجماجم تحمل بوضوح مميزات عنصر البوسكوب وعددها آخذ باطراد فى الزيادة ولبيان صلة هذا العنصر بعنصر البشمن نستشهد بقول كيث Keith : (١)

« إن لم يكن البسكوب هم أجداد البشمن مباشرة فانهم يمتون بصلة قريبة إلى السلالة التى تطور عنها هذا الجنس ، فالبشمن فى العادة ذوو رءوس كبيرة على شاكلة رءوس البسكوب وقد أشار الأستاذ درنان M. R. Dernnan بجامعة كيبتون حديثاً إلى شخص من البشمن ذى جمجمة تفوق نظيرتها لدى البسكوب فى جميع أقيستها لكنه لسوء الحظ لم يعرف بعد شىء عن القدرات العقلية لهؤلاء البشمن من ذوى المخ الضخم »

ومما تجب إضافته فى هذا الصدد أن جمجمة إنسان بوسكوب لا تعد هامة لما لما بينها وبين جمجمة الخويصان من تشابه فى الخصائص الجسدية فحسب ، بل

(١) راجع الكشوف الحديثة المتصلة بقدم الانسان للاستاذ كيث ص ١٢٣
Arthur Keith, New Discoveries relating to the Antiquity of Man, 1931. P. 123.

إنه إذا صح ماأشار إليه كيث فان لها من المميزات ما يصلها بالجنس الزنجى .

الأقزام Negrillos :

فى دراسة الزنوج الأقزام فى افريقية ، والمعروفون عادة بإسم Negrillos تبرز كما هو المتوقع عدة مشكلات تثير غاية الاهتمام فى الوقت الذى نعلم فيه عن هذا الجنس أقل مما نعلم عن أى جنس آخر . . فلسنا نعرف شيئاً عن نظامهم الاجتماعى ولم يستطع باحث بعد ، أن يكشف لنا الغطاء عما إذا كان لهذه الجماعات لغة خاصة بهم فكل ما وصل إلى أيدينا من ألفاظ مدونة إنما هو خاص بلغة جيرانهم من الزنوج .

والمنطقة التى يقطنها هؤلاء الأقزام سواء المشتغلون منهم بالصيد أوالقنص أو الجمع ، محصورة فيما بين خطى عرض ٦ شمالا ، ٦ جنوبا فى أعظم مناطق الغابات الاستوائية كثافة وتشابكا ، وتشير الأغانى الشعبية الأفريقية والتقاليد القديمة إلى أنهم كانوا أكثر انتشاراً منذ آلاف قليلة من السنين ، عما هم عليه اليوم . وأن قصة غزو طيور الكركى لمنطقة الأقزام أثناء هجرتها فى فصل الشتاء قصة قديمة قدم هوميروس على الأقل ، وإلى ذلك تشير الآثار الفنية القديمة لليونان وكان الفراعنة قبل هذا التاريخ بزمن طويل وفى عصر بناة الأهرام (حوالى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد) يبعثون فى طلب الأقزام من الجنوب ليرقصوا فى حضرتهم . والجنوب هذا بالتأكيد لم يكن يمتد إلى وادى الكنغو ، ولقد قام حركوف أحد أمراء أسيوط ومن أكثر قادة القوافل دراية بأربع رحلات لأرض يام Yam وهى التى تمتد جنوبا على الأقل إلى بلاد النوبة العليا فجلب معه إلى جانب «النفائس الطيبة قزمايحسن الرقص من أرض الأرواح» ولما علم الفرعون بهذا النبأ قبل عودة الأمير حركوف كتب إليه بالمبادرة فى العودة ومعه القزم مشيراً على الأمير باتخاذ كل مايمكن من التدابير لسلامة القزم :

« يمم نحو الشمال وأمثل فى حضرتنا سريعاً على أن تحضر معك القزم الذى جلبته من أرض الأرواح ، لتدخل السرور وتشيع الفرح فى قلب نفر كارع

ملك الوجهين القبلي والبحرى « الخالد أبد الدهر وعندما يتخذ القزم مكانه معك فى السفينة عين له قوما ممتازين يقومون على حراسته على جانبى السفينة وحذار أن يسقط فى النهر . وليكن إلى جانبه عندما ينام ليلا قوماذوو بصيرة يلازمونه فى خيمته . وإن جلالتى ليتحرق رغبة إلى رؤية هذا القزم أكثر من رغبتى فى نفائس سيناء وبلاد بنت، وإذا ماوصلت إلى البلاط ، وفى رفقتك هذا القزم حياً موفوراً سليما ، فان جلالتى سيغدق عليك من النعم مايتعادل مع رغبتى القلبية لرؤية هذا القزم »

على أن ثمة روايات حديثة تشير إلى السبب الذى جعل الأقزام موضع الحب والعطف فكتب يونكر Junker عن مقدرتهم المدهشة على التقليد الهزلى قائلا :

« إن قزماً من قبيلة أتشو Achua ممن رأيتهم وقمت بقياسهم منذ أربع سنوات وأتيح لى أن أراه الآن مرة ثانية فى جامبريه ، ليقدم لنا دليلا رائعاً فى هذا الصدد فقد جعلت من أساليبه المضحكة وحركاته الخفيفة ملهاة لمجتمعنا وقد قلد فى مهارة فائقة ودقة متناهية لازمات كل من رأى من الأشخاص مرة واحدة . ومن أمثلة ذلك تمثيلية للحركات وتغيرات الوجه التى تبدو على كل من يوسف باشا والحاج خليل أثناء تأديتهما فريضة الصلاة ، كما قلد أيضاً حديث وحركات أمين باشا بمنظاره ، ثم مثل فى صورة ساحرة ناطقة طريقة عملى ، فقد مثل بعد مضى أربع سنوات وفى تفاصيل متناهية فى الدقة وفى إحكام يدعو للدهشة ، تمثل طريقة إجرائى القياس الأنثروبولوجى معه فى روميك ، أما عن صفاتهم الجنسية فإن جنس النجريلو يعتبر أقزاماً حقيقيين فطول القامة يتراوح بين ٥٢ و ٥٧ أو ٥٨ بوصة (١٤٣,٥ سم) للذكور ٥٤ بوصة (١٣٥ سم) للأناث ، ويتفاوت لون البشرة بين الحمراء والصفراء مع ميل إلى اللون البنى أو السواد الشديد . ويكسو البشرة شعر خفيف كالزغب . والرأس أدنى إلى العرض وتبلغ النسبة الرأسية ٧٩ تقريباً ، والأنف أفطس ذو قنطرة صغيرة أو لا قنطرة له ، والوجه قصير يميل إلى العرض غالباً ويكون بارزاً عموماً

إلى درجة كبيرة فى نسبة غالبة منهم ، مما دعا المرحوم السير هارى جونستون Harry Johnston إلى أن يطلق تسمية الأقزام ذوى البروز Rygmy Prognathous على مجموعة تنتظم هذا الشعب الصغير إلى جانب بعض جماعات من زنوج الغابات المتأخرين . ويقال إن قوامهم ممتلىء ، ولو أن هذا الامتلاء لا يبدو واضحاً فى مجموعة الصوز التى سجلها كل من جونستون وشيبستا Schebesta

ويعيش الأقزام فى جماعات صغيرة ، ويذكر يونكر أنه قد عثر صدفة على ما يقرب من خمسين مأوى صغير لقبيلة آكا Akka مقاما بعضها بجوار بعض فى داخل الغابة .

ويستعمل الأقزام فى الصيد القوس والسهام المسسممة ، وعلى الرغم مما يقال عنهم من أنهم أهل غدر ومكر ، فإن علاقتهم بجيرانهم البانتو طيبة بوجه عام . ويعتبر البانتو إلى حد ما سادتهم وحماتهم ، ويتكلم بعض الأقزام لهجاتهم ، ويتبادلون معهم الصيد بالموز والذرة ونحو ذلك .

أما من الناحية الاجتماعية فمعرفتنا لأحوال الأقزام قد اتسع نطاقها أخيراً بفضل المشاهدات التى سجلها القسيس بول شيبستا R. P. Schebesta فقد طوف كثيراً فى بلاد الأقزام وكان هدفه الأول التعرف على تقاليد هذا الشعب الصغير وعاداته رغم ما عرف عنهم من حدة الطبع ، وثوراتهم المفاجئة فقد الفاهم هذا الرحالة دائماً وقد انطوت نفوسهم على الدعة والمسالمة .

ويظهر أن الطوطمية منتشرة بينهم وربما كانت عامة لديهم جميعا والعلاقة بين القزم وحيوان عشيرته (الطوطم) التى قد وضعها الرحالة شيبستا كما يلى :

« يبدو للمرء أحيانا أن عشائر الأقزام تعتقد فعلا بأن الطواطم كانت أجداداً لهم . . كما يعتقد معظمهم أنه سيمسخ بعد موته مسخا كليا أو جزئيا إلى حيوانه الطوطمى .. ولقد ظفرت بأصول العبادة الطوطمية هذه فى المخيمات الخمسة التى أقمت بها . . فعشيرة ابفوكا Abfoka تتخذ طائر بوتيو Butiu

طوطها لها كما تتخذ قبيلة افورا كا Aforacao الشمبنزى ، ولقبيلة مانتو Mantu طوطمان أحدهما حيوان مائى يقال له سليو Solio وثانيهما نبات سازا sasa بيد أن أكثر الطواطم انتشاراً هو النمر الأرقط والشمبنزى .

وفى تقاليد الأقزام أن يبدى جميع أفراد العشيرة أعمق الاحترام للطوطم فلا يجوز لأية مناسبة قتله أو مسه بسوء وبطبيعة الحال لا يجوز أن يؤكل لحمه ولا يجرؤ القزم حتى على أن يأكل أو يشرب من إناء مسه الطواطم »[١].

ونظام الزواج خارج العشيرة (الاغتراب) ليس إجباريا فى مجتمع الأقزام وإن كان كل منهم ينفر فى الواقع من الزواج من بين أفراد أسرته ، إذ يعتبر هذا محرما أشد التحريم .. ويظهر أنهم قد احتذوا جيرانهم من البانتو فى عملية الختان الشائعة لديهم .

ومما يجعل أى بحث فى ديانة الأقزام ، أمراً عسيراً ، اختلاطها المعروف بتأثيرات البانتو والحاميين . وإذا نحن حاولنا أن نبعد كل ما يمكن من أثر للعناصر الدخلية عليهم فلن يبقى فى النهاية شىء ذو بال . ولما كان أى شعب لا يقتبس من طقوس ديانة غيره سوى ما ينفق مع تكوينه العقلى فإنا نستطيع — مؤقتا — أن نعتبر ما سيرد ذكره من الآراء والطقوس مما جاء فى مذكرات الآب شيبستا كأنها تصور ديانة الأقزام ، رغم أن قسما كبيراً منها دخيل عليها [٢].

يبدو أن عبادة الأسلاف لاتشيع بين الأقزام على الرغم من شيوعها بين البانتو الزنوج بل الأقزام يؤكدون وجود قوة متصلة بعالم السموات يعدونها تارة الإله الخالق ، ويصورنها تارة فى صورة شيخ كبير قد أطلقت لحيته ، وهو

---

(١) (Paul Schebesta, Revisiting my Pygmy Hosts, 1936, P. 141)

(٢) من الانصاف للأب Schebesta الاشارة الى أن لم يتيسر حتى الآن نشر أى تقرير علمى عن أبحاثه وأن هذا الملخص الذى نعرضه هنا مأخوذ عن مؤلفين كتبا للقارىء العادى .

إله العواصف والبرق وقوس قزح ، ويطلقون عليه أحيانـاً إسماً خاصاً ، ويسمونه أحياناً أخرى بالسلف العظيم ، وإليه تقدم القرابين مثل تقديم قطعة من قلب حيوان مذبوح أوبعض شمع النحل . ويعرف هذا المعبود عند جماعة افيه Efé باسم توريه Tore وإليه يتوجهون بأدعيتهم وهو خالق الأشياء جميعها ، وإليه مرد كل أمر فى النهاية ويبتهلون إليه قبـل اقدامهم على الصيد بقولهم « أيها المعبود توريه هيء لنا غذاء . . . » ويأخذ توريه الموتى إلى حظيرته ويقتل الأئمـة والأشرار بما يحدثه من رعد قاصف . . . وعبادة القمر معروفة أيضاً بين الأقزام .

وفى الوقت الحاضر يدفن الأقزام موتاهم فى قبر فى جداره حفرة مستطيلة مقلدين فى ذلك جيرانهم من البانتو ، ويظهر أنهم كانوا فيما مضى يتركون الميت فى كوخ أحد أقربائه ثم ترحل الجماعة إلى موطن آخر .

والآن يصح أن نتساءل هل للأقزام لغة خاصة بهم أوأنهم جميعا يتكلمون لغة سادتهم من زنوج البانتو ؟ إذانحن لجأنا إلى أبحاث الأب شيبستا Schebesta فى حل هذه المشكلة المعقدة نراه يعتبر لغـة جماعة ا فى Efé اللغـة الأصلية لقبائل ايتورى Ituri التى تسكن الغابات ويعترف فى الوقت ذاته بوجود قدر كبير من الاقتباس وخاصة فى المفردات .

وإذا تعرضنا لمركز جماعات الأقزام (النجريلو) فى تطورهم ، فإن بعض الـكتاب يعدهم متفرعين عن جيرانهم من الزنوج الطوال بطريقة لا يمـكن أن توصف إلا بأنها ضرب من المسخ غير أنهذالرأى لايلقى كثيراً من القبـول ويفتقر إلى التأييد .. والأرجح أن يعد هؤلاء الأقزام ممثلين لجنس قديم تبدو فيه صفات الطفولة سواء من ناحيتى التطور الجسدى أو العقلى .

الفصل الثالث

الزنوج الحقيقيون

على الرغم من قدم الزنوج فى افريقية ، فإنه لم يعثر بعد على جماجم لهذا الجنس تنتمى إلى عصر من العصور القديمة نسبياً ، بل أن بعض المصادر التى نطمئن إليها قد كتب أن الزنوج ظهروا لأول مرة التاريخ فى عصر التوسع المصرى حوالى ١٥٠٠ ق . م . ، بيد أن هذا القول ليس صحيحاً ولا يمكن الاعتماد عليه إلا إذا تحدد المقصود بكلمة « التاريخ » وكلمة « الزنوج » . فقد كشفت رسوم على لوح اردوازى يرجع تاريخه إلى عصر ما قبل الأسرات ، (٣٢٠٠ ق . م تقريباً) تمثل أسرى وقتلى ذوى شعر صوفى مجعد وختانهم بنفس الطريقة التى تتبعها الآن قبائل المساى وغيرها من القبائل الزنجية بمستعمرة «كينيا» . ومع أنه لا يوجد وصف يدل على لون بشرة هؤلاء الأسرى والقتلى فإن جميع المبررات ترجح أنهم « زنوج » ومن الجنس الذى ينتمى إليه كثير من قبائل أفريقية الشرقية فى الوقت الحاضر . . ثم إن البحوث الأثرية فى اقليم النوبة قد كشفت حديثاً عن مقبرة صاحبها ذو شعر مفلفل ويرجع تاريخها إلى عهد الدوله الوسطى أى حوالى ٢٠٠٠ ق . م . . كما عثر الباحثون هناك أيضاً على أربع زنجيات فى مقبرة واحدة ترجع إلى القسم الأخير من عصر ماقبل الأسرات حوالى ٣٠٠٠ ق تقريباً .

وتنقسم إفريقية من وجهة الجغرافية الجنسية إلى قسمين يفصلهما خط ممتد من مصب السنغال ماراً بتمبكتو والخرطوم ، ثم يتجه جنوباً إلى التخوم الحبشة عند خط عرض ١٢ شمالا ثم يسير الخط بمحاذاة الحدود الغربية ثم الجنوبية لبلاد

الحبشة حتى نهر جوبا ومنه إلى ساحل المحيط الهندى . فالشعوب التى تقطن القارة شمالى هـذا الخط ، من البيض أو ذوى البشرة الفـاتحة وهم أصلا من الجنس القوقازى ، حاميون وساميون .

أما الشعوب التى تحتل القـارة جنوبى هذا الخط فهم أصـلا من الزنوج يتميزون فى كل مكان بالبشرة السمراء والشعر المجعد ، ومع أن هذا الخط يبين فى كثير من الدقة الحد الشمالى للشعوب الزنجية ، إلا أنه يجب أن نشير إلى أن الزنوج ينتظمون على الأقل ثلاث مجموعات كبرى لكل منها مميزاتها الخاصة ، وفى كل بقعة من وطن الزنوج المترامى الأطراف يظهر أثر الدماء الحامية والثقافة الحامية بقدر كبير أو قليل .

ويقتصر وجود الزنوج الأصليين فى جملتهم على الأصقاع المجاورة لساحل غانة وتشمل نيجريا والسودان الفرنسى وقسم من مستعمرة كمرون وربما منطقة الكنغو . أما بقية زنوج افريقية فقد اختلطوا بالحاميين بدرجة متفاوتة ويتنظم هؤلاء جماعات البانتو ، والنيليين ، وأنصاف الحاميين .

ويمكن تحديد اقليم غرب أفريقيـة وهو موطن الجماعات الزنجية النقيـة أو «الزنوج الحقيقيين» بأنه يمتد من مصب نهر السنغال عند عرض ١٦ الشمالى تقريباً إلى الحدود الشرقية لنيجريا ، وهنا أيضاً الحدود الشمالية القصوى لانتشار البانتو حيث تحاذى المجرى الأدنى لنهر ريو دل رى Rio del Rey ومن الوجهة السياسية ليس هناك جزء من أفريقية أكثر اضطراباً واختلاطاً من هذا الاقليم وهو عبارة عن مجموعة من الوحدات المحصورة يمتد كل منها من الساحل إلى الداخل وترجع نشأة كل منها إلى قيام مركز تجارى على الساحل فيما بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر ، وتتبع هذه الوحدات فرنسا وبريطانيا على التعاقب ، ولم يبق منها ملكا للبرتغال سوى وحدة واحدة ، ويضاف إليها جمهورية ليبريا السوداء التى يحتلها الأرقاء المحررون . ولا مندوحة عن أن نؤكد هذه الحقائق إذ أنها تفسر لنا بعض الأسماء التى تحملها بعض هذه الوحدات كساحل الرقيق وساحل الذهب

ونوضح التقسيم الاستبدادى للبلاد بواسطة الدول القوية بغض النظر عن الروابط المحلية والوشائج القبلية . وتلك الأقسام السياسية المحصورة بحسب وضعها المكانى من الشمال إلى الجنوب ثم الغرب هى :

السنغال (فرنسية) — غامبيا (بريطانية) — غانة البريطانية — غانة الفرنسية — سيرالبون — ليبريا — ساحل العاج (فرنسى) — ساحل الذهب [١] (بريطانى) — داهومى (فرنسية) — نيجريا (بريطانية) ، وهذه الوحدات جميعها تمتد إلى الداخل متوغلة فى ذلك القسم الكبير من القارة المعروف باسم السودان الفرنسى .

وفى ضوء معلوماتنا الحالية ينبغى أن يكون تقسيم الجماعات الزنجية النقية تقسيما أساسه اللغة . ففى المنطقة التى تمتد من السنغال وعلى طول ساحل غانة ونيجريا الجنوبية وفيما وراء ذلك فى الداخل ، عدد كبير من المجموعات اللغوية الهامة ، وكل منها وحدة قائمة بذاتها ولو أنها تنتمى جميعاً إلى المجموعة السودانية . ومن الأمثلة الحية على ذلك الجماعات التى تتكلم لهجات مختلفة مثل توى Twi وايوى Ewe ويوروبا Yoruba المنتشرة على التعاقب من الغرب إلى الشرق . وتنتظم كل مجموعة من هذه المجموعات اللغوية عدداً من القبائل تتشابه عن قرب أو بعد فى عاداتها ويتماثل أفرادها عامة فى عقائدهم الدينية وأساليب الحياة تماثلا كبيراً .

والصفات الجسدية المميزة للزنجى الحقيقى حسبما ذكره هادون Haddon هى البشرة السوداء والشعر المفلفل والقامة الطويلة ٦٨ بوصة (١٧٠سم) والرأس المعتدل الطويل (فمتوسط النسبة الرأسية ٧٤—٧٥) ، كما يتميز بالأنف الأفطس العريض والشفاه الغليظة المقلوبة والفك البارز إلى حد كبير .

ولحضارة هؤلاء الزنوج خصائص معينة ، فأكواخهم ذات أسقف تشبه « الجمالون » Gable ومن أسلحتهم الأقواس الدقيقة الأطراف التى تصنع خيوطها من ثمار الخضروات ، وكذا السيوف والدروع المضفورة ولا يستعملون

---

(١) إستقل باسم « جمهورية غانة »

القسي أو المقاليع ، ومن آلاتهم الموسيقية الطبل الخشبي ، وقيثارة من نوع خاص تعرف بقيثارة غرب أفريقية ، وتتميز بنظام أوتارها فلكل وتر حامله الخاص . ولا يتخذون من الجلد ملابسهم بل يحيكونها من لحاء الشجر وليف النخيل . والجمعيات السرية منتشرة بينهم ، ولعل هذا بعض السبب فى اتقانهم عمل القناعات . . وهم يجيدون نقش الوجوه الآدمية على الخشب بينما لا يشتغلون بعمل السلال المضفورة أو مساند الرأس .

ولا تشتغل هذه الجماعات برعى الماشية وإنما تستأنس الكلاب والماعز والخنازير والدجاج كما تزرع الفول واللوبياء والقرع والموز وأحيانا الفول السودانى . وقد تمارس بعض هذه الجماعات أكل لحوم البشر والتضحية البشرية التى كانت شائعة ربما بلغت حد الإسراف كما كانت الحال عند جماعة أشانتى Ashanti وربما كان من عادات بعضهم الختان وخلع القوطع العليا .

ولقد برعت هذه الجماعات من الزنوج الحقيقيين بغربى أفريقية فى الفنون التشكيلية . وهذه ناحية اختص بهم هؤلاء دون غيرهم من بقية الزنوج بالقارة وقد اشتهرت مدينة بنين Benin بوجه خاص بمنتجاتها من العاج المنحوت والأقنعة الخشبية والعاجية وصنع التحف من البرنز وعند احتلال هذه المدينة عام ١٨٩٧ وجد بها عدد لا بأس به من قطع سن الفيل ذات النقوش البديعة .

كما عثر على بعض التحف البرنزية التى صبت بطريقة خاصة تدل على مقدرة فنية فائقة . ولا شك أن الرأس البرنزى المعروف لزنجية صغيرة والمحفوظ بالمتحف البريطانى يفصح عن احساس فنى هائل امتازت به حضارة هذه الجماعات . وتنتمى أروع آيات هذا الفن إلى القرن السادس عشر الميلادى .

وعلى الرغم من أنه من انتاج فن زنجى الخالص إلا أنه يدل على تأثير أوروبى وخاصة تأثير برتغالى والواقع أن كثيرا من اللوحات البرنزية قد نقش عليها أوروبيون أو زنوج يحملون بنادق كما أن بعض الأدوات العاجية إنما تمثل بعض المصنوعات الأوروبية .

ويجدر بنا هنا أن نحاول وصف الجمعيات السرية التى تعتبر مظهرا بارزا فى حياة هؤلاء القوم بغربى أفريقية ولو أنه من الواضح أنا لانستطيع معالجة هذا الموضوع من جميع نواحيه معالجة شاملة نظرا لضيق المقام . . ولعله من المفيد أن نعرف أولا المقصود بالجمعية السرية .

إن لفظ « الجمعية السرية » يطلق هنا على طوائف عديدة متنوعة لا يربط بينها فى الغالب هدف مشترك ، بل إن عنصر السرية فيها يختلف اختلافا كبيرا من جمعية لأخرى .

فمن جمعية يستطيع أن ينتهى إليها كل فرد من الذكور بعد دفع الرسوم على العضو . . إلى جمعية تفرض امتحانا عسيرا عند الالتحاق بها وقد تكون لها لغة خاصة ونظام معين من المراسيم والرموز تستغلها فى تحقيق أغراض غير مشروعة فى نظر الإنسان الأبيض بل قد تتنافى مع النظم الاجتماعية لدى الزنوج .

بيد أن هذا النوع الأخير من الجمعيات قليل الانتشار فى تلك الجماعات .

وغالبية الجمعيات السرية إن هى إلا أندية تحقق المنفعة المشتركة فلا يكتسب أعضاؤها امتيازات اجتماعية فحسب بل إنهم يعملون كأداة صالحة لاستغلال ثروة الأغنياء ونفع الفقراء . وأعظم الجمعيات السرية عند قبائل يوربا Yoruba وأهمها جمعيتا أوجبونى Ogbony وأورو oro . بينما عبادة يوى Yewe فى داهومى أشبه ما تكون بجمعية سرية ، وفى كلبار Calabar شرقا تقوم جمعية اكبي Ekkpe أقوى الجمعيات السرية نفوذا وأعظمها انتشارا وتتألف من طوائف يتراوح عدد أعضائها بين الستة والعشرة .

وتمارس تلك الجمعية السلطات القضائية ويعدم كل من يقف فى سبيل تحقيق أغراضها . وفى القسم الغربى من موطن تلك الجماعات الزنجية تقوم جمعية بوروبش Poro-Bush عند قبائل مندى Mende وبولم Bulom والتمنى Temne التى يظن أنها كانت معروفة لبطليموس جغرافى القرن الثانى الميلادى وهى تمارس سلطة قضائية وتعبد النمر الأرقط .

ويبدو أن جمعية النور البشرية الرقطاء والتى أحدثت متاعب جمة لحكام غربى أفريقية مثل لأسوأ صور الجمعيات السرية فى غربى أفريقية . وتقترن الجمعيات السرية عادة بالأقنعة وقد سبق أن أشرنا إلى أن الجمعيات السرية والأقنعة من الخصائص التى تميز غربى أفريقية عن شرقها .

ومماهو جدير بالذكر أيضا أن الألقاب فى بعض هذه الجمعيات مشتق من حرف الجماعات هناك ، ولقب « الحداد » يعد من أهمها . ومهما يقال عن مساوىء الجمعيات السرية إلا أنه ينبغى أن نذكر هنا أن كفة الخير فيها ترجح كفة الشر فى أغلب الحالات . ومن أمثلة ذلك ماتقوم به جمعية بورو Poro التى طالما حرمت صيد السمك إذا ما أدركت أن هذا الصيد سيؤدى إلى نفاذ السمك كما تحول دون اتلاف أى نوع من المحصولات أو اقتلاع البطاطا فى غير موسمها وهذه الأهداف واضحـــة الوضوح كله فيما يحمله أعضاؤها من شارات خاصة .

ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب عموما إذا قلنا ان هذه الجمعيات السرية هى العامل الأول بل العامل الوحيد ذو الأهمية القصوى فى النظم الاقتصادية والسياسية فى حضارة الزنوج بغربى أفريقية .

وقد سبق القول بأن القسمين الأدنى والأوسط من نهر السنغال يكونان معا الحد الفاصل بين الحاميين والزنوج ، ففى جنوبى النهر مباشرة يتمثل الزنوج فى قبائل الولوف Wolof أو الجولوف Jolof وهم يحتلون مع قبائل سرر Serer معظم الأراضى التى تشغل الشقة فيما بين نهرى السنغال وجامبيا .

ويدخل فى هؤلاء السنغاليين قبائل توكولر Tukolor وبعض قبائل ماندنجو Mand ingo كقبيلة بامبارا Bambara ومالينكى Malinke حيث تولف مجموعة كبيرة من أصحاب الرءوس المستطيلة اذ تتراوح النسبة الرأسية مابين ٧٤ و ٧٥ ، كما يتميزون بالانف العريض فى الغالب (النسبة الانفية ٩٣) وان

يكن بينهم من يتميز بالأنف الضيق الذى يعزى ظهوره إلى اختلاطهم مع البيض .

واذا نحن استثنينا قبائل سرر Serer التى تصل قامة الواحد منهم إلى ٦٩ بوصة (١٧٢,٥ سم) ، فانهم من ذوى القامة المعتدلة الطول بوجه عام ، اذ يبلغ متوسط طول القامة بينهم ٦٦,٥ بوصة (١٦٦,٢٥ سم) ، وان يكن متوسط القامة بين قبائل مالينكى Malinke وعند توكولر Tukolor يزيد على ذلك ببوصتين تقريبا .

وتحتل قبائل الولوف الشقة الساحلية فيما بين سنت لويس والرأس الأخضر (بما فى ذلك دكار) والشقة الجنوبية لنهر السنغال وينتشر توزيعهم إلى الداخل فى منطقة متسعة . والواقع أن الولوف هم أشد الشعوب الأفريقية سوادا وأكثرها ثرثرة ويقال فى تفسير اسمهم تارة ان معناه الثرثارون وتارة السود .

وغالبية الولوف تدين بالإسلام اسما وقليل منهم مسيحيون ومع ذلك فالطقوس الوثنية ذائعة بينهم فهم يقدمون القرابين لآلهتهم المنزلية ومن أكثرها انتشارا « الوزغة » حيث يوضع لها جانبا وعاء فيه لبن كل يوم وينقسم الولوف إلى ثلاث طبقات وراثية : النبلاء والتجار والمنبوذين من الموسيقيين والأرقاء ولقد احتفظ الفرنسيون بمملكة كايور القديمة أكبر ممالك الولوف قاطبة وينتخب ملكها من بين أفراد الأسرة الحاكمة .

وتحتل قبائل سرر Serer شقة من الأرض تمتد فيما بين نهرى غامبيا والسانوم جنوبى الرأس الأخضر وقد كانت فيما مضى تحتل بجانب ذلك مناطق إلى الشرق والجنوب من مواطنها الحالية مما جعلها فى وقت ما تجاوز قبائل توكولر Tukolor وكونت آن ذاك مع قبائل الولوف قسما من امبراطورية التوكولور ، ولهذا السبب يظهر فى لغات هذه الشعوب الثلاثة الكثير من ضروب التشابه وآثار الاقتباس ، وبالمثل اختلطت قبائل السرر بالماندنجو الذين

ينتهى اليهم معظم أسرهم الحاكمة . وقد اشتهر السرر بطول عظيم فى القامة ولكن الأقيسة لا تؤيد هذا الزعم إلا قليلا ، والسرر أقل سواداً من الولوف ولكن تقاطيع الوجه أكثر غلظة .

أما الماندنجو — والأصح تسميتهم بإسم الماندى — فإنهم من أهم الشعوب التى يتألف منها السنغال الفرنسى إذ يحتل هذا الشعب الاقليم الممتد ما بين المحيط الأطلسى وأعالى نهر النيجر ، وهذا هو الحد الشمالى ، وخط عرض ٩ شمالا تقريباً وهو الحد الجنوبى .

وينتظم الماندى قبائل كبيرة لها أهميتها منها : دويلا Dyula وكاسونكى Kassonke وجولونكى Jalonkee وبام بارا Bambara والأصح تسميتها بان مانا Banmana وسونينكى Soninke ومالينكى Malinke وقاى Vei . والماندى والأصيل طويل القامة نحيل القوام ، وملامحه أدق ولحيته أكثف وبشرته أصفى من القبائل المجاورة .

ويقال عن الماندى أنهم يحتلون فى السودان الفرنسى مكانة مماثلة لمكانة قبائل الحوصة فى نيجيريا الشمالية ، والمأمول أن تزداد تلك المكانة أهمية فى السودان الفرنسى مستقبلا . واذا قدر لهم فعلا فان مركزهم الجديد يغدو مثلا طريفا لثأر التاريخ والزمن .

فى إقليم ماندونج Manding الموطن الأول للشعوب المتكلمة لغة المندى ، فى هذه البقعة بالذات يوجد موضع مدينة مالى التى ترجع شهرتها الى العصور الوسطى حيث غدت فى القرن الثالث عشر — وخاصة تحت حكم الملك منساموسى (١٣١١/١٣٣١) — حاضرة لأعظم ممالك السودان سطوة وبأسا التى سجلت ذكراها التاريخية الصحيحة .

ولقد ظلت أمبراطورية مالى هذه قائمة حتى تلاشت من الوجود حوالى سنة ١٥٠٠ م حين سقطت أمبراطورية مالى فى يد عصر أسكيا ملك صنغاى .

وتمتاز قبيلة بام بارا — بان مانا — بتنظيمها القبلى . وفضلا عن ذلك فلنظام طبقاتها أو طوائفها الحرفية أهمية أعظم » . ومن أمثلة تلك الطبقات طبقة صيادى السمك Semono وطبقة العـــدادين Numu وغيرهم

ومثل هذه الأسماء المهنية توجد بين بعض شعوب الماندنجو الأخرى التى تؤثر التميز بإسم الحرفة والصناعة على إسم القبيلة . . وترتبط بعض العشائر فيما بينها بنوع غريب من العلاقات يعرف لدى علماء الأجناس عادة بإسم روابط المزاح وفضلا عن أن هذه الروابط تلزم بتبادل العون والمساعدة وقت الحاجة فان المظهر العام لتلك العلاقات والروابط ، هو تبادل الشتائم علانية — وقد يتم ذلك فى مناسبات عامة — دون أن يستاء أحد الطرفين .

والختان عام للأولاد والبنات على سن العاشرة تقريبا كما هو الحال عند قبائل مالينكى Malinke ولا يصبح الفرد عضوا فى القبيلة الا بعد اجراء هذه العملية ويرتدى الملابس كل من الذكور والأناث كما يضع كل فرد نقـاب الوجه الخاص بقبيلته ، وهذه ظاهرة شائعة فيما بينهم .

ويعتمد البمبارا على الزراعة اعتماداً رئيسياً ويعيشون فى قرى صـــغيرة وربما تألفت القرية من أسرة واحدة وأكواخهم مستديرة الشكل لها سقف من القش مزوق الشكل . والشائع فى كل جماعة من جماعاتهم أن تجتمع السـلطتان الدينية والزمنية فى يد شخص واحد يدعى الديجوتيجى Dugutigi أى سيد الأرض . والمفروض أن سيد الأرض هذا ينحدر من سلالة أول قبيلة استقرت هنالك . وقد تنتخب الجماعة سيد الأرض من بين أفرادها إذا اضطرتها الظروف إلى الهجرة والإستقرار فى وطن جديد . . ويتولى الرئاسة الدينية فى القرية وهو أيضاً الشخص الوحيد الذى يستطيع التوصل للمعبودات المحلية فيقدم لها القرابين رغبة فى استدرار رعايتها وحمايتها . . وهذا المنصب وراثى يأخذه الأخ عن أخيه ثم يؤول إلى الإبن الأكبر . . وعلى الرغم من وجود رئيس مدنى فى بعض القرى يتولى الشئون الإدارية والسياسية فان سلطته فى

هذه الحالة قاصرة على الأمور المدنية البحتة فحسب ، بينما تظل سلطة « سيد الأرض » نافذة فى كافة الأمور المتعلقة بتوزيع الأرض إلى جانب سلطته الدينية

ولم تتأثر جماعات البامبارا Bambara بالإسلام إلا قليلا فقد احتفظت بعقائدها الخاصة بالأرواح وعبادة السلف ولكل قرية مصدر تمجده (دازيرى) Dasiri أو سلف مقدس مقره عادة فى جوف شجرة عندها يقـــدم سيد الأرض الأضحية ويقيم الصلوات فى جميع المناسبات الهامة . . وتقام معابدهم من هياكل مخروطة الشكل تبنى من الطين وفوقها آنية من الفخار ويزعم البامبارا أن دازيرى حين يغادر شجرته المقدسة لا يستقر على الأرض بل يمتطى حيواناً خاصاً كالأفعى أو السحلاة أو الفأر أو الحمار أو الماعز وغيرها من الحيوانات التى تعتبر مقدسة ويسمح لها بحرية التجول فى القرية لتحصل على ماتريد .

أما مملكة الصنغاى التى سبقت الإشـــارة إليها فقد بقيت إلى أن استولى الفرنسيون على تمبكتو ، بيد أن انهيار تلك المملكة لم يؤثر كثيراً فى كيان سكانها من شعب الصنغاى والذى يبلغ عدده مليونى نسمة ، ويحتل هؤلاء الأقليم الواقع فى جنوب المدينة ومنحنى نهر النيجر . والصنغاى فى أصلهم زنوج اختلطوا بالكثير من الدماء الحامية وبرغم اختلاطهم بالطوارق والفولا فانهم يؤلفون شعبا واحدا فى جميع مظاهره ، يتكلم لغة واحدة ويتخذ من الإسلام ديناً له ، أما من حيث الصفات الجنسية للصنغاى فإنهم ذوو قامة معتدلة الطول تبلغ حوالى ٦٢ بوصة (١٦٧,٥) ورءوسهم طويلة إذ تبلغ النسبة الرأسية ٧٥,٥. وتظهر آثار الدماء القوقازية بوجه خاص فى أنوفهم الدقيقة نسبياً والتى تصل فى النادر إلى الحد الأدنى للأنوف العريضة فالنسبة الأفقية بين الذكور ٨٣ وبين الأناث ٨٥ . وثمة دليل آخر على مابدمائهم من دم أجنبى يتضح فى لون بشرتهم الذى يوصف بكونه بنيا نحاسيا وهو بذلك يختلف عن لون زنوج داهومى أو ساحل الذهب حيث يشيع ذلك اللون القاتم أو الأسود بينهم غير أن شعر الصنغاى صوفى مفلفل كسائر الزنوج .

وتتصل بالصنغاى قبائل موصى Mossi وجورونسى Gurunsi وتم Tem وباربا Barba أوبورجو Borgu وغيرها من القبائل المماثلة لها وتنتشر توزيعها حتى أعالى نهر الفلتا ، بينما استطاعت هذه القبائل أن تقاوم انتشار الإسلام ببلادها غير أنه تسربت إليها تأثيرات الفولا والصنغاى والحوصة .

وتؤلف قبائل الموصى شطراً كبيراً من سكان أفريقية الفرنسية حيث يتمركز توزيعهم حول واجدوجو Wagdugu ويصل إلى الاطراف الشمالية القريبة من ساحل الذهب ويرجح أنهم وصلوا الى وطنهم الحالى فى حوض الفلتا من الشرق ثم اندمجوا فى السكان الأصليين وكونوا شعبا متجانسا تجانسا حضاريا ولغويا . . وقد اتحــــدت قبائل الموصى والداجونبا Dagomba والمامبروس Mamprussi تحت قيادة حاكم واحد ثم سيطرت على تمبكتو أمداً قصيرا فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ونظام الحكومة المركزية معروف عندهم إذ تتجمع القرى والمقاطعات فى أقسام ادارية تحت لواء ورؤساء يعينهم الملك الذى يقيم فى واج دوجو وبجانبه الوزراء وهم زعماء الولايات الخمس ، وكذا عدد كبير من رجال البلاط يتولون مناصبهم بالوراثة .

وقبائل موصى قوم زراعيون محصولهم الأول الذرة الرفيعة ولا يمتلكون من الماشية إلا قطعانا قليلة ، بيد أن خيولهم جيدة وحميرهم كثيرة . وهم وثنيون يقدسون الأسلاف ويقدمون الأضحيات فى خمائل مقدسة وعبادة الشمس والقمر معروفة عند بعضهم ويكتنفها بعض الغموض ويمارسها جماعه دينية ترتدى أقنعة ، وكهان هذه العبادة هم القوامون أثناء السنة على النار المقدسة التى يبقونها مشتعلة فى طاقة صغيرة بحائط الكوخ ، ويشترك هؤلاء فى اقامة طقوس دينية لنار جديدة فى نهاية موسم المطر .

والى الجنوب من قبائل الموصى ، قبائل جورونسى Gurunsi أو جورنشى Grunshi وهو اصطلاح عام يطلقه الموصى على القبائل التى تتصل اتصالا وثيقا مثل قبائل نو نوما Nunuma وكاسينا Kassena وسى سلا Sissala

ونانكانى Nankani وكلها تتكلم لغة واحدة وان تعددت لهجاتها وتشبة الموصى فى نواح كثيرة من طريقة معيشتها . ونظام « الأب » أو « سيد الأرض » الذى سبق وصفه عند البام بارا ، معروف عند جميع هذه القبائل أيضا ويعلل وجود هذا النظام بوجود ارستقراطية أجنبية من الغزاة .

وقد أدى انتشار الإسلام بالسودان الأوسط (الفرنسى) شرقى نهر النيجر إلى تلاشى نظم السكان الأصليين وأحدث تغييرا واضحاً فى تلك النظم فيما عدا الجماعات التى استقرت على طول الحافة الجنوبية وفى بقاع محدودة من حوض بحيرة تشادفقد ظلت بعيدة عن تأثيرالإسلام وفيما عدا هذا فقد اختفت النظم القبلية القديمة اختفاء يكاد يكون تاما وأمسى السودان الأوسط فى الألف عام الأخيرة موطنا لشعوب اعتنقت الإسلام وتجمعت فى تنظيمات سياسية على جانب كبير من الاستقرار ، ولكل شعب من هذه الشعوب لغته الخاصة وتقاليده التى يضفى عليها طابعه الخاص إلى حد كبير .

وإلى جانب امبراطورية الصنغاى التى سبقت الإشارة إليها هنالك ممالك برنو ، وكانم Kanem وباجرمى Baghirmi أما الحوصة فسنعالجها بالتفصيل فيما بعد نظراً لأهميتها . . ويتجمع حول بحيرة تشاد كل من الكانمبو سكان كانم والباجرمى والكانوزى (سكان برند) وهنا أيضاً يقطن الوثنيون من السكان الأصليين ومنهم جماعات بودوما Buduma المقيمون قرب بحيرة تشاد ، وموسجو Mosgo وماندارا Mandara وتحتل مناطق المستنقعات فى حوض نهر شارى . . وليس ثمة شك فى أن قبائل كانمبو وهم الذين يدعوهم الحوصة باسم برىبرى قد اختلطت اختلاطاً كبيراً بالدم الحامى ، وربما تكون لهم صلة بقبائل التبو Tibu أما الكانورى فى بورنو فيظهر أن التأثير العربى فيها أكثر وضوحاً ، ومن المحتمل أن يكون ثمة اختلاط بينهما وبين قبائل الفولا . وفى كل تلك المجموعات لا تزال الصفات الزنجيـــة واضحة فالأنف عريض والرأس طويل وإن تكن رؤسهم فيما يبدو أكثر استطالة من مجموعة السنغالين ومن أمثلة ذلك أن النسبة الرأسية لدى الكانمبو ٧٣ والقامة أكثر قليلا فمتوسط

طول قامة الكانمبو ٦٦ بوصة (١٦٥سم) وقبائل البوداما Budama الوثنية التى تقطن حول بحيرة تشاد وقيل أنها تشابه قبائل الشلك من النيليين فى تقاطيع الوجه وهم أطول قامة من الكانمبو ببوصتين تقريبا كما أن النسبة الرسية بينهم أعلى قليلا (حوالى ٧٤) .

ولا يعرف إلا النزر اليسير عن تاريخ قبيلة فياوب Felup (أو كما تسمى على وجه أصح ديولا Dyola) وهى تقطن المنطقة الساحلية ، وأمر استيطانها غامض فقد انتشرت على حساب جيرانها فى المنطقة الممتدة بين غمبيا وجزر بيساجوس Bissagos وقد أطلق البرتغاليون أسمها على مجموعة القبائل التى خضعت لنفوذهم على الرغم من أن بعضها قد اعتنق الاسلام فيما بعد . ويوصف الفيلوب بأن ملامحهم زنجية تماما ، ويقوم مجتمعهم على نظام الانتساب إلى الأم وتقوم ديانتهم على عبادة إله له صلة وثيقة بالسماء وهطول الأمطار .

وإذا انتقلنا إلى سيراليون وليبريا وجدنا أن أهم القبائل فيها هى مندى Mende وكب ايلى Kpelle (وهى من مجموعة الماندنجو) وتمنى Temne وبلم Bulum وكى سى Kissi ، وجولا Gola وقد اكتسبت قبيلة بلم سمعة سيئة إذ يحتمل أنها القبيلة التى نبتت فيها جمعية بورو Poro القوية التى سبقت الاشارة إليها .

ويشمل شعب الكرو Kru على عدد من القبائل تمت لها بصلة النسب من بينها جربو Grebo وبازا Basa ونى فو Nifu وغيرها ، ويبلغ مجموع سكانها جميعاً زهاء ٤٠ ألف نسمة . وتنتشر تلك القبائل على طول ساحل ليبريا فى المنطقة المجاورة لمنروفيا Monrovia حتى رأس بلماس Palmas ومع أن المأثور أنهم جاءوا من الداخل وتوضع لغتهم عادة مع لغة الماندنجو بالسنغال ، فانهم اشتهروا منذ زمن بعيد بالشجاعة والمهارة فى ركوب البحر وصيد الأسماك ، ولا تكاد تخلو سفينة من السفن التجارية التى تعمل فى سواحل غانة من أبناء قبيلة الكرو . ومع أن تقاطيعهم زنجية تماما فإن أجسامهم قوية ، والذائع عنهم أنهم أهل ذكاء ومغامرة واقدام . . وينقسم الكرو إلى وحدات

سياسية صغيرة لكل منها زعيمها الوراثى ، ويقال إن لديهم نظاما ممتاز لطبقات السن. وهناك أيضاً جمعيات سرية للأغراض الدينية السحرية تزاول السلطات القضائية ومن أشهرها جمعية كوى ايرو Kui-Iru « ملائكة الأرواح الراحلة » ينتظم فيها من يرغب من الذكور فيما عدا الأحداث الصغار ويرأسها « أب » أو زعيم يرتدى قناعا .

وتتوزع لغات ساحل غانة بين قبائل تنتمى إلى ثلاث مجموعات لغوية كبيرة : فالى مجموعة توى فان تى Twi Fante والتى تعرف غالباً باسم أكان Akan تنتمى قبائل أشانتى Ashanti وصافوى Safwe ونكورانزا Nkoranza وأدانزى Adanse وآسنى Assini وواصو Wassaw ، آهانتا Ahanta وبرونج Brong وغيرها فضلا عن قبيلة آجنى Agni فى ساحل العاج - وتنتظم أسرة إيوى اللغوية قبيلة إيوى نفسها وتقطن منطقة توجلاند Togoland مع شعوب داهومى الجنوبية . وتنتظم مجموعة يوروبا Yoruba قبائل نوبى Noby وقبائل منشى Munshi ، بينما لا تنتمى قبيلتا بينى أوايفيك إيبيبو Efik-Ibibo إلى أى من هذه المجموعات الثلاث . والتنظيم السياسى لهذه الشعوب متقدم نوعا ما فقد ظهر فى تلك الأجزاء طائفة من الولايات المنظمة تنظيما وافيا نسبيا بخاصة أشانتى وبنين Benin وداهومى Dahomy ويوروبا Yoruba.

وللولايات الثلاث الأولى سمعة سيئة لدى القارىء العام بسبب إفراطها فيما تقدمه من الضحايا البشرية فى مناسبات الأعياد السنوية ، والاحتفال بحصاد اليام (Yam) والاحتفال بالذكرى السنوية لموتاهم[1] . ويؤكد راترى Rattray فى أسلوب أدبى رائع مدى ماتتصف به قبائل أشانتى من الرحمة . ومع احترامنا لرأى هذا الكاتب كما هو معروف من دقة البحث وسلامة التعبير فإن من الظلم المبين أن نغمض الطرف عن مصادر أخرى عالجت مكانة هذه القبائل وتقاليدها فى شىء من الوضوح . . وربما أمكننا أن نتفق مع ما ذهب إليه كين Keane من أن هذه الأضحيــة البشرية وما يلازمها من فظائع ما هى إلا مثال لما توسلت

(١) لم يعد للأضحية البشرية الآن مكانة فى طقوس هذه القبائل .

به معظم الأديان من الخوض فى الدماء حتى انتهت إلى نتائج طيبة . . وعلى وجه العموم فإن مظاهر الدين والحياة الاجتماعية — كما أوضح ذلك اليوت — ترقى شيئاً فشيئاً إذا ما سرنا من الغرب إلى الشرق على نطاق ساحل غانة . مثال ذلك ما يحسه الباحث من مفارقات حين تنقل من مجتمع قبائل توى Twi إلى قبائل يوروبا Yoruba .

وسنفرد الصفحات القليلة التالية لمعالجة قبائل أشانتى Ashante باعتبارها نموذجا صادقا لتلك البقعة وإن ما نعرفه عن خصائصها بالنسبة ومميزات حضارتها أكثر مما نعرفه عن أية قبيلة أخرى من قبائل غرب إفريقية . وفوق ذلك لابد من الاعتراف بأن قبائل يوروبا Yoruba أكثر أهمية من الوجهة الاجتماعية بل يمكننا القول فى شىء من الاطمئنان بأنها أكثر قبائل نيجيريا أهمية على وجه الاطلاق .

إن الخصائص الطبيعية لقبائل Ashanti التى سنذكرها مستقاة من البيانات التى جمعها راترى Rattray . فقد قام بقياس الأشخاص فى كل خمسين ميلا ولذا غدت بياناته أكثر دلالة من الأرقام المختلفة التى نشرها غيره من الباحثين . والقامة عند الاشنتى معتدلة تبلغ عند الرجال ٦٤,٥ بوصة (١٦٤سم) وبين النساء ٦٠,٥ بوصة (١٥٤سم) وتتراوح النسبة الرأسية بين ٧٧ و ٧٨ فهى بين الحد الأقصى للرأس الطويل والحد الأدنى للرأس المتوسط . والنسبة الأنفية تصل فى المتوسط إلى ٩٥ بين الذكور ، ٩٠ بين الأناث . والتجانس الكبير نسبياً فى هذه المقاييس ينهض دليلا على أنهم شعب يتميز بتجانسه ويعلل ذلك بالعزلة الجغرافية لهذا الجزء من إفريقية إذ يحده البحر من ناحية والغابات الكثيفة من ناحية أخرى ، تلك الغابات التى وقفت حائلادون تدفق القبائل الحامية من من الشمال والشرق .

وتنتظم الشعوب التى تتكلم لغة توى Twi : عشائر تتبع نظام الاغتراب فى الزواج . ويرتبط أفراد كل عشيرة بحيوان يعتبر ذو صلة بأصل العشيرة . ويخاطب بلقب « الجسد » أو نانا Nana ، وهذا لفظ تبجيل كان شائعاً فى

مخاطبة ملك أشنتى Ashanti ، وأقاصيصهم التقليدية عن أصل القبائل ليست متواترة ولكن احدى العشائر التى تتخذ الببغاء شعاراً تؤكد أن ظهوره قد اقترن بالنشأة الأولى لأسلافهم فى هذا الوجود بينما تقدس قبيلة أخرى قط الأحراج والغراب ونوعا خاصا من الثعابين ولا يرضى أفرادها أن يعلقوا دون غراباً ليذودوا به عن سائر الطير . وقديماً كان على كل من يعثر على غراب ميت أو قط الاحراج ميتاً ، أن يتولى دفنه بعد تكفينه بقطعة من القماش . وفى اعتقادهم أن ظهور الثعبان الأحمر نذير بموت أحد أفراد الأسرة .

ويقال إنه إذا مات فرد من العشيرة التى تقدس « الفهد » ، تنقش صورته على جدار بيته ونعشه كما يقوم الناحتون بوضع بقع على أجسامهم من الطين الأحمر والأبيض والأسود تمثل ذلك الحيوان فى ألوانه المختلفة ، كما يرسمون البقع على رقبة الميت خشية أن يستحيل إلى فهد . وإذا ما أخذ زعيم عشيرة الفهد يحتضر سمع أحد الفهود يصرخ فى الأحراج . . ولكل عشيرة مدافنها الخاصة بها .. ويقال إن أفرادها تتحول أحياناً إلى الحيوان عقب الموت مباشرة . ويتخذ بعض الزعماء من طوطمهم شعاراً لهم . ولعل هذا يفسر وجود صورة الفهد منقوشة على مظلة أحد الزعماء فى اللوحة الملونة لعيد الحصاد تلك اللوحة البديعة التى نشرها بودخ Bowdich منذ أكثر من مائة عام .

ويربو عدد قبائل الاشنتى على ربع مليون ، ويعتبر ملك هذه القبائل — كما هو الحال أيضاً فى سائر القبائل التى تتكلم لغة توى Twi — السيد الأعظم صاحب السيادة العليا على زعماء الأقاليم الذين يستدفعهم ضريبة ، ويسيطر هؤلاء بدورهم على من يلونهم فى المرتبة من الزعماء ورؤساء القرى ممن يخضعون لحكمهم . وفضلا عما يتمتع به الملك من سيادة على المملكة بحكم منصبه فإنه يباشر سلطات الزعامة فى عاصمة ملكه وما يتصل بها من قرى وكفور . ويتمتع كل زعيم فى اقليمه بشىء من الاستقلال ، ويحيا فى عاصمة إقليمه حياة الأبهة والملك ، ويوزع العدالة بين الناس فى بلاطه الخاص . ولكن إذا استثنينا اعدام الأرقاء فإن الملك وحده هو الذى يملك الحق فى عقوبة الاعدام . ولا يستأثر الملك

وحده بالسلطة المطلقة بل يشترك معه إلى حد معلوم فى تدبير الشئون — مجلس البلاط الذى يتألف من الملكة والوالدة ، ولها المقام الثانى فى الأهمية بالمملكة — وزعماء أكبر الأقاليم وقائد الجيش . . وتحتم التقاليد استشارة هذا المجلس فى جميع مسائل السياسة الخارجية . فنظام الحكومة على هذا النحو أقرب إلى الارستقراطية منه إلى الحكم الفردى المطلق إذاً نحن غضضنا الطرف عن سلطة الملك فى القتل فى أى وقت يشاء . ونظام الجيش نظام اقليمى صرف ، فلكل مدينة كتائبها ويعين قوادها بالوراثة ويدينون بالولاء لزعماء أقاليمهم . وتحمل كل فرقة اسما خاصا بها ، يشتق فى الغالب من اسم حى من احياء المدينة التى ينتمى اليها أعضاؤها . والتنافس شديد بين فرق المدينة الواحدة الى الحد الذى يثير فيه رفع كتيبة لعلمها فى غير حيها اضطرابا شديدا .

أما الكرسى الملكى عند الأشنتى المشهور باسم الكرسى الذهبى فيرجع إلى أوساى توتو Osai - Tuto (١٧٠٠/١٧٣٠) رابع ملوك الأشنتى ومؤسس امبراطوريتهم . فنى مستهل عهده وصل إلى البلاد رجل يدعى أنتشى Anotchi وأعلن أنه مبعوث من رب السماء ليجعل من الأشنتى أمة مجيدة قوية ، فانعقد لذلك مجمع هائل فى كوماسى Coomassi وبينما تلفح الرياح بالعثير الكثيف ويضطرب الجو برعد قاصف ، أنزل أنتشى من السماء كرسياً خشبياً موشى بالذهب فى بعض أجزائه ، والغريب فى أمره أنه لم يسقط على الأرض بل نزل فى رفق على ركبتى أوساى توتو وآنذاك صاح أنتشى للملك وشعبه أن هذا المقعد إنما يحوى روح أمة الأشنتى بجبروتها وسلامتها وفروسيتها وهناءتها ماثلة فيه ، فإذا تحطم هذا الكرسى دب الوهن فى أمة الأشنتى وفقدت حيويتها وقوتها . ويقال إن المقعد لم يمس الأرض إطلاقا ولم يجلس عليه أحد أبداً وكان هذا العرش ينقل كل عام إلى بلدة بانتاما Bantama تحت مظلته الخاصة يحيط به كبار الأعيان .

واعتبار المقعد الذهبى عنوان لسلامة المملكة من الأمور التى تتفق تماماً

مع تفكير الزنوج عامة وسيجد القارىء فى موضع آخر مثالا آخر لكرسى نيكانج Niakang عند قبيلة الشلك . ولكل زعيم من زعماء الأشنتى كرسى خاص يعتقد أنه يحوى روح صاحبه وتشد السلاسل حول العمود الأوسط الذى يرتكز عليه الكرسى « لتربط الروح إليه » . وإذا توفى زعيم ذو شأن ، يطلى كرسيه بمزيج من السخام وصفار البيض ويوضع مع كراسى أسلافه فى مكان مخصص لها يغدو هيكلا تأوى إليه روح الميت إذا ما دعيت لذلك فى مناسبات خاصة لتتقبل الهدايا والمذابح . وفى عيد أداى Adae الذى يحتفل به الأشنتى مرتين كل ثلاث وأربعين يوما متتالية ، يبتهلون إلى الموتى من زعماء عشائرهم ويسألونهم الرعاية ثم يقوم الرئيس بذبح شاه حيث الكراسى وتلوث تلك الكراسى بالدم ويوضع على كل منها قطعة من اللحم مقرونة بالدعاء بطول العمر والرفاهية بينما يرتل المنشدون أسماء الموتى ذاكرين مآثرهم ، وفى هذه الإحتفالات نبات اليام Yam[1] كما يصب قدر قليل من الروم على كل كرسى .

ويعتقد الأشانتى فى وجود آلهة للأرض إلى جانب « نيامى » Nyame إله السماء الأعظم ، الذى يمثل مكاناً سامياً بعيداً وليس لعبادته سوى أثر طفيف فى حياتهم اليومية . وعن هذا الإله الأعظم يتفرع عدد كبير من الآلهة أقل شأنا منه تسمى أوبوسوم Obosom أهمها قاطبة الإله تانو Tano وتتدرج هذه الآلهة الصغرى فى مراتبها تدرجا تنازليا حتى تتلاشى غالبا فى الطبقة المعروفة باسم سومان Suman تلك الطبقة التى تعد من أحط الكائنات الخارقة للعادة شأنا . ومع أن الأشنتى يلتمسون العون فى طبقة السومان وغيرها من القوى الروحية فإن عبادة الموتى وبخاصة الملوك منهم هى العبادة الشائعة بينهم وذات المظهر القوى البارز فى ديانتهم . فأنت تجد أكثر الاحتفالات أهمية لديهم الاحتفال الكبير الذى يقام للموتى ويعرف خطأ عند الأوربيين بعيد الحصاد Yam . وفى هذه المناسبة الهامة تقدم القرابين من النبيذ ونبات العام الجديد لأرواح الراحلين من ملوكهم ويقوم الملك بتقديمها وهو يتلو هذه الكلمات :

(١) اليام نوع من البطاطا وهو الغذاء الرئيسى فى غرب افريقية والجهات الاستوائية .

« لقد دار الفلك دورته وهاأنذا ممسك بالأغنام ونبات اليام الجديد وأقدم إليكم ما ترغبون فى تناوله . فأسألكم طول البقاء لى » « ولقومى هؤلاء شعب الأشانتى » . « وامنحوا البركة والنماء لما يزرعه النساء فى الحقول ، ولا تدعوا للمرض سبيلا إلينا » .

ولا يجوز للملك أو الشعب أن يتناول المحصول الجديد إلا بعد أن تأخذ الأرواح نصيبها .

والاسم الصحيح لهذا الاحتفال العظيم هو أودويرا Odwira ومعنى Dwira يطهر أو ينظف . ومع أن ما يلزم هذا الحفل تناول المسكر وما يراق فيه من دماء بشرية هو الأمر الذى يسترعى اهتمام المتفرجين ممن لا يدركون حقيقة مغزاه ، فإن هـــذه المظاهر تعد ثانوية فى الواقع بالنسبة للغرض الحقيقى الذى يقام من أجله . ويصف مرجعنا الثقة هذه المراسيم بأنها حفل يقام فى شهر سبتمبر من كل عام تمجيداً وابتهالا لملوك الأشنتى الذين رحلوا إلى عالم آخر ، وتطهيراً للأمة جمعاء من آثامها وهو وان يكن عيد الموتى فإنه يرتبط ارتباطا وثيقا ببواكير المحصولات والثمار . ومن هنا جاء الاسم الشامل الذى أطلقه الأوربيون على هذا العيد حتى اليوم وهو عيد الحصاد . ولا يعد هذا العيد مناسبة يتطهر فيها الشعب فحسب بل تطهر فيها الهياكل الخاصة بأرواح أسلافهم وآلهتهم وما دونها من الأرواح غير البشرية . ويؤكد الكاتب ما لهذا الاحتفال من دلالة سياسية وقيمة عملية وما يقترن به من مظهر دينى سحرى : ففضلا عن أنه يؤدى إلى مثول الزعماء التابعين للملك واشتراكهم فيه كل سنة فإن فيه ضمان قوى لولائهم ، كما أنه يعين على إحكام الروابط التى قد يتطرق إليها الوهن بين مختلف الأحزاب ممن تدين بالولاء لملك أشانتى .

إن هذا الاحتفال لا يقام اليوم وقد شهده بودخ Budich عام ١٨١٧

ووصفه وصفاً دقيقاً وأرفق وصفه بلوحة زاهية الألوان ينبغى على كل قارىء أن يتأملها بنفسه .

أما فى داهومى فإن موت الملك يعتبر نذيراً لنساء القصر بإبادة ما يحويه من أثاث ومعدات، ثم يقتلن أنفسهن عقب ذلك لكى يلحقن بسيدهن ومقتنياته ويقال إن خمساً وتسعين وخمسمائة من هؤلاء النسوة قد هلكن على أثر موت الملك أند أزو الثانى Andazo II سنة ١٧٨٩ وذلك فضلا عن عدد كبير من جنود حاشيته ، والمجندات اللائى يعرفن «بالأمزونيات» والخصيان والمنشدين وغيرهم .

والأعياد السنوية التى تعتبر استمراراً للاحتفال الكبير بوفاة الملك تهدف إلى العمل فى فترات متعاقبة على ازدياد اتباع الملك الراحل فى عالم الأرواح . ويقصد من وراء عيد الحصاد السنوى — كما هو الحال لدى الأشنتى تحقيق غرض سياسى هو مثول زعماء القبائل بين يدى الملك فى عاصمة مملكته كذلك يضحى المئات منهم كل عام وذلك من جراء التقليد الشائع عندهم والذى يقضى بوجوب إبلاغ كل عمل من أعمال الملك إلى العالم الآخر عن طريق رسول من الأسرى يكمم جيداً ثم تقطع رأسه بعد أن يعطى قطعة من النقود وزجاجة من الروم تكفى مطالب رحلته .

وثمة نظام تتميز به داهومى وهو تكوين فرق حربية من النساء تعرف لدى الأوربيين باسم « الامزوميات » كما تعرف فى داهومى باسم زوجات الملك و « أمهاتنا » وقد شاهد السير و . ف . بورتون Burton عام ١٨٦٢ ذلك الجيش خارجا من مدينة كانا Kana فى حملة حربية فقدر عـــدده بألفين وخمسمائة من النساء ثلثهن غير مسلحات . وقد عزا أصل هذه الفرق الى أن تكوين المرأة الجسمانى فى داهومى يحاكى جسم الرجل مما يجعلها قادرة على منافسته فى احتمال المصاعب والمكاره والحرمان . والأمل فى تكوين فرق « الأمزونيات » أن تتألف غالبيتها من المجرمات والزوجات المقترفات للزنى واللائى يرسلن للملك لارتكابهن ذنبا عقابه الموت فيشير بانتظامهن فى الجيش

بدلا من أن يقدمن قرابين فى « الأعياد » التى جرت العادة بتضحية المجرمين فيها ، وقد أعيد تنظيم قوة المجندات هذه فى عهد الملك جيزو Gezo عام ١٨١٨ وازداد عددها وقتئذ زيادة كبيرة ، فلماجاء خلفه جليلى Gelele أمر أن تعرض عليه كل فتاة قبل زواجها فيجند من تروقه منهن ويقسم هؤلاء الفتيات على الاحتفاظ بيكورتهن بيد أن للملك الحق فى اتخاذ من يشاء منهن زوجة له وتتمتع نساء البيت بحقوق زوجات الملك فلا يجوز أن يمسها أحد بسوء وإلا كان الموت جزاءه . وعند مدخل القصر يقوم نصب يقال إنه يكشف سر الزانيات من النساء فتظهر عليهن بوادر الحمل . والمفروض من الناحية النظرية ألا ترى النساء المجندات الرجال إلا أثناء تحركات الجيش فى الميدان . أو أثناء العرض العسكرى يفصل بين الجنسين أعواد من البوص توضع على الأرض ولكن برغم هذه الاحتياطات فقد حدث أثناء زيارة بورتون Burton أن ألقى مالا يقل عن مائة و خمسين من الأمزونيات حبالى وأحضرن إلى ساحة العدالة بصحبة عشاقهن من الرجال فحكم على بعضهن بالموت ، ويقوم بتنفيذ هذا الحكم على مثل هؤلاء نساء داخل جدران القصر .

وتتسلح الأمزونيات بقربينات وبنادق وسكاكين حادة طويلة يصل طولها إلى ١٨ بوصة . ومن هؤلاء المجندات يتكون حرس الملك الخاص ومن أعمالهن وقت السلم مرافقة نساء القصر عند ورودهن الآبار لجلب المياه ويسبق الموكب جرس تعتبر دقاته بمثابة إنذار لجميع الرجال بافســـاح الطريق . وكانت فرق الأمزونيات تلعب دوراً هاما فى الاستعراض والأعمال التى تقام عادة أثنـاء عيد الحصاد . وكتب المسيو بورجيرو Borghero يصف مشاهد بطولاتهن عام ١٨٦١ فوصف كيف كلفن وهن حفاة الأقدام بالاغارة فوق حواجز من الطلح والسنط الشائك وكيف تسلقن بيتاً تغطيه أشواك تلك الأشجار فأتممن هذه المغامرة فى جرأة تدعو إلى الدهشة وتمكنت الفرقة من أن تسوق أمامها الأسرى حتى جئن بهم إلى قدمى الملك . والذائع أن هؤلاء الأمزونيات يظهرن فى الحرب جرأة نادرة وغايتهن الأولى فى ذلك حمل الأسلاب الدالة على بسالتهن

كالأعلام والرءوس البشرية وعظام الفك التى تقتطع عادة من جرحى الاعداء وأحيائهم على السواء وتقدم كهدايا نفيسة تزين بها الطبول وغيرها بيد أن بارتون لم يعجب كثيراً بهؤلاء الامزونيات إذ يقول :

« إنهن يعملن بدقة كقطيع من الغنم ... ومع أنهن يتكلفن مظهر الزهو الحربى فإن مظهر وجوههن لا يدل على قسوة أو عنف وتتميز الضابطات منهن بغطاء الرأس الأبيض . ولهن تابعات مسلحات تكون الواحدة منهن فى الغالب فتاة صغيرة من الرقيق تحمل بندقيتها وقيادة الفرق بيد الضابطات . ولعل أهم ما يميزهن تضخم هائل فى العجز ونمو فى الأنسجة الدهنية لا يوحى على الاطلاق بأنهن كن عذارى قبل انتظامهن فى تلك الفرق .

ولا يعرف سوى القليل عن الصفات الجسدية لأهالى داهومى ، لكن الواضح أنهم طوال القامة بوجه عام ، ذوو رؤوس مستطيلة ، ولكن بينهم تجانس ملحوظ . ومن الواجب أن يجد هذا الشعب عناية من جانب الباحثين وخاصة قبيلة بيلا بيلا Pila Pila التى تقطن شمـــالى داهومى إذ لو طابقت الأبحاث مستقبلا المقاييس القليلة الموجودة فعلا ، فمن المحتمل أن تعد تلك القبيلة من أطول السلالات البشرية إذ يصل طول القامة بين أفرادها إلى أكثر من ٧٢ بوصة (١٨٣ سم) . ولعل الشبه القائم بين ملامح الوجه بينهم وبين بعض القبائل فى المناطق الشمالية من ساحل الذهب وقبائل النوبة القاطنة فى كردفان، لعل هذا الشبه يؤيد الرأى الذى سنعرض له فيما بعد والذى يذهب إلى افتراض وحدة جنسية جوهرية بين سكان المنطقة المرتفعة بغربى أفريقية وبين سكان الجبال السود فى مرتفعات كردفان ودارفور .

أما قبائل يوروبا Yoruba فتبلغ النسبة الرأسية بين أفرادها حوالى ٧٦ وهى لا تكاد تختلف إلا قليلا عن سائر القبائل الأخرى فى أقليم مثل قبائل إيبو Ibo وقبائل ايبيلو Ibilo بما فيهم افيك Efik حيث تنخفض النسبة الرأسية إلى ٧٥ ، أما قبائل ايجاو Ijaw فى كلبار فتقترب النسبة الرأسية لديهم إلى ٧٨ . وعلى الرغم من أن

قبائل يوروباهذه تحتل شطراً كبيراً من الساحل فى الوقت الحاضر فإنه فى الواقع شعب يتركز نشاطه فى الداخل ، والمنطقة الساحلية التى يحتلها أقل بكثير من أية منطقة ساحلية تحتلها أية مجموعة من المجموعات اللغوية الكبرى التى سبقت الإشارة إليها . ولقد كانت منطقة ايلورين Ilorin بشمالى نيجريا — وهى المنطقة التى اعتنق أهلها الإسلام فى وقت قريب نسبياً — تنتمى فيما مضى إلى قبيلة يوروبا . وقد أجمع الكتاب على اعتبار اليوروبا أكثر شعوب غربى أفريقية تقدماحيث يسودالأمن والطمأنينة على الأرواح والممتلكات ، ويتمتع الفرد فى سلوكه بقسط كبير من الحرية كما تظهر لديهم قيم اجتماعية أسمى بكثير مما هو سائد لدى جيرانهم من القبائل الأخرى . فليس من المستغرب إذاً أن قراهم ومدنهم أكثر اتساعا وعمرانا . وأن يكونوا تجاراً أكثر حذقا ونجاحا من الشعوب المجاورة . بيد أن هذا الرقى الاجتماعى لم يصحبه تغير يذكر فى أفكار الشعب العامة عن الحياة بل ظلت نفس النظرة التى لجيرانه من القبائل الأخرى ، فهنا لك إله السماء الذى يدعى أوبورن يليه آلهة كثيرة أخرى أهمها شونجو Shongo إله الرعد .

الفصل الرابع

الزنوج الحقيقيون (تتمة)

عالجنا فى الفصل السابق القبائل التى تحتل الاقليم الساحلى الممتد جنوبا ثم شرقا فيما بين الرأس الأخضر والكمرون حيث توجـــد منطقة المستنقعات والأحراج الاستوائية والغابات الكثيفة وحيث الأمطار الغزيرة والهواء مشبع بالرطوبة الدائمة تقريباً ... فإذا تركنا ذلك الأقليم ويممنا شطر الشمال ، وصرفنا النظر عما قد نصادفه من النباتات الكثيفة على طول مجارى الأنهار ذات الشأن كالنيجر وبنوى Benue ، الفينا أنفسنا وسط أقليم اجتيـازه أقل صعوبة من سابقه ، فالغابات وأشجارها الضخمة تبدأ فى الاختفاء بالتدريج ، وتظهر الحشائش العالية المعروفة بسافانا البساتين ولا نلبث فى النهاية حتى نرى الحشائش القصيرة والنباتات شبه الصحراوية على طول التخوم الشمالية لمستعمرات غربى إفريقية ، فيبدو الغطاء النبـاتى وحالة المناخ مشابهة لما هو عليه الحال فى السودان ، كما تظهر الاختلافات واضحة فى عناصر السكان كنتيجـة لازمة لاختلاطهم بدماء العناصر القوقازية .

وهاهنا يقيم عدد كبير من القبائل الوثنية تحتل المديريات الشمالية من ساحل الذهب ونيجريا كما تحتل البقاع الداخلية من ساحل العاج وغانة الفرنسية ويقدر عدد سكان نيجريا الشمالية وحدهم بحوالى ثمانية ملايين . ورغم قلة مانعرفه عن تلك القبائل ، فقد قامت فى أراضيها أمارات الفولانى الإسلامية وممالك الحوصة ، ومن الضرورى أن نفطن إلى ما قد يكون هنالك من التشابه الأساسى بين هذه القبائل وسكان الجبال السود الذين يمتد توزيعهم إلى غربى كردفان ودارفور .

بل وينبغى أن نذكر مجموعة المماليك الإسلامية التى قامت خلال العصور الوسطى ، وانتشرت عبر إفريقية من النيل إلى السنغال إذ يعتبر هذان العاملان الدعامة الأولى التى يقوم عليها توزيع القبائل والحضارات فى الوقت الحاضر

والخريطة رقم (٢) التى توضح طرق التجارة الرئيسية فى شمال القارة تلقى بعض الضوء عن احتمال قيـــام اتصال غير مباشر بين مناطق هذه القبائل وحضارات البحر المتوسط ، وإن كان يحيط بمثل هذا الاتصال كثير من الغموض والإبهام . وتوضح تلك المسالك أيضاً طرق تجارة الرقيق التى تسربت منها الدماء الزنجية إلى الجانب الإفريقى من حوض البحر المتوسط قبل كشف الطريق البحرى إلى غربى القارة فى العصور الوسطى .

و هذا الفصل لانتعرض للشعب الفولانى وإنما نتناوله بالبحث فى الفصل السادس عندما نتحدث عن الحاميين ، فالفولانى ينتهى أصلا إلى العنصر الحامى ثقافة ودما ، وإن يكن قد أخذ فى الاختلاط التدريجى بالعناصر الزنجية .

أما الحوصة فانهم ينتمون أصلا إلى الجنس الزنجى رغم أنهم يتكلمون لغة حامية وليس من الصواب فى شىء أن نعد الحوصة عنصراً واحداً أو مجموعة واحدة ، بل لانستطيع أن نعدهم شعباً واحداً . فهم يمثلون فى الواقع خليطاً من شعوب تنتمى إلى أصول مختلفة وإن جمعتهم لغة واحدة ، واجتمعوا فى صعيد واحد .

ويتضح هذا الوضع إذا عرفنا أن مدلول كلمة حوصة Housa يقصد به أولا لغة الحوصة ويقصد به ثانياً الأقليم الذى يتركز فيه الشطر الأكبر من الشعوب الناطقة بتلك اللغة . والذى يمتد من زاريا Zaria إلى كتسينا Katsina وسكوتو Sokoto ويراد بالحوصه Housusa أيضاً كافة شعوب السودان الأوسط والغربى والتى تتكلم لغة الحوصة باعتبارها لغة قومية . فمدلول كلمة الحوصة إذن مدلول لغوى مثل كلمة البانتو ولكنها إلى حد كبير ذات دلالة دينية وثقافية تطلق على قبائل تختلف اختلافا كبيراً فى مميزاتها الجنسية . وينبغى

ألا نخلط بين الحوصة ولفظ حابى Habe الشائع الاستعمال بين قبائل الفولانى — ومن يطلقونه على جماعات فى منـــطقة كانووسوكوتو — من السكان الإصليين الذين لا يجرى فيهم الدم الفولانى كقبائل ماجوزاوا Maguzawa ولـكنهم يتكلمون لغة الحوصة فى الغالب فى تلك الأمارات . وعلى الرغم من هذا الاختلاط فى أصول شعوب الحوصة فثمة عنصر أساسى يميزهم .

« يتميز الحوصة الحقيق ببشرته الشديدة السواد شأنه فى ذلك شأن أهل السودان الأوسط ، ومن صفاته الأساسية استطالة الرأس كما تبدو جمجمته عادة خماسية الشكل كما يتميز عن زنوج غربى أفريقية بفك أقل بروزا وأنف أقل فطسا وجسم أقل تكوينا فى عضلاته ، وقامة أكثر طولا بسبب استطالة الساقين . . والحوصة أكثر صرامة وأقل شكا من الفولا كما أنه أكثر مرحا وأقوى بديهة فى الفكاهة من اليوربا » .

وشعب الحوصة الذى يناهز الخمسة ملايين ونصف المليون ، يتركز بوجه خاص فى الإمارات الاســـلامية التى تشمل سوكوتو Sokoto وكاتسينا Katsina- وكانو Kano وزاريا Zaria . بيد أن مدن الحوصة تنتشر فى جميع مديريات نيجريا الشمالية . ويمكننا أن نذكر فى شىء من الاطمئنان أن نظمهم الاجتماعية والاقتصادية تسود كل نيجريا وعددهم يزيد على ثلث سكانها ، وهم بوجه عام من مهرة الزراع ورعاة الماشية ، كما أنهم تجار مغامرون وأهل فن حاذقون يجيدون صناعة الجلود وعمل الحصر من القماش . والحمالون كلهم لهم طاقة هائلة من القوة والاحتمال . ولقد أثبت الحوصة فى المعارك التى اشتركوا فيها تحت القيادة البريطانية أنهم محاربون أشداء لا يجد الخوف إليهم سبيلا . ويدين معظمهم بالاسلام كما يتولى سلطان Sokoto الزعامة الروحية بينهم ومع هذا فان بعض القبائل التى تتكلم لغة الحوصة كقبيلة ابا جواريجا Abagwariga وثنية دينا .

ولقد غدت الحوصة فى العصور الوسطى قوة سياسية كبرى رغم أنه لم يعرف عنهم ميل البتة إلى الغزو . وكانوا آن ذاك مقسمين بين سبع ولايات تعرف باسم الحوصة السبع Housa Bokuor وتنتظم كانو ، وزاريا ، وداورا ، وجبير ، وكاتسينا ، وبيرام ، ورانو وتنسب هذه الأسماء السبعة لأبناء مؤسس مملكتهم الذى تزعمه الأساطير . وقد امتد سلطان هذا الاتحاد إلى كثير من الأقاليم المجاورة وظل نفوذه قويا منيعا حتى غزاه الفولانى فى مستهل القرن التاسع عشر .

وتروى الأساطير أيضا أن الجد الأول لملوك ولايات الحوصة هو أبايزيدو Abayezidu أحد أبناء الخليفة فى بغداد قدم مع أتباعه إلى داورا Daura حيث كانت تقوم بمهام الحكم داوراما Daurama تاسعة الملكات اللائى تعاقبن على عرش الحوصة وقد اشتد الظمأ على أبى يزيد هذا عند وصوله هناك فلما طلب الماء قيل له إنه فى بئر يقوم بحراستها ثعبان ذو بأس يقال له كى سركى Ki Serki يحول دون ورودها . فما كان من الأمير الشاب الا أن قتله وقطع رأسه ، فتزوجت منه الملكة اعترافا بفضله وشجاعته . ومنذ ذلك الحين لم يعد أهل دوارا يتحدثون عن ملكتهم بل أخذوا يشيدون بذكر ماى كاى سركى Mai-Kaiserki (أى قاتل الثعبان سركى Serki) واتخذت كلمة سركى (Serki) هذه مدلولا جديدا فى لغة الحوصة فاصبح المقصود بها الملك أو الرئيس وليس ثمة شك فى أن هذه الأسطورة على علاتها توضح لنا بعض مظاهر النظم القديمة ببلاد الحوصة كنظام الوراثة عن طريق الأم ، وعبادة الثعبان كما أنها تبرز من جهة أخرى الإتجاه الدائم لاقتباس النظم الشرقية والمبالغة الكبيرة فيما بين تلك الجهات وبين الشرق من روابط نتيجة لتأثير الإسلام المتزايد وانتشاره فى ربوع هذا القسم من أفريقية .

واذا نحن اتجهنا إلى القبائل الوثنية فى داخل هذا الإقليم الفينا بمجموعات تجل عن الحصر تختلف فى اعدادها وأهميتها . ومن بينها مجموعات (جاراوا

Jarawa) و (جوكون Jukun) ، (انجاس Angas) ، (جوارى Gwari) ، (بيروم Berom) ، (مونشى Munshi) وغيرها ولعل قبيلة نوبى Nupe التى تنتمى الى مجموعة جوارى من أهم تلك القبائل ، وتنتظم خليطا من المسلمين والوثنيين ، ومقرها اقليم زاريا ، بيد أنه ليس لدينا الا النزر اليسير من المعلومات الدقيقة عن جميع هذه الشعوب وكل مايمكن أن نقوله إن هذا القسم لم يشهد قيام ولايات أو ممالك وطنية قوية كما حدث فى الجنوب بل الراجح أن التنظيم الإجتماعى فى شطر كبير من نيجريا الشمالية إن هو فى الواقع الا مجموعة متحدة من القرى تؤلف مجتمعا واحدا تحت زعامة رئيس عام وهذه المجموعة المتماسكة كما ينعتها Meek قد تمثل قبيلة أو جزءا من قبيلة فى تكوينها والراجح أنه إذا وجد فى مثل هذا النوع من المجتمعات السياسية حافز يدعو الى وحدة قوية فانما ينبعث فى العادة من شعور أفرادها بصلة القرابة ومايتبع ذلك من اتخاذ عبادة مشتركة . ويزيد تلك الروابط تماسكا وجود الخطر الخارجى وعلى هذا الأساس يوجد فى مجموعة وارجاوا Warjawa فى نيجريا الشمالية سبعة زعماء يرأسون أقسامها ويعترفون بنفوذ زعيم أكبر لا يتمتع فى حقيقة الأمر إلا بقسط ضئيل من من السلطة المدنية ، وإن كان فيما يظهر يتولى وقت الحرب منصب القائد . ومثل هذا التنظيم الاجتماعى شائع بين عدد جم من قبائل أخرى أكثر عدداً كما هى الحال فى قبيلة بيروم Berom حيث لا تكاد سلطة الزعيم تعدو سلطة الحاكم المحلى ، ويحدث أحياناً أن يستمد الزعيم معظم سلطته تقريباً من مكانته كرئيس دينى كما هى الحال فى قبيلة (أنجاس Angas) وإن كان يتمتع فى الوقت ذاته ببعض الامتيازات المدنية كالحصول على نصيب من الصيد ومن العبيد الذين يؤسرون فى الحرب .

على أن مثل هذه التنظيمات ، القليلة التماسك ، التى أجملنا وصفها قد تؤدى إلى قيام بعض الزعماء الأقوياء فى هذا الجزء من إفريقية حين يهم قائد حربى أو شخصية ممتازة بتوسيع نفوذه خارج مجموعته وتتألف إذ ذاك اتحادات سياسية غير متماسكة يعمل درء الخطر المشترك على تقوية أواصرها حتى تصبح وكأنها

أمة صغيرة . ومن أمثلة ذلك ما فعله زعيم جماعة بيدى Bede الذى استطاع أن يبلغ مكانته بفضل جهوده فى رد عادية الفولا والبرنو ومن ثم يقال أنه استطاع أن يدعم نفوذه ونفوذ أبنائه من بعده بالقضاء على زعماء المجموعات الصغرى التى تخضع لسيطرته .

ويقال إن مونشى Munshi أقل تلك القبائل اختلاطا وأكثرها نقاء كما يوصفون بالقصر والسمنة .. والنسبة الرأسية بين أفرادها تبلغ ٧٦,٥ فهم من أصحاب الرءوس المستطيلة نوعا ما . أما فيما يتعلق بنظامهم الاجتماعى فيشير ميك Meek إلى أن نظام الاغتراب فى الزواج معروف بوجه عام اللهم إلا إذا استثنينا بعض الجماعات مثل جماعة كاناب Kanab فهى منقسمة إلى عشائر وإنما القاعدة العامة ألا يتزوج شخص من زوجة تنتمى إليه بصلة القرابة والرحم ومن ناحية الحضارة فالنظام الأبوى يسود طريقة الحياة الاجتماعية فى معظم نيجريا الشمالية تقريباً ولا يستثنى من ذلك سوى الأجزاء الجنوبية الشرقية من هذا الأقليم حيث توجد بعض القبائل التى تسير بمقتضى نظام الأمومة كما هو الحال فى قبيلة جورى Guri الصغيرة أما قبيلة جوكون Jukun فإنها كانت تتبع نظام الأمومة حتى السنوات القليلة الماضية .

وهنالك عدد من القبائل من بينها بروم Berom وجوكون Jukun يجعلون الشمس والإله الأكبر شيئاً واحداً . أما الختان المنتشر لدى القبائل الاسلامية فتمارسه بعض القبائل الوثنية أيضاً . وقد نجد فى نطاق القبيلة الواحدة قوما يمارسون الختان وآخرين لا يمارسونه ، ويظهر أن قبيلة مونشى Munchi) قد أخذت تمارس الختان حديثاً . وتعتبر عملية الختان عند القبائل الوثنية كما هو منتظر حلقة من سلسلة المراسيم الخاصة بقبول الفرد عضواً فى المجتمع بتلقينه قوانين القبيلة وطاعة المسنين من رجالها ، ويقترن ذلك بتوقيع العقوبات الجسدية عليه أثناء هذه الفترة بين حين وآخر وتتم المراسيم بأخذ الأحداث إلى الهيكل حيث يشاهدون بعض الرموز الدينية المقدسة وفى قبائل جوكون

Jukun يقاد الفتى الجديد إلى الهيكل معصوب العينين وفجأة يكشف عن ناظريه ثم يسأل عما رأى والإجابة الصحيحة التي ينبغي أن يرددها « لم أر شيئاً على الاطلاق » . ويقال فى هذا الصدد أنه إذا خان الفتى وعيه فذكر أسماء الأشياء المقدسة كان مصيره الموت لا محالة إذ أن شخصاً كهذا ينقصه الاتزان ولا يؤتمن على أسرار القبيلة .

وتمارس عملية الختان عند الذكور والاناث القبائل التى تقطن شمال نيجريا كما هو الحال عنـــد الماندنجو فى السنغال « يوروبا » كما تمارسها قبائل يبنى فى نيجريا الجنوبية .

وتعتبر قبائل جوكون Jukun أجدر الشعوب الوثنية بالاهتمام فى غربى أفريقية وأهم مايلفت النظر فى حالتهم الاجتماعية ما يخلعونه على ملكهم من صفات القداسة اذ ينبغى عليه مثلا ألا يمس الأرض بيديه أو بقدميه عاريتين حتى لا يتطرق الفساد إلى جسده المقدس . وإلى عهد قريب كان التقليد يجرى بذبح الملك عند تمام السنة السابعة من حكمه ، ويحدث ذلك فى عيد الحصاد وقد رفض الملك أن يقيم الاحتفال بالعيد منذ عهد بعيد حتى لا يتعرض لما تعرض له أجداده من مصير محتوم . برغم وجود النفوذ الأوربى . ومع أن الاعتقاد السائد أن بيد الملك وحده القدرة على ضبط المطر ومايستتبعه من خصب ونماء مما يخلع على الملك مقاما يجعل سلطته لاتحد ، إلا أن الإدارة الحقيقية لشئون المملكة موزعة بين أفراد الأسرة المـالـكة الوثنية إلى حد بعيد . . ويبدو أن نظام الحكم البيروقراطى أقوى عند الجوكون منه لدى القبائل الوثنيـــة الأخرى بنيجيريا . وتتقلد امرأتان منصبين خطيرين بوجه خاص إحداهما توصف بأنها أخت الملك المتوفى وتشرف على نســـاء القصر ، بينما توصف الأخرى بأنها الزوجة المحبوبة للملك المتوفى فهى إسماً « أم » الملك الحـــاكم ويستشيرها الملك فى جميع الأمور الهامة ، كما تتمتع بحق أبويه الفارين من وجه العدالة . وفى يد هاتين السيدتين الاشراف الحقيق على تعيين الملك الجديد .

◆ ◆ ◆

والآن وقد عالجنا الزنوج الأصليين في غرب إفريقية فضلا عن قبائل أخرى تعتبر — في ضوء معلوماتنا الراهنة — شديدة القرابة منها : — ننتقل إلى شعوب أخرى ذات بشرة سوداء وشعر مفلفل ليس من الميسور أن نعدها خليطاً من الزنوج والحاميين رغم اختلافها عن زنوج إفريقية الغربية . . ويمثل هذه المجموعة قبائل النوبا وتحتل كردفان الجنوبية التي هي عبارة عن سهل فسيح تتخلله تلال وسلاسل جبلية منعزلة ويكاد يتركز شعب النوبا في الأجزاء المرتفعة في الوقت الحاضر فهم بحق من سكان الجبال ، بيد أنه من المحتمل أن يكون زحف العرب على بلادهم قد أبعدهم عن السهول إلى الجبال .

وللنوبا القاطنين في الجبال الجنوبية أهمية خاصة بسبب لغتهم التي توصف بأنها البانتويه Bantoid أي الشبيهة بلغة البانتو فهي ليست باللغة التي يتحدث بها البانتو ومع ذلك فثمة اتفاق بين اللغتين في بداية بعض الكلمات ، ويجوز أن أن يكون هناك تقارب في مجموعات الأسماء . ولغة النوبا هذه تختلف كلية عن اللغات السودانية والحامية التي يتكلم بها أهل كردفان باستثناء العرب في الشمال .

ويمتاز أهل النوبا الجنوبيون بطول القامة التي يبلغ متوسطها ٦٨ بوصة تقريباً (١٧٠ سم) كما تتراوح النسبة الرأسية لديهم بين ٧٦ ، ٧٧ والرأي القائل بوجود صلة بينهم وبين النوبيين من سكان وادي النيل لا يقوم على أساس ومما يؤكد هذا أنه لا يوجد تشابه في معالم الحضارة بين الشعبين . فأهل النوبا من الرجال مثلا يسيرون عراة الأجسام بينما تتخذ نساؤهم من ورق الشجر سترا بسيطاً ثم إن الرجال أيضاً لا يمارسون عملية الختان ولا تمارس نساؤهم أي نوع من الختان . وإذا حاولنا إيجاد صلة ما بين النوبا وشعوب أخرى فالأوفق أن تكون مع سكان الجنوب الباري والتي تقطن الضفة الغربية للنيل وربما مع سكان الجبال السود في الأطراف الشمالية لنيجريا وساحل الذهب ومن المرجح ألا يكون من محض صدفة قيام نساء النوبا بتشريط أجسادهن والتزين بحلية من حجر الكوارتز في الشفة السفلى إلى جانب الشكل الغريب لمساكنهم مما يمكن

أن يقال معه إنه وثيق الشبه بنظائره لدى سكان تلك البقاع الغربية بأفريقية بل إننا نعلم على وجه التحقيق أن هناك شعباً شبيها بالنوبا يقطن فى جبال دارفور وتنتشر مساكنه عزبا حتى واداى وليس هناك من القرائن ماينفى وجود مثل هذه الصلة حتى مع الجماعات غير العربية التى تسكن غربى دار فور .

ومن المحتمل أيضاً أن تكون بعض الجماعات غير العربية التى تسكن دارفور وواداى، تنتمى إلى مجموعة النوبا مع ما يوجد من اختلاط بالدماء العربية والحامية فى كثير من الحالات ، ويصدق هذا القول خاصة على شعبين قديمين فى دارفور هما دارجو Dargu وتونجر Tungur أما الفور أنفسهم الذين يحمل الأقليم اسمهم فمن المعروف أنهم انحدروا من جبل مرة فى القرن السادس عشر مما يرجح معه أنهم من نفس مجموعة النوبا أيضاً . وبرغم أن شعب الفور اعتنق الاسلام إلا أن هناك طقوساً لاتزال قائمة بينهم تمتاز بتكريم بعض الشجر والصخور .

ولسلطنة دارفور التى ظلت قائمة حتى الحرب العالمية الأولى والتى عصفت بها ثورة السلطان إبان ذلك ، أهمية خاصة من حيث إنها آخر الامارات المختلطة والتى تغلب فيها العنصر الزنجى والتى كانت ممتدة فى وقت ما عبر أفريقية شمالى اقليم الغابات وعلى الرغم من قيام طبقة للحكام فيها من المسلمين فنظام الحكومة أقرب مايكون إلى النظم القائمة فى المجتمعات الزنجية الراقية منها إلى نمط الحكومات العربية كما هو الحال السائد بين جماعة بوشونجو Bushongo

ولكننا لانعنى بهذا أنه كانت هنالك صلة مباشرة بين دارفور والكنغو . وإلى الشرق من كردفان دار الفنج بين النيل الأبيض والنيل الأزرق وفيها قبائل برتا Berta وهمج وغيرها وجلها تنتمى إلى نفس المجموعة التى تنتمى إليها قبائل النوبا بيد أن بعض هذه القبائل قد اختلطت بالدماء العربية اختلاطاً كبيراً كما أنه يرجح وجود صلة بين القبائل التى تبدو فيها الصفات الزنجية واضحة ، وقبائل الشنقلا Shangalla التى تقطن تخوم الحبشة الغربية مثل كونام Kunam وباريا Barea وتقيم قبيلة بوروم Burum الزنجية فى الركن الجنوبى الشرقى من دار الفنج وعلى ضفاف نهر

السوباط ، ويتميز أفرادها بطول القامة والرأس العريض عموما لكنا لا نعرف شيئاً البتة عن نظامها الأجتماعى .

وثمة مجموعة أخرى من الزنوج ينبغى أن نشير إليها وهى قبائل لا تنتمى إلى البانتو Non-Bantu وتقطن فيما بين النيل والكنغو وتمتد غربا شمالى نهر أويل Uelle وتحتل معظم حوض أوبنجو وأويل . وهنا تقيم مجموعة من القبائل لانعرف عنها سوى القليل وتنتظم فيما تنتظم الجماعات التى سماها وسترمان (أعالى النيليين)High Nilotes وتتكلم لغة سودانية وخصائصهم الجسدية تميزهم عن سائر النيليين وعن جيرانهم من الشعوب التى تتكلم لغة البانتو فى الجنوب . وهم من ذوى الرءوس المتوسطة فى الغالب وقد تصل إلى الحد الأدنى للرءوس المستعرضة أحيانا كما أنهم قصار القامة نسبياً وملامحهم فى الغالب زنجية تماما ولون بشرتهم أسود يضرب إلى الحمرة القاتمة. ويمكننا أن ندرك خصائص حضارتهم إدراكا سريعاً فى شىء من الوضوح بمقارنتهم بالنيليين على النحو التالى :

النيليون	مجموعة الرءوس المتوسطة (أعالى النيليين)
رعاة يملكون قطعانا من الماشية لها المقام الأول فى أساس حياتهم الاقتصادى ، ويكاد ما يزرعونه من الحبوب يسد رمقهم ويكفى لعمل الجعة وهم ليسوا من أكلة لحوم البشر ، والضحايا البشرية عندهم نادرة بل فى حكم العدم.	زراع — وفلاحة الأرض حرفتهم الأولى وبجانبها تربية الدواجن لتسد حاجتهم من الغذاء وتكون مصدراً للكسب .
عراة الأجسام وقد تتخذ جلود الحيوان ستراً يتدلى على الكتفين يصففون شعر الرأس إلى أعلا فيبدو	منهم قبائل تأكل لحوم البشر وتسود بينهم تقديم القرابين البشرية ويلبس رجالهم ثياباً خشنة أو لباساً يصنع من لحاء الشجر ويشبه السروال أحياناً . وتتدلى شعورهم فى جدائل

غطاء وزينة للرأس .	على جانبى الرأس وتنتهى كل ضفيرة أحياناً بعقدة ويلبسون أحياناقبعات من القش يزينها ريش الديكة .
— ترتدى النساء ازارا من الجلد يغطى مابين الخصر والركبتين ويتدلى من الأمام والخلف .	— والمعتادأن تستر المرأة عورتها بمجموعة من ورق الشجر الأخضر تتدلى من حبل يشد على وسطها إلى الأمام والخلف وأحياناً ترتدى مئزرا .
— وتلبس أساور عاجية فى أعلى الذراع .	— لايلبسون الأساور العاجية كثيراً .

وإلى أعالى النيليين من أصحاب الرءوس المتوسطة تنتمى قبائل بونجو Bongo وجور Jur — التى لاتتكلم لغة الشلوك — وندوجو Ndogo والآزندى « النيام نيام » ولو أن هؤلاء سيتضح بعد أنهم شعب خليط وليس مجرد قبيلة ، وكذلك ينتظم أعالى النيليين قبائل لندو Lendu وموم فو Momvu وكاليكو Kaliko ومنجبتو Mang Bettu وآبارامبو Abasambo وغيرها .

ولعل الآزندى أقرب هذه المجموعات كلها إلى معرفتنا ويمكننا أن نتخذهم مثلا جيداً لأعالى النيليين ولاشك فى أن الآزندى « الزندى » أعظم قوة وأوفر ذكاء من معظم الشعوب التى سبق الإشارة إليها . كما أنهم يختلفون عن غالبية قبائل السودان والكنغو فى امكان اعتبارهم « أمة » إلى حد ما إذ تتألف من اتحاد ينتظم بمجموعة من القبائل تخضع لرئيس واحد أوسلطان ينتمى إلى طبقة معينة . ، وتنقسم أرض كل قبيلة إلى أقسام لكل منها رئيس وليس مؤكداً مايقال عادة من أن الطبقة الحاكمة المعروفة بإسم أفونجارا Avungara انحدرت

من سلالة شخص يدعى جورا Gura كان حاكما لإحدى العشائر التى شنت سلسلة من الغارات منذ مائتى عام وانضوت تحت لوائها القبائل الأخرى المجاورة . ولقد كان اتحاد قبائل الزندى ، إبان استعادة السودان وتنظيم الكنغو البلجيكية ، تتدفق جموعه شرقا وغرباً فعبر مناطق خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو . وهناك فى السودان المستقل انقسمت هذه الأفواج وسرعان ماطغت على الغالبية العظمى من أصحاب الرءوس المتوسطة القاطنين على ضفاف روافد بحر الغزال التى تتجه شمالا . وليس من الصعب أن نتصور ماكان يحدث لو قدر لهؤلاء الزندى أن يبلغوا منطقة الحشائش المكشوفة التى يسكنها الرعاة من النيلين ولاشك فى أنه لو قد حدثت مثل هذه الإغارة لكانت أعنف المحن التى كان قد يمر فيها النيليون خلال القرن الأخير .

أما الصفات الجنسية للشعوب العديدة التى تتألف منها أمة الزندى فإنها تختلف اختلافا كبيراً بين قبيلة وأخرى كما هو منتظر . فقد رجح بعض الكتاب أن البشرة الضاربة للحمرة والتى يتصف بها كثير من الأزندى ، تنهض دليلا على وجود اختلاط بالدم الحامى ، كما أنه ظهر عند قياس إحدى مجموعات الأزندى فى السودان كبر النسبة الرأسية نسبياً إذ بلغت ٧٩ فى المتوسط وبلغ طول القامة فى المجموعة ذاتها ٦٥ بوصة (١٦٣,٥ سم) ، ودلت الأقيسة فى مجموعة أكبر تقيم فى الكنغو على نقص النسبة الرأسية بمقدار وحدتين (٧٧) كما وصل طول القامة فى بعض المجموعات الصغرى إلى ٦٩ بوصة (١٧٢,٥ سم) .

ولا يعرف عن أفراد هذه القبائل من أصحاب الرءوس المستطيلة أنهم ينزعون القواطع السفلى وإنما يبرد بعضهم القواطع العليا حتى يحدثوا بين القواطع الوسطى ثغرة تشبه رقم ٧ كما هو المتبع بين قبيلة ماكاراكا Makaraka ونظام العشائر معروف عند قبائل الأندى ويوجد منها عدد كبير فى هذا المجتمع . بيد أن العشيرة لا تقوم بوظائف سياسية أو اقتصادية أو دينية ، فهذه من مهام الوحدة الكبرى وهى القبيلة ومع ذلك فالعشائر تسير بمقتضى النظام الطوطمى .

والراسخ فى أذهانهم أن للفرد روحان وعند موته تنتقل إحداهما إلى الحيوان الطوطمى (المعبود) بينما تظل الثانية ترفرف قريبة من القبر ثم تذهب فيما بعد إلى أعالى مجارى المياه حيث تنضم إلى أرواح أسلافها ، والأرواح هى معبوداتهم الأولى ولكل بيت هيكل تقدم إليه القرابين أضف إلى ذلك أنهم يعتقدون فى وجود الكائن الأعظم « ويعرف لديهم باسم مبولى Mbole » يبتهلون إليه فى أزمات الجدب والقحط .

ومنصب القيادة العامة ، والزعامة فى الأقاليم والمقاطعات ، مقصور على طبقة الأفونجارا Avungara ويقوم النظام السياسى على وجود زعيم بارز يحكم قبيلة تتخذ حدودها الجغرافية حدوداً مائية بينما يحكم المقاطعات الصغرى اخته وأبناؤه كما يقوم بعض أفراد الطبقة الدنيا بدور السفراء حين يلزم الأمر .

ويقبل كافة الأزندى تقريباً على عملية الختان ولكن يبدو أنها حديثة العهد بينهم ومن المحقق أيضاً أن هذه العملية يزاولها الأزندى ممن يقيمون فى السودان وها هنا يقضى الأحداث مايقرب من الستة شهور فى معسكر خاص بين الأدغال يلقنهم الكبار خلالها تعاليم القبيلة .

والجمعيات السرية شائعة بين شعوب الأزندى و تنتظم عدداً كبيراً من الأعضاء غالباً فرسم عضويتها بسيط تافه كما أن الانتظام فيها مباح للذكور والإناث على السواء بيد أننا لا نعرف سوى القليل عن هذه التشكيلات ويبدو أنه من بين أغراضها ممارسة أعمال السحر والشعوذة ... ويعتبر الأزندى أكثر القبائل الشرقية ممارسة للقتل والفتك بواسطة السموم النباتية ومن المألوف عندهم أن تقدم السموم للدواجن حتى إذا استقر السم فى جوفها أخذوا يخاطبونها كأنها أناس عاقلة ..!

وفى خاتمة الكلام عن الزنوج ينبغى أن نشير إلى شعب لا يعرف عنه النزر اليسير وينتشر توزيعه هنا وهناك فى البقاع الشمالية والوسطى من جنوب غرب أفريقية ويرد وصفه عادة مع الهتنتوت لاقتباسه كثيراً من معالم حضارتهم ،

ذلكم هو شعب البراج داما Bergdama أو « هوك هوين Haukhoin » كما يسمى أحياناً على سبيل السخرية ومعناه شعب « روث البهائم » ، والأصح أن نسميه نوك هوين Nukhoin أو الشعب الأسود ويظهر أنه جماعة من الزنوج الأصليين « الأنقياء » عاشوا مدى طويلا فى عزلة عن بقية جنسهم ويوصفون بالقوة وضخامة الجسم ، وتوسط القامة ، واسوداد البشرة الشديد واستطالة الرأس ، ونتوء الفك ، وفطس الأنف ، ويتكلمون لغة مجموعة ناماان التى تنتمى إلى الهتنتوت ، وقد أذعن هذا الشعب للناماان زمناً طويلا ، وهم لا يشتغلون بفلاحة الأرض كالبشمن بل يعتمدون على الصيد وما تنبته الأرض من خضر برية . والأسرة هى وحدة نظامهم الاجتماعى وتسير على النظام الأبوى وقد يشد أزرها فى بعض الأحيان أشخاص تربطهم بها صلة قرابة بعيدة وأتباع بلغ بهم الضعف درجة لا تمكنهم من تحمل أعباء الحياة بمفردهم . والشعب الأسود فى ثقافته الروحية قد تأثر بكل من البانتو والهتنتوت على السواء . ولهذا فإنه رغم اعتقادهم بوجود قوة روحية عليا يسمونها جاواب Gauab والمعروفة عند البشمن الشماليين والهتنتوت ، فان من بينهم أنصاراً للنار المقدسة التى تعتبر إحدى المظاهر الهامة فى ديانة قبائل البانتو المجاورة لهم مثل هريرو Herero وأو فامبو Ovambo .

ولكل مجموعة نار مقدسة ، تحرص الحرص كله على دوام انشعالها أبداً ، وتقوم كبرى زوجات الزعيم برعايتها ليلا ونهاراً . وفى كل يوم يخرج أفراد المجموعة بحثاً عن الطعام ، يتولى زعيمهم وكبار السن فيهم السهر على تلك النار المقدسة . وطالما يحرص الجميع على دوام اشعالها وتقديسها فرزق اليوم مكفول للصيادين وجامعى الغذاء .. وتقضى التقاليد بوضع الصيد جميعه بجانب النار فيلتهم كبار السن قسما منه كما تقضى التقاليد بوضع كافة أنواع النبات الناضج والجذور إلى النار قبل التهامها .. وكل ما يصيب القبيلة من ضروب الخير والشر إنما يتوقف على رعاية النار المقدسة من الإفك والدنس الذى ينجم لا محالة عن مخالفة السنن من تقاليد القبيلة » .

ويقدر عدد قبيلة برج داما Bergdamo بجنوب غرب أفريقية بما يقرب من خمس وعشرين ألفاً فى الوقت الحاضر ، وقد كانت غالبيتهم فى الأزمنة السالفة من سكان الجبال التى لم يلجأوا اليها اختياراً وإنما اضطروا أمام غارات الهريرو Herero الذين فتكوا بهم فى غير ما هوادة واتخذوا من شبابهم رقيقاً بينما أعمل فيهم الهتنتوت أسلحتهم النارية فأبادوا جماعات منهم برمتهـا . ويرجح أن أن يكون هؤلاء البرج تيما Bergatima كما يسمون أحيانا ، هم نفس الشـعب المسمى كاتيا Kattea فى جنوب أفريقية والذى يصفه الكتاب أنه لايزال بعد يعيش عيشة أولية للغاية .

ويتميز كثير من البرج داما Bergdama بالقصر والسمنة ومنهم مجموعة تحتل مرتفعات أوتافيا Otavia وهم قصار القامة بدرجة تسترعى النظر . والشائع فيهم الرأس المستطيل والجبهة الغائرة المنحدرة ولو أن عظام الحاجب لدى بعضهم بارزة ومستوية . وهى حسنة من المحاسن الجسمانية أشادت بها أغانيهم القديمة مشبهة إياها بالحاجب البارز للثور الوحشى . والأنف أفطس وفتحتاه غير واضحتين، بيد أن مايلاحظ أحياناً من وجود أنف دقيق إلى جانب شكل الجبهة الذى سبقت الإشارة إليه إنما يدل على اختلاط البرج داما اختلاطا كبيراً بدماء غريبة . وعلى الرغم من انهم يتكلمون لغة الهتنتوت فهنالك من الشواهد مايدل على ان لغتهم تحوى ألفاظا كثيرة مشتقة من لغات سودانية مختلفة . ويؤخذ هذا دليلا على أن شعب البرج داما انما يمثل مجموعة قديمة من الزنوج . ومع مايقال من أنه قد جاء إلى جنوب غربى افريقية فى أثر الهتنتوت أو ان جزءاً منهم كان من أسرى الهتنتوت ، فإنه من المرجح أنهم قدموا إلى مواطنهم الحالية قبل مجىء الهتنتوت . وفى الوقت الحاضر يعيش بعض هذا الشعب فى القرى والكفور ويشتغلون برعاية قطعان الماعز بينما تعش مجموعات أخرى كما يعيش البشمن إذ يعتمدون على مغانم الصيد وجمع ثمار الأحراج . وتعيش جماعاتهم المستقرة فى كفور حقيرة لاتتجاوز مساكن الجماعة الواحدة عشرة منثورة هنا وهناك وهى أشبه بشىء بالأكواخ ذات السقف المنحدر وسط المروج الأوربية.

بيد أن تخطيط القرية أو الكفر يسير وفق خطة مرسومة فنى الجهة الشرقية يقع بيت الزوجة الكبرى ويقصد بها الزوجة الأولى لأكبر شيوخ القرية ، وتتجه الأكواخ جميعها نحو شجرة مفروشة وسط القرية . وعلى مسافة يسيرة من تلك الشجرة أمام بيت الزوجة الكبرى تقام النار المقدسة التى يجتمع حولها كبار القوم لطهى أنصبتهم من الصيد الكبير الذى يستأثرون به دون غيرهم . وحول هذه النار يتخذ هؤلاء مجلسهم فلا يقترب منه أحد من الأحداث إلا كل من استطاع منهم الصيد ثلاث مرات على مدار السنة صيداً يثبت مهارته . وإذا ماصادف الصيادين سوء الطالع أو ظفروا بالقليل من حيوان الادغال يذهب الظن بهم إلى أن شخصاً ما أحدث بالنار المقدسة دنساً . ورغم ما لهذه النار من أهمية فى حياة البرج داما Bergdama فليس من المعروف على وجه التحقيق إذا كانت هذه العبادة أصيلة النشأة عندهم أم أنها منقولة إليهم من قبائل الهريرو Herero الغزاة .

الفصل الخامس

الحاميون :

١ — الحاميون الشرقيون

إذا تركنا جانباً أثر الساميين — الحديث نسبياً — سواء كان هذا الأثر فينقياً (قرطا جنيا) فى نطاقه المحدود ، أو عربياً إسلامياً فى مجاله الواسع ، وجدنا أن حضارات إفريقية هى حضارات الحاميين ، ولرأينا تاريخ القارة إن هو إلا سجل لهذه الشعوب الحامية ، واحتكاكها بعنصرى القارة البدائيين من الزنوج والبشمن ، ويستوى فى ذلك أن يكون الأثر الحامى قد تركته العناصر المتقدمة فى حضارتها كالمصريين ، أو الجماعات المتأخرة من الرعاة والذين يمثلهم فى الوقت الحاضر قبائل البجاه والصومال .

ويكفى لكى ندلل على أهمية الحاميين والدور الخطير الذى لعبوه على مسرح إفريقية ، أن نلقى نظرة على الخريطة شكل (١) التى توضح توزيع اللغات فى القارة فى الوقت الحاضر . فمن الخريطة يتبين أنه يتحدث باللغات الحامية شعوب تحتل مايقرب من خمس القارة الإفريقية ، وقد استطاع برنارد سترك Bernhard Sruck أن يصف تلك اللغات فى ٤٧ لغة أصلية ، و ٧١ لهجة بعد استثنائه لغة الهوتنتوت وإن تكن تحوى عنصراً حامياً .

وأما المساحة الجغرافية التى تقطنها الشعوب التى تعتبر شعوبا حامية فهى أكبر وأشمل إذ تضم فى نطاقها كثيراً من القبائل التى تركت فيها السامية أثراً سطحياً .

بفضل نفوذ الإسلام : فمن المرجح جداً أن اللغات الحامية كانت لسان القسم الأكبر من نصف القارة الشمالى قبل أن تغلغل التأثير العربى إليها .

والحاميون إحدى سلالات الجنس القوقازى ، ذلك الفرع الكبير من أجناس النوع البشرى والذى ينتمى إليه معظم الأوروبيين .. وينتظم الحاميون بوجه عام فرعين كبيرين هما الشرقيون والشماليون .

(١) ويشمل الحاميون الشرقيون المصريين القدامى منهم والمحدثين — مع ملاحظة الامتزاج بالدم الأجنبى فى الطبقات العليا فى حالة المصريين المعاصرين — إلى جانب البجاه والنوبيين أو البرابرة ، والجلا والصومال والدناقل ومعظم الأحباش رغم اختلاطهم بالساميين والزنوج .

(٢) وينتظم الحاميون الشماليون البربر من أهل طرابلس وتونس والجزائر وقد جرى العرف على تسمية هؤلاء جميعاً بالليبيين ، وكذلك بربر مراكش والطوارق والتبو من أهل الصحراء ، والفولا فى نيجريا ، وجماعات الجوانش Guanche المنقرضة التى كانت تسكن جزر قنارى .

ويشير الأستاذ سرجى — عالم الأجناس الايطالى — إلى أنه من الطبيعى أن تكون ثمة اختلافات ذات شأن بين أفراد مثل هذه المجموعات الواسعة الانتشار .. وبالرغم من هذا التنوع بين جماعات الحاميين الشرقيين فانه يبدو أن أشكال الجماجم بينها يغلب عليها صفة التقارب بوجه عام وتلك الاختلافات التى يشير إليها سرجى إنما ترجع إلى أصل كل جماعة ونشأتها .

ومثل هذا التقارب فى الرأس يمكن أن ينطبق إلى حد كبير على تقاطيع الوجه الذى يختلف عن وجه الزنجى الخليط ، فبروز الفك لا وجود له إطلاقا ، والأنف معتدل وقد يكون أقنى — حيثما كان هناك أثر لدماء العنصر الأرمنى .

والشفاة يغلب أن تكون غليظة ولـ [illegible]كنها أبعد عن أن تكون مقلوبة فهى ليست كشفاة الزنوج ، والشعر مفلفل غال[illegible]اً بيد أنه يبدو مموجاً أو مستقيماً فى بعض الأحيان ، وعظام الذقن دقيقة ، أما لون[illegible] البشرة فإنه متنوع فأحياناً يضرب إلى الصفرة ، وقد يكون نحاسياً أو بنى اللون [illegible] مشرباً بحمرة ويتدرج من البنى الفاتح إلى الأسود ، كل ذلك بحسب ما يكون [illegible]قد حدث من تزاوج بينهم وبين الزنوج ويرى سرجى أن قسمى الحاميين يتفقان مع[illegible] فى الناحية التشريحية والتركيب العظمى — وهما تبعاً لذلك — يكونان مجموعة جن[illegible]سية واحدة تختلف فيما بينها فى شكل الرأس على مدى واسع ، بيد أن هذه الاختلا[illegible]فات التى استبانها سرجى فى النسب الرأسية تتسم بصفة الثبات وتتوفر فى كل من المجم[illegible]وعتين الرئيسيتين شأنهما فى ذلك شأن تقاطيع الوجه .

وإذا نحن عرضنا لخصائص الحاميين الشماليين فى العص[illegible] الحديث فإن بعض هذه الأوصاف الجنسية تصبح فى حاجة إلى تعديل ففى هذه ا[illegible]لجماعات آثار واضحة لدماء أجنبية لا يصعب تتبعها .

أما عن الوطن الأول لجماعات الحاميين فمن المتفق عليه عمو[illegible]ماً أنه يقع فى آسيا ، ومن الجائز أن يكون جنوب الجزيرة العربية أو أبعد إلى ال[illegible]شرق من تلك المنطقة ، بيد أن سرجى يفترض أنه القرن الأفريقى . . . ومهما ي[illegible]كن من أمر الوضع الجغرافى لهذا الوطن ، فليس ثمة شك فى أن الحاميين والسامي[illegible]ين معاً من أصل سلالى واحد أصابه التحوير والتعديل ، وليس شك كذلك[illegible] فى أن هذا التباين والتمايز بين السامى والحامى لم يحدث منذ عهد بعيد جداً

ولعل الدليل على ذلك يكمن فى وجود سمات ثقافية مشتركة وتشابه بينهما ، كما أن الصلة فى الناحية الجثمانية جلية صريحة ، وكذلك الحال فى علاقتهما ببعض الأوربيين من شعوب البحر المتوسط ، وإن يكن بعض علماء الأجناس يسلم بوجود هذه الصلة بالحاميين الشماليين فقط ، ويميزون هؤلاء عن الحاميين الشرقيين فيطلقون عليهم اصطلاح « الليبيين »

والآن ونحن بصدد معالجة الجماعات الحامية نرى انه من الاوفق ان نبدأ بمجموعة الحاميين الشرقيين ، لأنه بصرف النظر عن بقـــايا الهياكل العظيمة القليلة التى ترجع الى العصر الحجرى القديم — وليس لنا شأن به فى هذا المؤلف — فان أقدم العناصر الافريقية التى لدينا عنها معلومات منظمة تنتهى إلى هذه المجموعة بالذات . . وهؤلاء الافريقيون القدامى هم المصريون الذين عاشوا فى عصر ما قبل الاسرات اى ماقبل ٣٢٠٠ . ق م . تقريبا والذين يعرفون بالمصريين الأوائل . . . والمراجع الفرنسية تشير عادة إلى المصريين الأوائل على أنهم أهل العصر الحجرى الحديث ، وهـذا أمر بعيد عن الصحة ، ذلك أن مقادير معينة من معدن النحاس قد وجدت فى اقدم المدافن لهؤلاء المصريين الأول . . ومادمنا نتحدث عن مصر ، فإن اصطلاح العصر الحجرى الحديث ينبغى أن نقصره فقط على جماعات هــــذا العصر ، والتى كشفت الآنسة كاتون طومبسون Caton Thompson عن مواطنهم — وليس عن مدافنهم .

والحق أن الآثار الدقيقة الصنع التى خلفها لنا المصريون الأوائل فى مقابرهم والحالة الممتازة التى وجدت عليها محتوياتها ، تجعل من الأوفق أن نبدأ — ونحن بصدد وصف الحامى الأفريقى — بإشارة إلى المصريين الأوائل فى عصر ما قبل الأسرات ، ومن ثم ننتقل إلى الجماعات التى تمثل هذا العنصر القديم فى الوقت الحاضر . ولم يدرس عالم من العـــلماء خصائصهم الجثمانية بعناية مثـل ما فعل الأستاذ « إليوت سمث Elliot Smith» والوصف الآتى مأخوذ من كتاباته عنهم :

يقول سمث . إن أقدم عناصر السكان المعروفة التى قطنت صعيد مصر ، قوم كانوا أقل فى حجمهم — نوعا ما — منه فى الحجم المألوف للجنس البشرى بوجه عام . وكان نمو عضلاتهم من الضعف بحيث أصبح من المشاكل العسيرة الحل التى قد يواجههـا الباحث ، أن يتبين إلى أى من الجنسين تنتمى جمجمة أحدهم ، أو بقاياه العظمية . . إن خصائصهم الجثمانية تؤكد أنها كانت على درجة كبيرة من التجانس . . كان شعرهم بنى غامق أو أسود اللون ويغلب أن يكون

مسترسلا وقد يكون مموجا ولكن الأمر الذى لاشبهة فيه هو خلو هذا الشعر تماما من أى صفة زنجية . وكان الرجل منهم يتميز بشعر طفيف ينمو على الوجه فيما عدا الذقن حيث نجد خصلة من الشعر تذكرنا بتلك التى نشاهدها فى الصور التقليدية التى ترجع إلى عصر أسرات الدولة الحديثة فى مصر . . ولقد كانت رءوس هؤلاء القوم طويلة ضيقة ذات جباه ضيقة ، وقذال بارز لدرجة الشذوذ حتى أن الجمجمة إذا نظر إليها من أعلى تبدو فى شكل خاص كأنه تابوت الميت إذا صح لنا أن نستعمل هذا الاصطلاح الدقيق . وأما الوجه فكان يتميز بأنه معتدل بيضاوى ضيق ، وكان الأنف عريضاً وليس دقيقاً كأنف الأوربى ، ولكن المؤكد أنه لم يكن أفطس كأنف الزنوج . ، ووضع العينين كان فى مستوى أفقى وتجويف العين لوزى الشكل وليس فيها جحوظ بالمرة ، وكان فى الغالب على الذقن أن تكون مدببة دائماً .

فالمصريون الأوائل ممن عاشوا فى عصر ما قبل الأسرات ، كانوا ينتمون إذن إلى مجموعة الشعوب التى كانت تتميز بالقامة القصيرة والشعر الأسود والعيون السوداء كهؤلاء الذين نجدهم اليوم على شواطىء البحر المتوسط سواء من سكن منهم الشواطىء الشمالية أو الشواطىء الجنوبية . . ولقد انتشر نفس هذا العنصر جنوباً فيما وراء صعيد مصر إلى بلاد النوبة حيث تأثر بالدماء الزنجية ولكنه رغما عن هذا التأثر فإنه — لايزال — يكون الأساس الجنسى للسكان هناك كما انتشر شرقا حتى البحر الأحمر ، فكما أن المصرى القديم يشبه عنصر البحر المتوسط من الأوربيين والبربر ، فانه يحمل تشابها كبيراً يصل فى بعض النواحى إلى درجة التطابق الكامل — للقبائل الضاربة فى الصحراء أو مناطق العشب بين وادى النيل والبحر الأحمر .

وإذا نحن أردنا أن نصف المصرى القديم وصفاً أكثر دقة يمكن أن نقول إن المصرى الذى عاش فى عصر ما قبل الأسرات كان قصير القامة فلم تكن تتجاوز قامته ٦٤ بوصة كما أنه كان طويل الرأس إذ كانت النسبة الرأسية تبلغ حوالى ٧٣ كما تدل على ذلك الجماجم التى عثر عليها فى بلدة نقادة ، وكانت هذه

النسبة تصل إلى حوالى ٧٥ للأحياء منهم أما النسبة الأنفية فكانت حوالى ٥٠ ، وكانت تنطبق عليهم سائر الأوصاف التى هى اليوم خصائص مجموعة شعب « البجاه » كما سنرى الآن . . والبجاه يقطنون اليوم صحراء مصر الشرقية ومديرية البحر الأحمر فى السودان وينتشرون جنوبا فيحتلون اريتريا ويمتدون بتوزيعهم حتى حدود أثيوبيا — وسوف نعود إلى هذا الموضوع فيما بعد — أما الآن فنصف بعض عادات الدفن عند المصريين فى مصر قبل الأسرات .

كان المعتاد أن يوضع الجسم على الجانب الأيسر مع ثنى الذراعين والساقين فى حفرة بيضاوية أو مستطيلة الشكل على عمق قليل يتراوح بين قدمين وأربعة أقدام من سطح الأرض .. ولم يكن محور المدافن يتخذ اتجاها ثابتاً . ولكنها كانت على وجه عام توازى اتجاه مجرى النيل أينما كان هذا الاتجاه وكان رأس الميت يوجه عادة نحو الجنوب .. كما كان القبر يبطن بالحصير غالباً ، أما الجسد فكان يلف فى جلد الماعز أحياناً أو أنسجة الكتان ، وحوله توضع الأشياء الثمينة التى اعتقد القوم أن الروح قد تحتاج إليها فى العالم الآخر .. وكانت تلك الأشياء تشمل الأوانى المصنوعة من الفخار أو الحجر الشديد الصلابة الذى برع القوم فى نحته بدرجة نادرة لم يصل إليها شعب فى أى مكان أو زمان فى تاريخ العالم . ومن تلك الأشياء أيضاً ألواح إردوازية وعقود وتماثيل صغيرة وسكاكين وأدوات أخرى ، وأحياناً كان يوضع مع الميت عصا الصيد وأشياء مصنوعة أو مغطاة بالذهب كما عثر على النحاس فى صورة غير منظمة على المقابر القديمة ثم تواتر وجوده بانتظام فى العهد المتأخر من عصر ما قبل الأسرات .

وتتوزع قبائل البجاه على أربع مجموعات من الشمال إلى الجنوب كما يلى :

(١) العبابدة : فى الصحراء الشرقية بالاقليم المصرى .

(٢) البشارية : وتسكن قبائلهم الصحراء الشرقية فى الاقليم المصرى بيد أنهم ينتشرون إلى مسافة ٨٠ ميلا جنوبى حدود السودان ويشغلون شقة من الأرض فى حوض نهر العطبرة .

(٣) الهـدندو : وتنتظم عددا من القبائل المتجانسة أشهرها وأقواها نفوذاً قبيلة الهدندوا ،كما تشمل الأمأرار ، والنوراب،والأشراف، والأرتيجا وتمتد جنوبا حتى طوكر وخور بمكة .

(٤) بنو عامر : ويحتلون الأراضى الواقعة جنوبى خوربركة وينتشر توزيعهم حتى أرتيريا والحبشة ذاتهـا حيث نجـــد السلالة نفسها وان اتخذت أسماء أخرى .

ولقد كان العبابدة فيما مضى يتكلمون التوبدوية To Bedawi لغة البشارية والهدندوا وهى لغة حامية غير أنهم فقدوا لسانهم القديم ويتكلمون الآن العربية بينمايتخاطب بنو عامر بلغة تيجره Tigri السامية وبرغم الاختلافات فى اللغة بين قبائل بنى عامر والهدندوة فان عاداتهم تتشابه معاً وإن يكون الهدندوا — أوكما يسميهم الجندى البريطانى فزى وزى Fuzzy Wuzzy — أكثر قسوة وأدنى الى الهمجية بوجه عام . وأما بنوعامر فلم يشتركوا فى القتال الذى نشب حول التيب أثناء الحركة المهدية ، ولعل ما أصاب عاداتهم وأسلوب معيشتهم من تهذيب كان نتيجة لتلك الثقافة السامية التى آخذوا عنها لسانهم السامى . وإلى الشمال نجد العبابدة قد تمصروا إلى حد كبير بيد أن التلال الواقعة بين النيل والبحر الأحمر لايزال يقطنها عدد وفير منهم وقد أخذوا بتقاليدهم القديمة وساروا علىأسلوب حياتهم القديم .

والجدول الآتى يوضح بعض الخصائص الجسمانية الهامة لتلك القبائل التى يكاد يربطها رباط واحد . ويجب ألايغرب عن بالنا أن ثمة تقارباً كبيراً بين بنى عامر والعبابدة من ناحية والمصريين الأوائل من ناحية أخرى.أما الهدندوة والبشارية وإن كانت قبائلهم تنتمى إلى هذه المجموعة — كما يرجح ذلك فى ضوء اعتبارات أخرى — فقد تسرب إليهم دم أجنبى كانت نتيجته ظهور اختلاف

فى النسبة الرأسية وطول القامة فضلا عن بعض الاختلافات التى نجدها فى شكل الأنف بين الهدندوا مثلا .

القبائل	النسبة الرأسية	طول القامة
العبابدة	٧٣,٧	٦٤ بوصة
بشارية النهرين	٧٨,٤	٦٦ «
بشارية التلال	٧٤,٧	٦٦ ١/٢ «
الهدندوا	٧٦,٣	٦٥ ٣/٤ «
قدماء المصريين الأول	٧٤,٧	٦٤ ١/٢ «
(مقابر نقادة)	٧٤,٩	٦٤ «

وحتى يمكن مقارنة النسبة الرأسية لطلائع المصريين بالنسبة الرأسية لبنى عامر من الأحياء أضفنا وحدتين فى مقاييس النسبة الأولى ، ويمكننا فى شئ الأطمئنان أن نعتبر قبائل بنى عامر ، أنقى قبائل البجاه تقريباً ، ممثلة فى الوقت الحاضر لذلك العنصر المصرى القديم فى عصر ماقبل الأسرات . وهذه حقيقة فريدة فى بابها من حيث بقاء نوع السلالة فترة من الزمن لا تقل عن ستة آلاف سنة

وليس ارتفاع النسبة الرأسية للهدندوا — نظراً لعرض الرأس — هو وجه الخلاف الوحيد بينهم وبين قبائل بنى عامر ، فكثيراً ما يتعدى الاختلاف النسبة الرأسية إلى تقاطيع الوجه فالأنف اليهودى أو الأنف الأرمنى على الأصح شائع فى الهدندوا بينما لا تكاد تعثر عليه عند قبائل بنى عامر . ويمكننا أن نرجع هذه الصفة إلى موجة من الدم الأرمنى جاءت عبر البحر الأحمر وتسربت إلى الهدندوا .

ولقد سبق أن وضحنا كيف كانت طلائع المصريين تدفن موتاها وقد أحاطت الجثة بكل مطالب الحياة وأسباب الرفاهية . والحق أن هذه العادة التى جروا عليها مكنت الباحثين من معرفة الشىء الكثير عن حضارة أولئك السكان الذين عاشوا فى وادى النيل من قديم الزمن. فقد عرف أنهم قوم زراعيون يستنبتون القمح كما كانوا يربون الماعز أيضا . ويرجح أنهم أخذوا فى استئناس الحمير فى نهاية تلك الفترة وقد كانوا مولعين الولع كله بالقنص وصيد الأسماك. ويستدل على ذلك من رءوس الخطاطيف النحاسية التى وجدت ، وهى من نوع الأسلحة الحديدية الشائعة الاستعمال بالصعيد فى الوقت الحاضر . على أنهم كانوا يألفون صيد أفراس النهر . . وبجانب كل هذا وذاك كانوا فى صناعة الفخار لايجاريهم شعب آخر .. وقد بلغ القوم فى الفترة الثانية من عصر ماقبل الأسرات شأواً بعيداً فى تشكيل الحجر الصلد أوان بديعة الشكل، دقيقة الصنع ، ولو أننا عقدنا مقارنة بين حضارة هؤلاء الأقدمين وحضارة من يمثلهم فى العصر الحديث من البجاه لما وجدنا إلى المقارنة سبيلا.. فالبجاه بحكم طبيعة البيئة التى يعيشون فيها، قوم رعاة رحل أوشبه رحل. والجمل يكاد يكون الحيوان الوحيد الذى استخدمه البجاه منذ ألفى عام — وقد كفل لهم سلطانا على حياة الصحراء أوفر مما كان فى وسع أجدادهم الأسبقين، وهم لهذا السبب يضربون فى بقاع من الصحراء لم يطرقها أى إنسان من قبل . . وهذا بالطبع محتمل الوقوع إذا نحن سلمنا بأن الظروف المناخية فى المناطق كانت كما هى عليه الآن فى الصحراء . فليس غريبا إذا ألا يباشر البجاه نفس فنون المصريين الأول وحرفهم فى وادى النيل . وعلى الرغم من هذا الاعتبار فإن هناك نقطة تشابه طريفة بينهما فالبشاربة لايزالون يصنعون القدور الحجرية وإن كانوا فى الواقع يستخدمون فى صناعتهم هذه أكثر الأحجار نعومة فهم يؤثرن نوعا من الحجر اللين الناعم لدرجة يمكن معها أن تعمل فيه بسكين ،

وينفرد البجاه بنظم اجتماعية ذات طابع خاص ، فهم وإن كانوا الآن فيما يحتمل ينتظمون أكثر مسلمى شرقى أفريقية تطرفا إلا أن غالبيتهم إن لم يكن

جميعهم ، كانوا وثنيين إلى عهد قريب لعله لايتعدى عصر المؤرخ المقريزى (١٣٦٦ – ١٤٤٢) الذى وصفهم فى كتاباته بأنهم قوم رحل يعيشون فى خيام من الجلود يحملونها معهم أينما وجدوا المرعى، وهم يذكرون أنسابهم من ناحية الأم . ولكل قبيلة رئيس بيد أنهم لايعترفون له بالسيادة المطلقة ، وليس للقوم ديانة معلومة وممتلكاتهم تنتقل بالوراثة إلى أبناء الأخت أو إلى البنت ، بينما يحرم منها أبناء الميت من الذكور . وهم يبررون عادتهم هذه بأنه لايمكن أن يتطرق الشك إلى أبوية ابن الأخت وابنتها.. وهذان يجب أن ينسبا إلى الأسرة سواء اكانت الأم أنجبتهما من زوجها أو من رجل آخر .. وكان للقوم فيما مضى زعيم مطلق السيادة يأتمر بقية الزعماء بأمره .

ويضيف المقريزى فيقول إنه كان للبجاه هجانة وإبل فضلا عن الأغنام والماشية الوفيرة العدد التى تمدهم باللحوم والألبان ، وفى فقرة أخرى يتحدث عنهم كقوم لادين لهم إطلاقا ولا ذكاء لهم البتة ، يسير الرجال منهم والنساء عراة لايسترون أجسادهم إلا بما يكاد يستر عوراتهم بل ويستغنى الغالبية منهم عن هذا الجزء اليسير من الغطاء .

وهذا وصف دقيق صادق لشعب وثنى ، وقوم رحل من الرعاة تجرى أنسابه إلى الأم . ويكاد فى عيشة لايعتمد على غير ألبان دوابه ولحومها .. وتلك الصورة التى رسمها المقريزى للبجاه اذا نحن استبعدنا النسب للأم — حيث لم يعد هذا التقليد له وجود بعد ظهور الإسلام — وأضفنا اليها الثياب العربية هى عين الصورة التى يراها أى مسافر الآن فى البقاع النائية من الصحراء الشرقية فضلا عن أن المعرفة السطحية بهؤلاء القوم تكفى لأن تؤكد لك أنهم لايزالون يحتفظون بآثار محققة من تقاليد الانتساب إلى الأمومة . والواقع أن نظمهم الاجتماعية فى الوقت الحاضر مثال فريد فى بابه طبقاً للعادات والتقاليد القديمة التى لاتتعارض مع نصوص القرآن . فعلى الرغم مما ينص عليه القرآن من أن تكون الأنساب من ناحية الأب ، فانك تجد الرجل من قبائل الهدندوة يسعى

الى قرية عروسه لعقد الزواج ، وهنالك يقيم مدة تتراوح بين عام وثلاثة أعوام كما تقوم أسرة العروس وأقاربها بنفقات خيمة الزواج كلها تقريباً وبخاصة سرير الزواج ، بل وعلى العريس أيضاً أن يخدم حماه فيساعده فى أمور الحياة كما لوكان ابنه الذى أنجبه وتحتم بعض الجماعات فى عنف وصرامة أن يكون ميلاد الإبن البكر بين أهل أمه .

والبجاه كما سبق أن أكدنا قوم رعاة بوجه خاص ، يولون ماشيتهم نوعا من الحب والتقدير كما يكنون اعتباراً خاصاً للألبان . وتلك إحدى مميزاتهم الطريفة التى يمكن تحليلها ، إن مرجعها إلى حضارة سامية حامية قديمة استمرت حتى يومنا هذا . ومن مظاهر تقديسهم للألبان عدم حلبها فى آنية من الطين أوحفظها فى تلك الآنية ، رغم أن كثيراً من البجاه يصنعون قدوراً بديعه وكذلك يحرم حلب الألبان فى الأوانى المصنوعة من الصفيح التى تصل إلى أيديهم عن طريق الاتجار مع الأوروبين . وإنما يحفظ اللبن فى آنية القرع أو أوعية من السلال تصنع بمهارة فائقة بحيث تسمح بحفظ اللبن دون أن يقطر منها أويسيل والعادة ألا يشرب رجل من اللبن الذى يحلبه بنفسه قبل أن يرشف منه رجل آخر بضع جرعات ، بل إن مما يشين الرجل أن تقول عنه انه حلب وشرب للتو وثمة عادات وتقاليد أخرى لا تخلو من غرابة ، خاصة باللبن وطهيه . فأهل البجاه مثلا يكرهون بنوع خاص أولئك الأعراب الذين يسمحون لنسائهم بحلب الماشية أو الأغنام .

وفى ضوء تلك الحقائق نخلص إلى القول بأن اللبن ليس مشاعا بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة وانما يمكن أن ندعوه مقدساً أو طهوراً وتجرى فى عروق البجاه نسبة كبيرة من الدماء الحامية ، شأنهم فى ذلك شأن قبائل الماساى والناندى فى شرق افريقية .

وإذا نحن عدنا إلى وادى النيل فى مصر رأيناشواهد الحال تدل على وجود تغيرات أو تكييفات تدريجية فى عناصر السكان منذ بدأ عهد الأسرات ففى عصر بناء الأهرام نلحظ نوعا من هذا التغير التدريجى عما كان عليه الحال أول

الأمر فالبنية أقوى والجمجمة والوجه أكثر عرضا ، والفك أكثر صلابة ، واستدارة الجمجمة تتخذ قالبها تبعا للزيادة فى العرض لا تبعا للزيادة العامة فى النسبة الرأسية . وهؤلاء هم القوم الذين يظهرون على المسرح المصرى فى تلك الأعمال الفنية العظيمة لعصر بناة الأهرام ، ومن نماذجهم « كتبة الجيزة وكتبة متحف اللوفر » وشيخ البلد كما أنهم دون شك يمثلون الجانب الأكبر من سكان المملكة القديمة كما يمثلون أهل الفن ممن خلفوا أروع التماثيل ، والرسوم على على الجدران والنقوش البارزة التى برع فيها المصريون . ولقد كان عملهم الفنى هذا حافزا لأن يقلدهم فيه اخوانهم فى عصر الاسرة السادسة والعشرين باعتبار أنه يمثل أرقى تطور فى الفن المصرى الصميم .

هذا فيما يختص بعناصر السكان من أهل الوادى ، أما عن أهل الدلتا فليس لنا علم بما كان يحدث على مسرح بيئتهم فى عصر الاسرات وما قبل الاسرات فخلفاتهم ـــ حيثما وجدت ـــ مطمورة تحت كتل هائلة من الرواسب الغرينية .

أما عن عناصر السكان الآن ، فان ذلك النوع من السكان الذى أتينا على وصفه فى عصر ما قبل الاسرات وذكرنا لك مقاييسه ، قد استمر فى عصر الاسرات بل يرجح أن زادت جموعه ، ويمثله فى الوقت الحاضر طبقة الفلاحين ؛ والمصرى الحديث سواء أكان من سكان الوادى أو الدلتا ، تبلغ طول قامته ٦٦ بوصة مستطيل الرأس ، ونسبته الرأسية حول ٧٥ ، وان كانت هذه النسبة تزيد فى الدلتا بما يقرب من وحدة عنها فى الوادى ، كما أننا كلما أوغلنا فى الجنوب وجدنا ميلا طفيفا الى الصفات الزنجية فيضير لون العين والبشرة أشد سوادا ، وتزيد نسبة الانوف الادنى الى الفطس ، كما يكثر وجود الشعر اللولبى الخشن .

وغالباً ما يؤكد الأجانب أن فى مقدرتهم تصنيف السكان إلى أقباط ومسلمين بمجرد النظر إليهم . بيد أن الأقيسة لا تظهر أى اختلاف أساسى ، فالفارق ـــ إن وجد ـــ فارق ثقافى فى أساسه ، يرجع إلى اختلاف فى العادات والصفات

الخلقية لاختلاف فى أساليب الحياة العادية . فالأقباط والمسيحيون فى مصر عامة ، وسكان المدن المبرزون هم فى الغالبية كتبة وأصحاب متاجر فى حين السواد الأعظم من أهل الريف مزارعون . فلعل الاختلاف فى طبيعة العمل وما يرتبط به من عادات تسود فى الغالب المشتغل به قد أدى إلى الاختلاف الملحوظ بين الفريقين . حقيقة إن هنـــالك مفارقات طفيفة فى شكل الوجه حيث يتميز الأقباط بعيون وبشرة فاتحة نسبياً ، كما يتميزون بأنف أدق قليلا ، ولـكن رغم هذه الاختلافات الطفيفة فمسأله تشخيص القبطى والمسلم بمجرد النظر مسألة موضع شك ولا يكاد يعدو أساس التشخيص بمجرد النظر ، شكل الزى وبعض مميزات فى المظهر العام .

ولعله ليس من الضرورى أن تؤكد الأهمية البيولوجية العامة ، لبقاء النوعين خلال آلاف السنين ألا وهما رجل الصحراء النحيف الصئيل الجسم المثال الحى للمصرى الأول ، ومزارع وادى النيل الممتلىء بالجسم الذى يمثل أجـداده من المملكة القديمة والامبراطورية الوسطى فهاتان حقيقتان تجعلنا لانجد غضاضة فى أن نوجه الأنظار إلى وجود بعض المعتقدات الشعبية والعادات بين سكان مصر فى الوقت الحاضر، ترجع أصولها إلى العهد القديم . فهنالك ورقة من البردى يرجع تاريخها إلى عصر رمسيس الثانى أو ربما خلفه ، لا تقتصر على ذكر الأيام السعيدة ، والأيام التى يلازمها سوء الطالع (الأيام المشئومة ؟) بل تتضمن وصايا وتعليمات يمكن معها اتقاء الشر أو سوء الحظ فى تلك الأيام . والأيام الخمسة « النسى » فى التقويم المصرى القديم كانت تعتبر أيام نحس وشر وفيها توحى التعليمات « لا تشتغل فى أى من هذه الأشياء » :

« القمح والتوتيا والـكتان والثياب . ولا تدبر أى أمر إطلاقا خلالها »

هذا فى مصر القديمة ويقابل هذا فى مصر الحديثة أن الطفل الذى يولد خلال الأيام الخمسة هذه يولد مشوها ويصدق هـــذا على الحيوان أيضاً لذلك لا تغطى الماشية والخيول خلالها . وثمة عقيدة أخرى أقل رسوخا فى الأذهان

من سابقتها مؤداها الامتناع عن الحياكة والزراعة فى تلك الأيام . وهنالك مثال آخر أكثر غرابة يتمثل فى وصف أحد الأيام الأخيرة من شهر كياك إذ تذكر ورقة البردى السادس والعشرين من هذا الشهر على أنه يوم نحس شديد ويوصى كاتب الورقة قائلا :

« لا تأكل السمك ، فأولئك الذين يعيشون فى أواسط تاتو يحولون أنفسهم إلى السمكة آن » ، والجملة الأخيرة تنطوى على فكرة ميثولوجية لا نقوى على تفسيرها . بيد أننا نجد حاشية فى التقويم الحديث أمام الحادى عشر من شهر محرم ويقابل السادس والعشرين من شهر كياك تقول « أكل الحمام مرغوب فيه . أما أكل السمك فمرغوب عنه . »

ولسنا نقصد بعرض هذه الفقرات أنها أقدم من بعض المعتقدات الشعبية الذائعة بين بعض الشعوب الأوروبية ، وإنما ترجع أهميتها إلى أن تاريخ تدوينها لأول مرة ليس معروفا لدينا ومع ذلك فإنها تبين لنا فى وضوح كيف يمكن الإبقاء على يوم حسن الطالع وآخر سيء الطالع رغم تغير التقاويم ، فينتقل الاعتقاد إلى التقويم الجديد ويبقى عليه أصحاب دين لا يتردد قادته فى رمى معتقد كهذا بأنه خرافة والحاد .

وإذا نحن اتجهنا إلى الواحات غربى وادى النيل ، وجدنا أن سكان الواحة الخارجية من المصريين لا يختلفون فى قليل أو كثير عن سكان وادى النيل نفسه ، وليس الحال فيما يتعلق بسكان الواحات النائية كسيوة والداخلة وغيرها حيث نجد لغة التخاطب تندرج تحت لهجات البربر رغم استعارتها بعض ألفاظ أخرى .

وإلى الجنوب من مصر تقع النوبة تختطها الحدود السياسية عند وادى حلفا التى تفصل بين السودان جنوبا ومصر شمالا . والواقع أن الحد السياسى ليس حداً طبيعياً البتة ، فالتغير الأثنولوجى (والجغرافى) يبدأ عند الشلال الأول ومع ذلك فإن النوبة السفلى كانت تسيطر عليها مصر فى الأزمنة القديمة . فقد حدث

فى عام ١٨٧٩ ق . م أن أصدر فرعون مصر قانونا باعتبار الشلال الثانى حداً شمالياً لبلاد « الزنوج » فلا يصرح لأى زنجى باجتياز هذا الحد إلا لغرض معين أو عندما يقدم للتجارة لأجل محدود ، وقد وجدت نقوش على جدران معبد سمنة قرب الشلال تقول « هذا هو الحد الجنوبى المعمول به فى السنة الثامنة من حكم جلالة ملك الصعيد والدلتا خيكور (سيزوستريس الثالث) الذى منحته الآلهة الحياة أبد الدهر ، حتى يمنع أى زنجى من اجتيازه لطريق الماء والأرض ، سواء أكان فى سفينة أو فى قافلة — فيما عدا الزنوج الذين يأتون للتجارة فى أرضنا أو الذين يحملون تصريحاً لعمل خاص ، وهؤلاء يعاملون بالحسنى ولكن دون السماح لسفينة من سفن الزنوج أن تمر ببلده حيح HEH (سمنة) منسابة مع تيار النهر . . . »

والواقع أنه فيما وراء الشلال الأول مباشرة يسمع المسافر لغة جديدة يقال أنها تنتمى للأسرة السودانية (الزنجية) الكبيرة وقد اعتبرها أحد الكتاب لغة حامية الأصل تسربت إليها الزنجية بقدر كبير . وأيا كان الرأى فإن النوبيين الذين يسمون أنفسهم بهذا الاسم يجب اعتبار غالبيتهم العظمى حاميين . ويتميز هؤلاء النوبيون بالقامة المتوسطة والرأس المستطيل والذين لم تتسرب إليهم الدماء الزنجية بكثرة يتميزون ببنية نحيفة تميل إلى الرشاقة يستطيع لأول وهلة تميزهم عن سائر الفلاحين — لون بشرتهم حالك عموما ، والوجه أدنى إلى الاستطالة حيثما دقت التقاطيع ، وأما الشعر فرغم أنه فى الغالب مجعد إلا أنه نادراً ما يكون خشناً مقصفاً كشعر الزنوج . وليس من غير الشائع وجود أفراد يقربون المصريين الأول فى شكل الرأس ، ولعل دراسة تاريخهم يفسر لنا هذه الظاهرة . فقد دلت الحفائر شمالى أسوان مباشرة على أنه منذ الألف الثالثة قبل الميلاد كان يسكن النوبة أقوام يشبهون المصريين فى عصر ما قبل الأسرات ، وحضارتهم تقرب من حضارة المصريين الأول وإن كانت أقل منها تقدما بكثير . وكانوا بطبيعة الحال يتاجرون مع المصريين بغير قيود أو حواجز ، ويستدل على ذلك من اكتشاف أدوات

راقية النوع فى مقابرهم يقترن تاريخها بعصر ما قبل الاسرات المتأخرة ، ومن بين هذه الأدوات صولجان رائع الصنع من الحجر ذو مقبض من الذهب ، ومن الطبيعى أن الصلة بين مصر والنوبة لم تقف عند هذا العصر البعيد ، وأن تاريخ النوبة كما يتضح من المصادر المصرية التى تعرضه بدرجة لابأس بها من الدقة يبين لنا بجلاء أن مصر كانت على علاقات تجارية دائمة ، وفى حرب لا تكاد تنقطع مع الشعوب التى تقطن جنوب الشلال الأول منذ عصر بناة الأهرام حتى تمصرت النوبة تحت لواء الامبراطورية الجديدة . وطيلة هذا الوقت بل وإلى ما بعده . نستطيع أن نتبع المد والجزر التدريجى فى النفوذ الآتى من الشمال تبعاً لحالة الحكومة فى مصر فى ذلك الوقت . ولابد أن النوبة بعد عصر بناة الأهرام قد رجعت خلال الفترة المظلمة فيما بين الأسرة السادسة والأسرة الحادية عشر ، ثم نراها تزدهر من جديد فى عهد الأسرة الثانية عشر ، ولاشك فى أن موجات النهوض والركود قد لازمت فترات تذبذب النفوذ المصرى فيما وراء الشلال . أضف إلى ذلك أن هناك دليلا على حدوث ضغط شديد نسبياً قام به البجاه فى الصحراء الشرقية ، ومن هنا نشأ فى النوبة شعب مولد من عنصرين مختلفين ، قد أدمج خصائص المصريين والزنوج والبجاه ، وهذا العنصر الجديد الذى يمكن التعرف عليه فى سهولة ووضوح بمقابر الدولة الوسطى — من عهد الأسرة السابعة عشر — هو الذى بقى فى النوبة واستمر حتى وقتنا الحاضر . وهذا فضلا عن تغلغل نفوذ عنصر آخر يتميز بالرأس المستديرة ظهر على مسرح النوبة فى مستهل العصر المسيحى تقريباً وقوى أثره عن طريق غير مباشر بالفتوحات العربية التى ذكرت فى الفصل العاشر .

وينتظم شعب النوبة فى الوقت الحاضر أربعة أقسام رئيسية يمكننا أن نسميها قبائل ، والنوبيون وإن اقتبسوا نظم العرب الاجتماعية إلا أن أسماء عدد من تفريعات قبائلهم ترجع إلى عنصر البجاه أصلا ، وفيما يلى الوحدات القبلية المعروفة بصفة عامة .

الكنوز ويقطنون الأراضى المجاورة لوادى كنوز كما ينتشرون فيما بين

أسوان وكوروسكو ويزعم الكنوز أنهم سلاله بنى كنز العربية ، ويلى هؤلاء الفياديشا ويمتد توزيعهم جنوباً حتى وادى حلفا ، ثم المحاس فيما بين وادى حلفا ودنقله ، وأخيراً الدناقلة فى منطقة دنقلة وما جاورها .

والنوبيون شعب دائب النشاط سعياً وراء الرزق ، فهم قوم أسفار وتجارة . ويرغبون رغبة أكيدة فى طلب العلم ، ولديهم مهارة فائقة فى تعلم اللغات ولعل هذا كله يفسر لنا انتشارهم واستيطانهم فيما بين الخرطوم ودلتا النيل . ويتفوق الدناقلة على سائر اخوانهم النوبيين فى الصفات التى تدفعهم إلى السعى والمخاطرة فى الأوطان الغريبة، فكان لهم تأثير محمود فى ثقافة جنوب كردفان كما أنهم لعبوا دوراً خطـــيراً فى هيئة تجار العبيد العربية إبان القسم الأوسط من القرن الماضى . ولاشك فى أن السبب الأول فى تفرق شملهم يرجع إلى فقر بلادهم ، إذ على الرغم من أنهم قوم مزارعون حيثما تهيأت الظروف الزراعية فى بيئتهم ، فإن الصحراء تطغى على القسم الأكبر من وطنهم حيث يضيق نطاق الوادى فلا يكاد يبلغ عرضه بضع ياردات على ضفة النهر .

ويحدث النوبيون ندوبا على وجناتهم فى خطوط رأسية أو مائلة ، ويقومون بختان بناتهم بالشكل الذى نجده بين قبائل العرب فى الجنوب ومع أن النساء ترتدى الثياب العربية فى الوقت الحاضر إلا أن ملبسهم المألوف كان يتكون منذ خمسين عاما من حلة قصيرة تصل إلى الركبة فقط . وتمتاز أوانيهم الفخارية بجودة خاصة ويصنعونها باليد كما يصنعون السلال والحصر الرائعة ، ويذكر بورخاردت Burckhardt أنه كثيراً مارأى أنوال صغيرة فى منازلهم .

وعلى الرغم من أن المساحة الجغرافية الواقعة بين حدود السودان شمالا ومستعمرة كينيا جنوباً والبحر شرقا ، تنتظم خمس وحدات سياسية (وهى من الشمال إلى الجنوب . اريتريا والحبشة والصومال الفرنسى ، والصومال الانجليزى، والصومال الايطالى فإنها تكون وحدة جنسية أساسية إلى حد كبير وليس من المستحسن إذاً وصف شعوبها كل على انفراد . وحيثما اتجهنا فى تلك المساحة

الواسعة ألفينا السكان حاميين أو أساسهم حامياً على الأقل وذلك فيما عــدا الشنقلا وهؤلاء تغلب عليهم الدماء الزنجية ويقطنون السهول الغربية الجنوبية من الحبشة وقد سبق أن أشرنا إليهم فى الفصل الرابع . ويكفى هنا القول بأن هذه التسمية ليست إسماً لقبائل وانما هى المرادف الامهرى للفظة «زنجى» ولذا يستعمل الأحباش هذا اللفظ فى الإشارة إلى كل القبائل التى يغلب عليها الصفات الزنحية .

ولاتختلف اريتريا من الناحية الأثنولوجية إلا قليلا عن مديرية البحر الأحمر التى تجاورها فى السودان المستقل ، كما أنه لا يوجد حتى الآن أى دليل على سكنى الزنوج لأرتيريا فى أى وقت من الأوقات . ويقطن بنو عامر قسمها الشمالى الغربى . أما فى مقاطعة كيرين فيسكن البوجس Bogos ويعتنقون الكاثوليكية ويتبعون كنيسة روما ويتكلمون لغة الكوشية وتعرف بإسم بيلن Bilin وشأنهم فى ذلك شأن الشوهو Shoho حول خليج أنسلى Annesley إلى الجنوب من مصوع .

أما سكان الحبشة فهنا لك رأى يقول بأن السكان الأول بوجه عام كانوا من الزنوج ، وإذا صح هذا الرأى فمن الممكن أن نجد بقاياهم ممثلة فى العناصر شبه الزنجية التى تشتغل بالصيد والمبعثرة فى أرجاء الحبشة جميعها وهى معروفة لدى الجلا والأحباش بإسم واتا (Wata) كما يطلق عليها الكافيكو اسم مانجو (Manjo) ومهما قيل عن زنوج الحبشة ، فليس ثمة شك فى أن الحاميين كانوا يفدون إلى الحبشة على فترات غير منتظمة مدى أمد طويل كما أنه لاشك أيضاً فى أن العنصر الحامى ظهر على مسرح افريقية الشرقية قبل الميلاد ببضعة آلاف من السنين . والنتيجة اللازمة لذلك أن سكان الحبشة فى الوقت الحاضر بصفة عامة خليط من الحاميين والزنوج ، ويحتمل أن يكون الدم الحامى مثلا بنسبة ٨٠ ٪ هذا فضلا عن وجود نواة من الساميين الذين يمكن تتبع نفوذهم ماداموا يشبهون الحاميين جسمانياً — عن طريق المقاييس الثقافية والتاريخية ويمكن اعتبار مدى انتشار اللغات السامية والغيز (Ge'ez) والأمهرية حداً ثقافياً بين البقاع التى

تأثرت بهجراتهم والأخرى التى لم تتأثر بتلك الهجرات . وينبغى ألا يغرب عن الذهن أن هنالك ميلا مزدوجا إلى المبالغة فى أثر العنصر السامى فوق هذه البقعة بأسرها . أولها من الأحباش أنفسهم نظراً لصلاتهم القديمة باليهود ، ونظراً للتقاليد المتوارثه فى انتساب أسرتهم المالكة إلى ملكة سبأ ، وثانيهما من أصل الصومال والشعوب المتجانسة معهم نظراً لرغبتهم فى توكيد الصلات التاريخية بالدين الذى اعتنقوه ، ويطلق لفظ « كوشى » عادة على تلك الفئة من الحاميين التى تقطن الحبشة والواقع أن لفظ كوشى هذا وكوشيين إنمـــا يحوى معنى « حامى » ويمكننا والحال هذه أن نصف الأحباش الأصليين بأنهم كوشـيون غلبت عليهم النحية السامية وهم بهذا الوضع يختلفون عن الكوشيين الأكثر نقاء فى الشمال (بوجوس وغـيرها) وفى الوسـط حيث تقيم آجاو (Agau) وفى الجنوب حيث تقطن كافيشو Kafficho ووالامو (Wallamu) وغيرها ومما تقدم يتضح أن سكان شمال الحبشة تربطهم صلة بالبجاه بيد أنهم أكثر اختلاطاً وامتزاجا منهم ولذا فبينما يكاد الأمبراطور الحالى هيلاسلاسى يعتبر كواحد من سكان جنوبى أوروبا ، نلحظ ملامح سلفه ذات صبغة زنجية واضحة . وإذا نحن أغضينيا النظر عن بعض الصفات الزنجية فاننا نجد جماجم الأحباش من نوع جماجم المصريين الأول رغم ماقد يبدو أن بعضها أكثر ارتفاعا واستداره، وقد وجد فى مجموعة من الجماجم التى بلغ عددها ٩٤ جمجمة أن ٥ ٪ منها فقط من أصحاب الرءوس المستديرة ، بينما لم يوجد أثر للرأس المستديرة فى بنى عامر والهدندوا فى مجموعتين تزيد كل منهما على الخمسين . ومثل هذه النتيجة شىء متوقع نظراً للعلاقة التاريخية بين الحبشـة وبلاد العرب ويؤكد شـفينفورث Schweinfurth نفس الشىء فى وصفه لسكان الحبشة الشماليين إذ يصفهم بأنهم شعب مختلط لدرجة كبيرة ثم يستطرد فيقول إنه بالرغم من أنه قد تأمل فى آلاف منهم إلا أنه لم يستطع الوقوف على صفة واحدة من الملامح الشائعة ، أو خاصة يتميزون بها فى مظهرهم الجسمانى ويمكن أن تتخذ أساساً للتعرف عليهم وتميزهم عن غيرهم من الشعوب المنتشرة فى تلك البقاع كالحاميين مثلا أو الحاباب أو بنى عامر والصلة الوحيدة التى تربطهم هى اللغة وهى فرع من لغة الغيز (Ge'ez) القديمة.

وإذا استعرضنا الناحية اللغوية ألفينا أن اللغات الحبشية ليست هامة فى حد ذاتها فحسب ، وإنما تستمد أهميتها أيضاً لأنها فيما نعلم أقدم اللغات السامية التى تداولها الناس فى إفريقية . ولقد اعتنق الأحباش الدين المسيحى منذ القرن الرابع وترجم الانجيل حوالى القرن السابع إلى الأثيوبية أو الغيز (Ge'ez) وهى لغة قريبة من العبرية والعربية ولكنها أقرب ماتكون إلى لغة قديمة فى جنوب بلاد العرب تعرف باللغة السبأية ، وفى القرن الثالث عشر أصبحت الأمهرية اللغة الرسمية فى البلاط والحكومة ، اذ استطاعت مقاطعة أمدا أن تبسط نفوذها وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر ، ولا زالت الأمهرية هذه تكتب بالحروف الأثيوبية وقد نأت عن النوع السامى القديم حتى يعتبرها البعض حامية الأصل وليست سامية . أما تيجره فهى إحدى اللغات الحديثة التى تمثل الأثيوبية وهى بلا شك سامية الأصل يتخاطب بها الناس فى المقاطعة الشمالية من الحبشة وارتيريا كما هى لغة التخاطب فى الأطراف الجنوبية القصوى من مديرية البحر الأحمر بالسودان .

يضاف إلى ما تقدم « عدد من اللهجات القديمة التى ترجع أهميتها إلى كونها لغة التخاطب لبعض القبائل صاحبة النفوذ مثل قبائل الصومال والجلا فى الجنوب وقبائل الدناقل (وتسمى أحيانا عفار Afar) فى الشرق ، وقبائل آجاو فى فى الوسط ، وقبائل بوجوش فى الشمال . ويعرف كذلك باسم بيلين (Bilin) وهى آجاوية الأصل .

وليست الحبشة قطراً غامضاً فى جغرافيته الجنسية فحسب ، وإنما يتعدى هذا الغموض والاختلاط إلى الناحية الدينية وهنا يقيم الوثنيون ويمثلهم عدد كبير من الجلا ، بجانب المسلمين الذين يمثلهم عدد كبير من الجلا والصومال فى الجنوب وبنو عامر وساحو (Saho) وغيرها فى الشمال ، وبجانب هؤلاء جميعاً يقيم المسيحيون ، ولا يخلو الحال كذلك من وجود اليهود وهؤلاء هم الفلاشا ويدعون يهود الحبشة السود . ونظراً لهذا التعدد فى الأديان فالاسلام فى الحبشة ، وإن يكن المذهب السائد هو المذهب السنى ، قد اختلط بمعتقدات قديمة . ولا توجد مدارس

دينية ملحقة بالمساجد كما لا توجد تلك الجمعيات الدينية (الطرق) التى أسدت الشيء الكثير إلى الإسلام فى شمال أفريقية . ومن هنا نشأ نوع من عدم المبالاة والتحمس وشيء من عدم المعرفة السليمة بتعاليم الاسلام . بل نجد شعباً كبنى عامر مثلا يتخذ البعض منهم الطقوس الدينية المسيحية وأكبر الظن أن المسيحية نفذت إلى الحبشة عن طريق سورية ، فقد اعتنق ملك اكسوم السامية ، الدين المسيحى سنة ٤٥٠ ميلادية . ثم أعقب ذلك فترة من الظلام فى تاريخ الحبشة أتى خلالها قديسو الكنيسة الحبشية كثيراً من المعجزات . ومن الجائز أنه أثناء هذه الفترة سعت الحبشة إلى الاتصال بالكنيسة المصرية والنتيجة اللازمة لذلك أن أصبحت الكنيسة الحبشية قبطية المذهب بمعنى أنها تعتقد فى أن للسيح طبيعة واحدة ـ ويعين بطريركها (أبونا) من قبل الكنيسة المصرية ، ولا تزال الكنيسة الحبشية تستخدم للآن القداس القبطى القديم فى الخدمة الكنائسية رغم أنه بطل استخدامه فى الكنيسة المصرية ذاتها ، منذ عهد بعيد .

ولقد كان اليهود السود مثار اهتمام الكثير من الباحثين ويطلق عليهم الفلاشا واللفظ المشتق من الكلمة الأثيوبية فالاس (Falas) بمعنى غريب ولا يعرف عن هؤلاء سوى النزر اليسير وتقول الأساطير المتوارثة أن ملكة سبأ وكانت أميرة أكسوم ، قد تلقت مبادىء الدين اليهودى عندما زارت الملك سليمان ، حتى إذا عادت أدخلت اليهودية إلى بلادها ، والأسطورة حديث خرافة بالطبع ويبدو أن ثمة علاقة لم تكشف بعد بين اليهودية والقطر الحبشى ، وربما حدثت هذه العلاقة قبل دخول المسيحية - ويستدل على ذلك من وجود مراسيم دينية كثيرة فى الحبشة مأخوذة من التوراة ، وفضلا عن ذلك فإن بعض الكلمات الآرامية المستعارة للدلالة على الأفكار الدينية فى الكتب الحبشية القديمة . ترجع إلى أصل يهودى آرامى أكثر منها إلى الأصل المسيحى الآرامى ، ومن أمثلة ذلك الكلمات التى توضح التعاليم فى يوم شباط . ذلك اليوم الذى يرمزون إليه بقديسة طهورة والكلمات التى تفرق بين الحيوانات الطاهرة والأخرى الدنسة والعبارات الخاصة بالنظافة أثناء المراسيم وعلى هذا النحو ذهب البعض إلى القول

بأن عقيدة الفلاشا اليهودية إنما هي بقاء لهذه العلاقة القديمة ، وذلك لعدم وجود تاريخ يحدد اعتناق الفلاشا لليهودية .

ويعيش الجانب الأكبر من الفلاشا فى قرى خاصة بهم ، وكان للفلاشا حتى دخولهم تحت حكم مملكة تيجره عام ١٨٠٠ ، حكام من الملوك يزعمون ارتباط نسبهم بالنبى داوود ويمتاز الفلاشا بالنشاط فهم قوم مهرة فى الزراعة وصناعة الفخار والأدوات الحديدية والنسيج كما أنهم مهرة فى البنـاء . ويتحاشى الفلاشا الاختلاط بغيرهم من الناس وغالباً ما يبدوا مستواهم الأخلاقى أكثر رقياً من جيرانهم والمألوف عندهم الزواج من واحدة فقط كما أنهم لا يتزاوجون من غير شعبهم . وتحذر عليهم شريعتهم دخول بيت المسيحى فإذا حدث هذا الأمر وجبت مباشرة طقوس التطهير ، وينقسم الفلاشا إلى شعب ثلاث لكل منهـا حاخامها الأكبر ، ويصومون مرتين كل أسبوع وأربعين يوما قبل عيد الفصح . ولا تخلو طقوسهم الدينية من مراسيم وثنيـة مختلفة وقد سبق القول بأن شباط مؤله عندهم ويقدم الفلاشا للإلهة . . سنبات فروض العبادة والذبائح وإذا اتهمت المرأة بجريمة الزنا وجب أن تتطهر بأن تثب خلال ألسنة اللهب وإذا بنى مسكن جديد فإنه لا يصبح صالحاً للسكن حتى يسكب عليه دم خروف أو ديك . وللكاهن الحق فى أن يتزوج بيد أنه يحرم عليه الزواج مرة ثانية ، ولأديرة الفلاشا نظام خاص يقال إنه أدخل فى القرن الرابع الميلادى ويتراوح عددهم فى مختلف الاحصاءات بين مائة ألف ومائة وخمسين ألفاً .

ولعل أجدر شعوب الحبشـــة بالبحث ، شعب الجلا Galla ويدعون أنفسهم الم أورما Ilm Orma ويعرفون عادة باسم أورومو Ormo وقد ظهروا على مسرح التاريخ أثناء القرن الخامس عشر حيث احتلوا الشاطىء الجنوبى لخليج عدن ولم يلبثوا أن اندفعوا غربا وساعدهم على حركتهم هذه غزوات محمد جرانى للحبشة . ويجنح الجلا إلى اقتفاء أثره واحتلال المناطق التى اقتطعها وسلبها وإذا صرفنا النظر عن صفة اللون الذى يختلف من قبيلة لأخرى اختلافا بيناً فنرى لون البورانا Borana مثلا أخف قليـــلا من اللون البنى بينما لون الواليجا

Wellega والايتو Itu يميل إلى السواد إذا نحن صرفنا النظر عن صفة هذا اللون فان الجلا عامة يتميزون بصفات جسمانية خاصـــة . . فهم ذو رءوس متوسطة وبنية ضخمة ، كما يتميزون بجباه عالية عريضة وتقاطيع متناسقة ولا زالت غالبيتهم وثنية وإن وجدت بينهم بعض الجماعات التى تعتنق المسيحية وأخرى تعتنق الاسلام . والجلا أقل تحمساً ورغبة فى القتال من جيرانهم الصوماليين والدناقل ، وهم بوجه عام أكثر ذكاء ، ولعل هذا يفسر لنا ازدياد نفوذهم باضطراد فى السنوات الأخيرة . والجلا وان كانوا يخضعون إسما للحكم الحبشى ويتكون منهم فرق الخيالة بالجيش الحبشى ، فقد كان لهم فيما مضى نظام اجتماعى راق معقد لا تزال بعض آثاره قائمة للآن وحسب هذا النظام ، كان الشعب ينقسم إلى مجموعات تسمى كل منها جادا Gada وتنتظم كل مجموعة فريقين ، وكل رجل ينتمى إلى مجموعة جده . وكل زوج من المجموعات يمر خلال خمس فترات متعاقبة مدة كل منها ثمان سنوات ويتولى رجال الفترة الرابعة حكم البلاد تحت مسئوليتهم فينتخب الأبابوكو Abba Boku (اب الصولجان) من بين هذه المجموعة .

ويغلب على الجلا فى الوقت الحاضر أنهم شعب زراعى إذا استثنينا البورانا الرحل ، بيد أن الماشية لا تزال المقياس الذى تقدر به قيم الثروة والحصول على ملكية ألف رأس من الماشية يصاحبه احتفال خاص .

ولئن تعذر علينا الآن أن نقطع بوجه العموم الصلة بين دين الجلا ودين أسلافهم قبل نفوذ المسيحية والإسلام إليهم إلا أنهم يكونون المجموعة الوحيدة التى بقيت من الحاميين الوثنيين، مما يجعل معتقداتهم الدينية موضع أهمية خاصة . ويعتقد الجلا فى إله أعظم يدعى واك Wak أو واكا Waka وسناه الجنة أو السماء ، وبجانبه إله تابع يدعونه آتيتى Atete وإلهة يسمونها أوجلى Oglie . ويقوم رب الأسرة بدور الكاهن فى كل ماله صلة بالطقوس الدينية فيقدم ذبيحة للقمر عندما يكون فى المحاق ، سائلا إياه أن يستمر القمر الجديد فى حراسة

ماشيته وما شابه ذلك. ويقدس الجلا بعض الحيوانات كالثعبان والتمساح والبومة وإن يكن هناك دلائل على اتخاذهم اياها بمثابة طواطم . ونجد أن عبادة الأشجار عند الجلا الجنوبيين على الأقل تتخذ صفة معينة وشكلا خاصاً . فتجل أشجار البوباب بصفة خاصة حيث يسكب اللبن على جذورها مرة كل شهر بينما يقدمون لها كل سنة حملا أسود بمثابة ذبيحة ، كما يحترم الجلا أنواعاً أخرى من الأشجار كالتين الشوكى ونوع من الشجر يعرف باسم كارابو ، ويحمل هذا الاسم قبيلة من الجلا يحظر عليها اقتلاع هذه الأشجار . ويباشر الجلا التنبؤ بالمستقبل بفحص أمعاء بقرة ذبيحة أو تفسير انطلاق الطيور . والطقس الدينى الرئيسى عندهم هو ما يعرف بالواداجا Wadaja . ويقصد به تلاوة الصلوات العامة ويلازم هذه الصلوات وجبة غذاء بصفة ذبيحة ، ويقدم جزء منها إلى واك إله السماء ، وقد كان من أهم مظاهر الديانة عند الجلا — حتى حظر الأحباش ذلك — الحج إلى واليبجا حيث آبامودا Abba Muda أى « أب العباد » إذ كان الذائع بينهم أن القوة الدينية العليا للشعب تعيش فى كهف خفى مع ثعبان. وكان الحجاج يتبادلون السؤال والجواب فى قانون واك وعادات الجلا ويحرضون ضد الإسلام ويقوم آب العباد بمسح رؤسهم بالزبد ، وكان الحج مقصوراً على الرجال وعلى الأسرة أن ترسل من يمثلها مرة كل ثلاثة أجيال على الأقل .

ويرتدى الجلا قميصاً وثوباً وهو غالباً من القطن وفوق أكتافهم يتدلى جلد ماعز أو فهد أحياناً ويرتدى بعض النساء ثوباً سفلياً من الجلد فوقه غلالة من القطن . وفى الحرب يحمل الجلا حربتين من النوع الخفيف ورمحاً ثقيلا ودرعاً صغيراً مستديراً وأكواخهم مستديرة ذات جدار رأسى من الطين أو الحجر الخشن وسقف مخروطى من الحجر وكان نسج القطن فيما مضى صناعة يتميز بها الجلا كما كانوا ينتجون مصنوعات من الصلب والجلد ، وحتى الآن يكون الحدادون طبقة خاصة مستمرة بين الجلا ، والزواج بواحدة هو الأمر الشائع بينهم عدا البوراتا ومهر العروس يدفع ماشية ، ويرث الأرملة شقيق الزوج مع من أنجبتهم من البنين ويتزعم الأسرة أكبر أفرادها سنا ، وللأب مثلا سلطة

الحياة والموت على أولاده ويستطيع أن يتصرف فيهم بالبيع كالرقيق . والوراثة فى أكبر الأبناء سنا وليس للنساء أى حق فى الوراثة . وعدم العفة بين النساء قبل الزواج نادر للغاية ، فالزنا يجعل الفتاة غير أهل للزواج قانوناً .

أما أهل الصومال فتاريخهم القديم مبهم غامض ولكن من المسلم به أنهم حاميون أصلا كما يرجح أنهم هاجروا حديثاً نسبياً عبر البحر واستوطنوا أرضاً كان يسكنها من قبلهم الجلا فى بعض اجزائها .

ولا يكاد يختلف أهل الصومان عن الجلا فى الصفات الجسمانية بيد أن نسبتهم الرأسية أقل (حوالى ٧٥) كما أن قامتهم أكثر طولا إذ تصل فى المتوسط إلى ٦٨ بوصة. ويتدرج لون بشرتهم من البنى الفاتح إلى البنى الغامق وقد يضرب إلى السواد قليلا. والبشرة السوداء شائعة بين أفراد كثيرين فى موانىء افريقية الشرقية ، يزعمون أنهم من أهل الصومال وكما هو شأن الرحل فى الصحراء ، نجد أن الرجال منهم تضطرهم الظروف إلى العيش عيشة شظف وتقشف ، ويتحملون كثيراً من الأعباء والمشاق ويمكنهم البقاء أمداً طويلا على اليسير من الخبز والماء . ويذكر بعض من اتصل بهم الشيء الكثير عن شخصية الصومالى المرحة الباشة بوجه خاص وغروره الذى يتجاوز الحد ، وجشعه الشديد ، ولعل هذه الصفات جعلت من الصومالى جنديا ممتازاً ، عندما يوجه توجيها حسنا . ولكنه وإن كان طيباً فى قرارة نفسه فهو فى بعض المناسبات تضطرم نفسه بثورة دينية عنيفة تثير الدهشة كما كان يفعل زعيمهم مولا وكما كان يحدث فى فترات القلق وعـــدم الاستقرار حين يؤول الأمر إلى قادة غير محنكين ، وينتظم الصوماليون فى قبائل لكل منها زعيم ، على أن الزعامة مقصورة على أسرة واحدة ، وسلطة الزعيم كما هى الحال فى مجتمع الرحل ضئيلة فى الغالب ، ويلزم المنصب صاحبه على الأقل كثيراً من التبعات والواجبات المضنية قد ترجح كفة الامتيازات التى يتمتع بها كزعيم .

وفى بلاد الصومال — كما يزعم الصوماليون أنفسهم — عنصران متميزان هما الآشا (Asha) أو الصوماليون الأنقياء (الأصليون) . والايرير Irir أو الهاويا Hawiya (وينظم هؤلاء بعض القبائل الهامة مثل العيسا (Aysa) والجادا بورس Yadabursi ويزعمون أنهم سلالة أجدادهم الجلا) . وكلا العنصرين لاتعوزه قوائم الأنساب العالية التى تقيم الدليل على صحة نسبه ، غير أنه مع هذا الاعتبار فلا يوجد أى اختلاف ظاهر فى المميزات الجسمانية ، وإذا افترضنا وجود مثل هذا الاختلاف فى النشأة والأصل فقد زال أثره منذ عهد بعيد .

أما الدناقل أو الافار Danakil - Afar فلغتهم تقرب من لغة الصومال ويسكنون المثلث من الأرض شمالى الصوماليين والجلا ويحد بلادهم البحر من الشرق والحافة الشرقية لهضبة الحبشة من الغرب ، ويوصف الدناقل بأنهم قوم نحاف بنوع خاص ذوو قامة يبلغ طولها ٦٤ بوصة . وملامح من النوع السامى الدقيق الجميل ، ويقال إن بشرتهم لاتقل سوادا عن كثير من الزنوج وشعرهم خشن مجعد غير أنه ليس مفلفلا ، وبين الدناقل طبقة لها النفوذ والسلطان يقال لها طبقة الأشراف ويطلق عليها اسم الاسيمرا Asaimara أو الرجال الحمر ، تمييزاً لهم عن الادوميرا Adomaira أو الرجال البيض . ويمثل موقف الطبقتين بعضهما تجاه بعض موقف الغالب والمغلوب ، رغم أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر أدنى اختلاف بينهما فى اللون بل الشك قائم فى الواقع فيما إذا كان للاختلاف اللونى وجود على الإطلاق فى العهود الماضية . وإنما منشأ الاختلاف راجع إلى أن بلادهم غزاها شعب لا يكاد يختلف عن السكان الأول الذين ينتشرون على الهضبة الحبشية تجاه الشاطىء .

ويعتنق الدناقل الإسلام بيد أن ممارستهم لقواعد الدين ينقصها الحماس كما ينقصهم رجال الدين العارفون أو المدرسون .

وتملى الأوضاع الجغرافية ، أكثرمما تمليه المعرفة الأثنولوجية أننذكر شيئاً فى هذا الفصل عن تلك القبائل المحلية أو إن شئنا تسميه أكثر تصويراً لحالتها قلنا قبائل (المنبوذين) التى تحتل الأرض فيما بين شرقى افريقية والحبشة ، هذا وإن كان الاصطلاح فى الواقع يصدق بصفة خاصة على بعض الشعوب أمثال الميدجن Midgan ويقصد بهم الصيادون والجراحون ، والتومال Tomal ويراد بهم طبقة صناع الحديد ، والجبر Jiber صناع الجلد وينتمى الجميع إلى الصومال ويدرجون تحت اسم سآب .

ويزعم كثير من الكتاب أن هذه المنطقة التى نحن بصددها كان يسكنها فيما مضى شعب من الاقزام ، ويحتمل أن يكونوا أسلاف البشمن أو النجريتو وأن القبائل الطريدة انما هى من نسلهم . وبينما يبدو هذا الزعم صحيحا بالنسبة لبعض هذه القبائل كما هو الحال عند الساندوى Sandawi فى أرض تنجانقيا حيث نجد فى لغتهم بعض حروف قاطعة وحلقية من لغة البشمن كما هو شأن الواسانيا Wasania حيث يقال إن فى لغتهم بعض الحروف المقطعية Clicks ولعله مما يستدعى النظر حقاً أن بعض الشعوب أمثال الدوزوبور Dorobo أو الاوجيك Oggiek فى مستعمرة كينيا لا يظهر فيهم أى دليل على انتسابهم إلى نسل من الاقزام ، فهم فى الواقع رجال ونساء كاملو النمو ، وتجرى فى عروقهم الدم الحامى بشكل واضح إلى درجة يمكن اعتبارهم معها أنصاف حاميين ، ولكن ليس معنى هـــذا أنا نغض النظر تماما عن الرأى القائل بأنهم يمثلون بقايا شعب سابق وانما معناه أن صلة هذه القبائل بالأقزام انما هى صلة ضعيفة وربما لم تكن صلة مباشرة فالعنصر البدائى الأول تغلب عليه صفة الزنوج لا صفة الأقزام ، فذلك يرجع إلى اتصال غير مباشر لا إلى اتصال حقيقى مباشر . ويؤيد هذا الرأى دراسة الطبقات الدنيا للدوبى Dupi من شعب البارى فى الجنوب الأقصى للسودان . فالكثير من هؤلاء الدوبى أقوياء الجسم عراض الوجه ، يتميزون بالأنف الأفطس والبشرة السوداء وهم يختلفون بذلك عن الطبقة العامة

التى يتميز أفرادها بالوجه الطويل نوعا وقصبة الأنف الطويله والمنخارين الضيقين بين الرجال غالباً .

ويظهر أن الدوروبو جميعاً يتكلون لغة الناندى ، بيد أنهم لا يمتلكون مثلهم أى حيوان مستأنس فيما عدا الكلب ، ويحملون الرماح والسهام ، ويحسنون عمل الشراك ، بينما تستخدم جماعات أخرى الرماح الثقيلة لاقتناص فرس النهر والفيلة .

والوانا كما يسميهم الجلا ، يكونون مجموعات مبعثرة فى جنوب الحبشة ولا يعرف عنها سوى النزر القليل .

الفصل السادس

٢ — الحاميون الشماليون

تنتشر جماعة الحاميين الشماليين انتشاراً واسعاً كما يتضح ذلك من خريطة توزيع اللغات وذلك مع اغفالنا فى الوقت نفسه المؤثرات العربية غربى النيل ، وينبغى أن نؤكد قبل أن نصف هذه الجماعات أن الحدود القائمة بين الوحدات السياسية فى شمال القارة — وهى طرابلس (المملكة الليبية المتحدة) وتونس والجزائر ومراكش ، هى حدود مفتعلة من وجهة النظر الأنثروبولوجية فهى لا تتفق فى قليل أو كثير مع أى تقسيم جغرافى أو جنسى . ومن الضرورى كذلك أن ندرك أن عدد العرب الذين وفدوا إلى شمال إفريقية لم يكن كبيراً بأى حال من الأحوال وأن النتائج الاجتماعية التى نجمت عن أثر الزواج وذيوع الدين الاسلامى فى أرجاء تلك المنطقة ، هى العوامل المسئولة عن عملية « التعريب » حيثما وجدنا آثارها فى تونس والجزائر فلم يكن معنى تعريب تلك الجهات استبدال الدم العربى بدماء البربر سكان البلاد الأصليين . . أما فى طرابلس فالوضع يختلف إلى حد ما فنحن إذ استثنينا الشريط الساحلى الضيق الذى يستأثر بالقسط الأكبر مما يسقط من مطر على الاقليم فان الظروف المناخية التى تسود هذا القطر غالبا ، بصرف النظر عما كانت عليه الحال فى عهد الرومان ، هى الظروف الصحراوية أو ظروف الاستبس الفقيرة ومثل هذه الظروف تناسب حياة البدو وأشباه البدو المتنقلين ولكنها لا تكاد تجذب إليها جماعات الزراع المستقرين ، وعلى ذلك ففى القسم الشرقى من طرابلس نجد أنفسنا أمام جماعات من العرب الخلص تماما كقبائل أولاد على ممن سنأتى على وصفهم فى الفصل العاشر فإذا نحن تجاوزنا هؤلاء ومن ينتمون إليهم

من جماعات يمكننا أن نبدأ بوصف جماعات البربر فى شمال إفريقية فنقول إن الحفائر فى مرسى مطروح وبالقرب من حدود مصر الغربية تشير إلى أنه فى زمن قديم جداً — قد يرجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد — كان يسكن هذا الأقليم قوم تشبه ثقافتهم قدامى المصريين فى فجر التاريخ فالأوانى الدقيقة الصنع التى تركوها تؤكد هذا التشابه وإن كانت تختلف تماما فى الشكل وفيما غلبها من رسوم عن أى من مثيلاتها التى عثر عليها حتى الآن فى وادى النيل. وفى منطقة روكفيه بالجزائر عثر على هياكل عظيمة ترجع إلى عصر لاحق لعصر هذه الأوانى. وتاريخ هذه الهياكل وإن كان غير معروف على وجه التحديد فمن المؤكد أن أحدثها يرجع إلى عصر استخدام الحديد الذى لانستطيع أن نحدد له تاريخاً معينا فى شمال إفريقية وقد وجـــدت تلك الهياكل مدفونة فى مقابر تتكون من حفر منفصلة وليست مبنية من صروح متتابعة من الحجر. وقد وجد أن الجماجم تنتظم أمثلة من جماجم المصريين فى فجر التاريخ كما أنها تشتمل على جماجم أخرى يغلب عليها الاستدارة مما يمكن أن يمت بصلة إلى ذوى الرءوس المستعرضة التى سنصفها فيما بعد.. وعلى ذلك ففى عصر ماقبل التاريخ كان يوجد على الأقل نوع من السلالات يمكن أن نتعرف عليها فى سكان شمال أفريقية فى الوقت الحاضر كما سنرى بعد قليل.. وقبل أن نشير إليها فى شىء من التفصيل يحسن أن نذكر شيئاً عن جماعات البربر الشـــقر الذين كتب عنهم الشىء الكثير.

من المهم أن نؤكد أولا صفة بياض البشرة عند قبائل البربر بصفة عامة وأن ندرك أن الشقرة إنما تلازم البشرة حتى فى الجهـات التى تلفحها الشمس، حيث تبدو بشرة الرجال أقرب ماتكون إلى بشرة العناصر الناصعة البياض التى تنتمى الى الجنس القوقازى. وفى منطقة جبال أوراس بالجزائر، حيث تقيم قبائل الشاويه Shawia وحيث توجد نسبة من الشقر لاتقل عما يوجد عادة فى أى جهة أخرى من اقليم الجزائر، يمكن القول بصفة عامة أن هؤلاء الشقر يبدون وكأنهم أوربيون فى مظهرهم حتى يمكن أن تحسبهم فى عـــداد الإيرلنديين أو الاسكتلنديين.

« إن الفتيان منهم متى بلغوا سن الخامسة عشر أو السادسة عشر لا يكادون يتميزون عن أقرانهم فتيان الانجليز ممن هم فى نفس السن لو أنهم ارتدوا زياً واحداً ... بيد أنه سيبدو واضحاً فى هذه الحالة تغلب الشعر الأسود بين أبناء البربر أكثر مما يمكن أن تصادفه فى أى منطقة من مناطق انجلترا .. وبجانب ذلك فمن الممكن أن نرى بين البربر رجالا من ذوى الشعر الأشقر كأبناء شمال ألمانيا تماما ، غير أنه إذا أخذنا قرية قائمة بذاتها فالاحتمال ضعيف فى أن يكون عدد ذوى الشعر الأشقر فيها معادلا لعدد أصحاب الشعر الأسود . فالمألوف أن أصحاب الشعر الأشقر إنما يمثلون أقلية ضئيلة بين البربر .. وعلى أية حال فمن الملاحظ أن البربر جميعهم — دون استثناء — شقر البشرة سواء أكانوا من ذوى الشعر الأشقر أو الشعر الأسود وسواء أكانوا من ذوى العيون الصافية الزرقاء أو العيون السوداء وبشرة البربر فى مجموعهم أكثر شقرة من بشرة العنصر التسكانى أو العنصر الاسبانى الأصيل » .

وإذا نحن اعتبرنا سكان جبال أوراس يمثلون عينة سليمة لجماعات البربر فمن الممكن أن نصف البربر فى بلاد الجزائر بأنهم بصفة عامة أميل إلى القد النحيل ، ويبلغ متوسط القامة بينهم ٦٧ بوصة ويتميزون بالشعر الأسود والعيون السوداء .. أما اللائى تدركهن الشيخوخة عادة فى وقت مبكر ، فانهن صورة مصغرة قليلا لرجالهن ويتميزن بالشعر الأسود الذى لا يكاد يتغير لونه بسبب معالجتهن إياه بمستخرجات ثمار الجوز .

والآن وقد قدمنا للقارىء هذه الصورة العامة عن البربر ، يمكننا أن نعالج عناصرهم المختلفة التى أمكن تمييزها فى كل من طرابلس وتونس والجزائر . أما مراكش فنحن لانكاد نعرف عنها سوى النزر اليسير من الناحية الانثروبولوجية فمعلوماتنا من الضآلة بحيث لاتساعد على إعطاء صورة واضحة عنها . كذلك نرى ، ونحن فى مستهل كلامنا عن البربر ، أن نمر سريعاً بأقليم طرابلس فما لدينا من مقاييس للخصائص الجسمانية عن هذا الاقليم لاتتناول سوى الجماعات التى تقطن فى أقصى الغرب فحسب ، وتشير تلك المقاييس إلى أن هذه الجماعات فى

الجهات المتاخمة لمدينة طرابلس من ذوى الرءوس الطويلة وذوى قامة متوسطة تصل إلى ٦٥,٥ بوصة بيد أنه فى منطقة « بوأجيلات » توجد مجموعة تتميز برأس عريض يستلفت النظر .. أما القامة بين أفراد هذه المجموعة فانها لاتختلف عن متوسط القامة فى سائر المنطقة .

وإذا استبعدنا مراكش من مجال بحثنا هذا للسبب الذى أوضحنا من قبل ، فانه يمكننا بعدذلك أن نميزمن وجهة الخصائص الجسدية ـــ أنماطاً ثلاثة تدخل فى التكوين السلالى لجماعات البربر فى شمال إفريقية وتلك الأنماط هى :

(ا) أصحاب الرءوس الطويلة من ذوى القامة المتوسطة أودون المتوسطة التى تصل فى المتوسط إلى ٦٥ بوصة وتتراوح النسبة الرأسية بين أفراد هذه المجموعة من ٧٢ إلى ٧٣ . وفى العادة يبدو مؤخر الرأس وقد كون نتوءاً واضحاً حتى أن الرأس لتبدو إذا نظرنا إليها من أعلى وكأنها شكل مخمس الزوايا والأضلاع ويميل الوجه إلى العرض والقصر فى الوقت نفسه ، كما تبدو عظام الوجنات نامية النمو الكافى ، أما الأنف فمتوسط ، وعظام الذقن بارزة يعلوها شعر كثيف ، والشفاة ممتلئة ، وعظام الأطراف جيدة البناء تبرز عضلاتها فى وضوح ، ويميل لون البشرة إلى السمرة كما أن العيون سوداء .

وهذا النمط من البربر يوجد فى الأقاليم الجبلية فى أواسط تونس وفى مديرية قسطنطينه بالجزائر فى الجهات المتاخمة لمدينة الجزائر نفسها كما يوجد هذا العنصر فى أقصى الجنوب بصفة عامة حيث تبدو فى تقاطيعه بعض السمات الزنجية .

(ب) أصحاب الرءوس الطويلة وذوى القامة الطويلة وتصل إلى نحو ٦٧ بوصة وتتراوح النسبة الرأسية بين أفراد هذه المجموعة بين ٧٤ و ٧٥ ويبدو الرأس ، إذا نظرنا إليه من أعلى ، بيضى الشكل بصفة عامة كما تبدو عظام محجر العين ناتئة قليلا ، أما الوجه فإنه يميل إلى أنه بيضى كالرأس تماما والأنف طويل ضيق والذقن سوية يعلوها شعر خفيف .. ويوجد هذا النمط من البربر غالباً

فى أواسط تونس ويمتد توزيعه غرباً فى الجزائر ولكنه يختفى تماما فى الإقليم الساحلى . . أما فى جبال أوراس فعلى الرغم من وجود القامة الطويلة ، فإنه يغلب ظهور الرأس المستعرض ويعزى ذلك إلى اختلاط مع أصحاب الرأس المستعرض ممن ينتمون إلى المجموعة التالية (حـ)

(حـ) مجموعة أصحاب الرءوس العريضة وذوات القامة القصيرة أو دون المتوسطة فطول القامة غالباً يقل عن ٦٥ بوصة ويلاحظ أن الرأس ليس مستعرضاً بدرجة كبيرة وان كانت المجموعة تنتظم بعض أفراد قلائل ممن تتراوح النسبة الرأسية بينهم بين ٨٥ و ٩٠ ويتميز الوجـــه بأنه عريض وقصير كما أنه يغلب على الجبهة الاستدارة أما الأنف فقصير وعريض قليلا وتتراوح النسبة الأنفية بين ٧٠ و ٧٢ .

ويسود هذا النمط من البربر فى اقليم طرابلس فى جزيرة جربا وعلى الشاطىء المقابل لها ، كما يوجد هذا العنصر فى الجهات المتاخمة لمنطقة « بوجيلات » ، وفى الجزائر يسود هذا النمط فى منطقة القبـائل ، كما يظهر فى أقصى الجنوب بين بنى « مغزاب » الذين يتميز الكثير منهم بالبشرة البيضاء .

وفى الاقليم الواقع إلى الغرب مباشرة من طرابلس والذى يمتـد بين البحر المتوسط شمالا والصحراء جنوبا ، تظهر بعض العناصر ذوى السمات الزنجية وكما هو متوقع تزداد أعدادهم فى الجنوب ، وأهم ما يثير الاهتمام فى أمر هؤلاء أنه وجدت بقايا كبيرة الشبه بهم فى مقابر ترجع فى تاريخها إلى العصر الحجرى الحـديث .

تلك هى الأنماط الثلاثة التى تـكون الكيان الجنسى لبـلاد المغرب والتى يمكن تمييزها بين جماعات البربر غربى طرابلس وفى تونس والجزائر وذلك بغض النظر عن المؤثرات العربية التى أشرنا إليها من قبل . ولمـا كانت الأوطان الأولى لهذه العناصر الثلاثة ، أو على الأقل مراكز انتشارها ، من الأمور المعروفة ،

فقد أصبح من الممكن أن نتعرف على الدور الذى لعبه كل عنصر منها فى تاريخ شمال إفريقيا . . فليس ثمة صعوبة فى أن نتعرف على العنصر الذى يتميز أفراده بطول الرأس وسمرة البشرة وقصر القامة وهؤلاء يمثلون فى الواقع عنصر شمال إفريقية الذى سكن وادى النيل فى فجر التاريخ . . وقد كشفت المقاييس الانثربولوجية — التى لا مجال هنا لمناقشتها — عن العلاقة الوثيقة بين هذا العنصر والعنصر الذى سكن فرنسا فى فجر العصر الحجرى الحديث كما تدل على ذلك حفائر كهوف « بوم شود » و « لوزير » ، وكشفت المقاييس كذلك عن العلاقة بين هذا العنصر وعنصر البحر المتوسط الذى يسكن اليوم فى جنوب أوروبا وبوجه خاص العنصر الأكثر نقاوة ، كما يمثله شعب سردينيا فهؤلاء فى الواقع يمثلون عنصر البربر الأصليين .

وبجانب هذا العنصر الذى فرغنا من وصفه الآن ، يمكننا أن نميز أصحاب الرءوس الطويلة ذوات الأنوف الضيقة الدقيقة ، ولكن قامتهم من الطول بحيث لا يوجد إلا عنصر واحد يمكن أن ينتسبوا إليه ألا وهو العنصر النوردى فى شمال أوروبا الذى يتمثل فى أنقى صورة له فى مقاطعة ايست أنجليا East Anglia وبعض أجزاء من اسكتلندة .

ونستطيع أن نقول ، فى شىء من الايجاز ، بأن مقاييس الصفات الجسمانية للعنصر النوردى فى شمال أوروبا من حيث طول القامة وشكل الرأس والنسبة الأنفية وشكل الوجه ، تقرب جداً من مثيلاتها بين جماعات البربر ذوات القامة الطويلة . وبدرجة لاتدع أدنى مجال للشك فى أن عنصر البربر مشتق من العنصر النوردي أو فى أن هؤلاء وأولئك من أصل واحد .

ولعل هذا التعرف يميط لنا اللثام عن أصل البربر الشقر ذوى العيون الفاتحة اللون ممن سبق أن وصفنا فى جبال أوراس بالجزائر ، فهؤلاء ليسوا فى الواقع سوى مجموعة تجرى فى عروق أفرادها الدماء النوردية النقية التى تعبر عنها تقاطيعهم الجسمانية أنت إحدى حقة . ولقد رأينا من قبل أن البربر ذوى البشرة الناصعة

البياض هم أصحاب القامة الأكثر طولا والذين تقرب النسبة الرأسية عندهم نسبتها عند الجنس النوردى ، وتلك حقيقة تدعمها الدراسة المقارنة بين البربر وبعض العناصر الأخرى التى تجرى فى عروقها الدماء النوردية كما هو واضح فى الجدول الآتى الذى يتضمن بعض المقاييس المأخـــوذة عن أبحاث « برت لون » وشانتر "Bertholon & Chantr" :

العناصر	النسبة الرأسية	النسبة الأنفية	طول القامة بالبوصة
البربر الشماليون ذوو العيون الزرقاء والبشرة البيضاء .	٧٤,٢	٦٦,٥٤	٦٧
فرنسيون ذوو رءوس طويلة وعيون زرقاء .	٧٥,١٣	٦٧,٦٧	٦٧
سويديون .	٧٥	٦٧,٥	٦٧

أما تاريخ العنصر النوردى شمال إفريقية فأمر غير معروف ، ولكن قدم هذا التاريخ نسبياً أمر قد برهنت عليه الرسوم التى وجدت فى إحدى المقابر الفرعونية بمصر التى ترجع فى تاريخها إلى عصر الدولة الحديثة . فهذه الرسوم تصور الليبيين ذوى بشرة فاتحة اللون ، وعيون خضراء وشعر أشقر ، وبصرف النظر عن أهمية هذه الرسوم فى حدذاتها فإنها ذات أهمية كبرى من الناحية الأركيولوجية فهى تضع حداً لتلك الأسطورة غير المقبولة التى تجعل البربر الشقر أحفاد قبائل الفندال الذين غزوا شمال إفريقية فى القرن الخامس الميلادى .

أما مشكلة المجموعة الثالثة (حـ) من ذوى الرءوس المستد... فى

أو القصيرة فهى أقل سهولة . . فالرأى الذى يقول بأن هـؤلاء ينتمون إلى سلالة أصحاب الرءوس العريضة ذات القامة القصيرة الضاربين فى جنوب الجزيرة العربية ، رأى يحمل فى طيـــاته صعوبات تتعلق بعظم انتشار هـذا العنصر وتشتته ، وإنما يمكننا أن نقول فى شىء من الاطمئنان بأن نسبة كبيرة من الجماعات التى غزت اسبانيا ووفدت إليها من شمال إفريقيـة — ثم ردت على أعقابها فيما بعد — هذه الجماعات كانت تنتمى فى نشأتها إلى جنوب الجزيرة العربية ، ولعل هذا يفسر لنا ذلك التوزيع الواسع الانتشار لأصحاب الرءوس المستعرضة بين جماعات البربر .

وعلى الرغم من أن برثلون وزميله شانتر . قد لاحظا أن جماجم البربر من نوع الرءوس العريضة ، ليست من الاستدارة بدرجة اســـتدارة رءوس الأوربيين من الجنس الالبى ، وأن مؤخرة الرأس يغلب عليها الاستواء وبالجملة فمظهر جماجم البربر تشبه جماجم أهل الأناضول من أصحاب الرءوس العريضة أكثر مما يشبه العنصر الألبى فى أوربا .. على الرغم من ذلك كله ، فإنا نلاحظ أن نسبة كبيرة من أصحاب الرءوس العريضة ذوى القامة القصيرة فى شمال افريقية إنما ينتمون فى صفاتهم الجسدية إلى العنصر الألبى أكثر مما ينتمون إلى الجماعات التى تسكن شبه جزيرة الأناضول .

وإذا نحن حاولنا أن ننتهى إلى رأى فيجب ألا نفترض أن المؤثرات فى الأقاليم الداخلية الجبلية كانت مماثلة لتلك المؤثرات فى الأقاليم الساحلية وينبغى ألا يغرب عن أذهاننا أن التأثير الذى طبع هذه الجهات منذ القرن الخامس عشر الميلادى ومابعد ذلك، إنما يرجع إلى القراصنة البربر الذين ينتمون فى الغالب إلى شرقى البحر المتوسط، فقد اتخذوا من ساحل شمال افريقيا وطناً لهم . وعلى الرغم من أنهم تعرضوا لغزوات الدول المسيحية خلال العصور الوسطى فإنهم لم يتشتتوا أبداً . أضف إلى ذلك أن جزيرة «جربا» وهى إحدى المراكز الهامة لأصحاب الرءوس المستديرة، كانت إحدى حصونهم الرئيسية، فمن المستحسن إذاً أن ننظر إلى أصحاب

الرءوس العريضة فى الأقاليم الساحلية على أنهم ينتمون فى نشأتهم إلى شرقى البحر المتوسط ولعل هذا يفسر لنا استواء مؤخرة رءوسهم وارتفاع جماجمهم. أما ذوو الرءوس العريضة فى الأقاليم الداخلية فمن المحتمل أننا هنا على الأقل أمام بقايا موجة انتظمت جماعة تنتمى إلى الجنس الألبى كجماعات الكلت التى دخلت اليونان حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد.

أما جماعة جوانش Guanche المنقرضة فى جزر كناريا فإنه يبدو فيها الكثير من الدماء المختلطة ـ كشأن أقرانهم البربر ـ فى القامة نفسها وتدل بقايا هذه الجماعة على وجود بعض أفراد منها طوال القامة، والبعض الآخر شقر طوال الرءوس قصار القامة، وبعضهم ذوو رءوس متوسطة، وبجانب هذا كله تبدو آثار عنصر عريض الرأس يشبه تماما الجنس الألبى فى أوربا الوسطى.

والبربر زراع مهرة كما أنهم مهرة فى العمل بالبساتين كما يوجد بينهم عدد غير قليل يحترف الرعى وبعض هؤلاء الرعاة يتبعون نظام الهجرة الفصلية إذ ينتقلون بقطعانهم بين أقاليم معينة تختلف فيما بينها فى ظروفها المناخية كما تختلف فى تضاريسها من الأراضى المنخفضة إلى الأراضى الجبلية العالية المطلة على البحر المتوسط وتنتظم الهجرة رحلتين، رحلة الصيف ورحلة الشتاء التى تقطع فيها القبائل مئات الأميال فى أطلس الوسطى بعيداً عن مواطنها حتى أصبحوا فى الواقع رعاة حقيقيين.

ويختلف التنظيم الاجتماعى لجماعات البربر عنه عند جماعات العرب البدو فهو فى جوهره نظام ديمقراطى يتلائم مع حياة البربر المستقرين بينما يتسم التنظيم الاجتماعى عند العرب بطابع النظام الأرستقراطى الذى يتمشى مع حياة البدو وعلى الرغم من أن هذا التباين حقيق ويصدق على القسم الأكبر من جماعات البربر، فينبغى أن نقرر بأنه تعميم غير مطلق ففى أقاليم البربر يوجد عرب مستقرون كما يوجد فى الوقت نفسه بعض البربر المتنقلين وكذلك من الصعوبة بمكان أن نقرر فى الحالات التى لا يبدو فيها عنصر العرب أو عنصر

البربر واضحاً بجلاء ، عما إذا كان القوم بربر متعربين أم أنهم عرب متبربرون .
وبعض الحالات التي يشوبها الغموض يمكن البت فيها على أساس التوزيع الجغرافي من حيث أن العرب يمثلون نسبة مئوية من السكان تأخذ في التناقص كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب. ففي تونس حيث يبلغ عدد السكان من المسلمين ٢ مليون نسمة[1] نجد من بينهم عربا متبربرين يبلغ عددهم ما يقرب من نصف مليون ، وبربر أنقياء يبلغ عددهم حوالى مائة الف ويتجمع هؤلاء عادة في مجموعات منعزلة كجماعة عبادة في جزيرة جربا وجماعات أخرى في أقصى الجنوب. فإذا انتقلنا غربا إلى الجزائر ارتفعت نسبة البربر إذ نجد ٧٥٪ من مجموع السكان[2] بربر أو يتكلمون لغة البربر ؛ والباقون عرب أو عرب متبربرون بعض الشيء ، وفي تلال قبائل وجبال أوراس يقيم عدد من السكان يعتبرون من أنقى عناصر البربر على الإطلاق . . فإذا توغلنا غربا في أرض مراكش فإنا لا نكاد نجد أكثر من ٥ ٪ من السكان[3] ينتمون إلى العنصر العربي وحوالى ٥ ٪ آخرين عرب متبربرين ومن بين الـ ٩٠ ٪ الباقين من مجموع السكان نجد نسبة كبيرة مصبوغة بالمؤثرات العربية بصرف النظر عن دياناتهم .

---

(١) يربو عدد سكان تونس الآن على ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة ، وبها من الاجانب ، ٢٢٠ ألف من بينهم ١١٠ الف فرنسى ، و ٥٠ الف ايطالى

(٢) يسكن الجزائر الآن ما يقرب من ١٠ ملايين وبها قرابة مليون فرنسى يتركزون على السواحل .

(٣) مراكش : تنتظم ثلاث مناطق :

(أ) الريف : توجد في أقصى الشمال بالقرب من أسبانيا ويحتلها الاسبان ، وكانت تسمى مراكش الاسبانية سابقا أو الخليفية ويقيم المبعوث الاسبانى فى تطوان ، وبهذه المنطقة مليون نفس ، ١٠٠ الف أوروبى يهودى .

(ب) المنطقة الدولية (سابقا) : وبها ميناء طنجة وهى مفتاح لمراكش من الناحية الاوربية .

(جـ) مراكش الفرنسية (سابقا) : مساحتها ١٥٣ ألف ميل مربع أى أربعة أخماس مساحة فرنسا ، والسكان حوالى ١٠ مليون من بينهم ، ١٠٠ ألف يهودى ، ٢٠٠ الف أوروبى منهم ٧٧ ألف فرنسى . (المترجم)

وفيما يلى تصوير للتنظيم الاجتماعى لجماعة منطقة قبايل Kabyle ويمكن أن نتخذه نموذجا للتنظيم السياسى والاجتماعى لسائر شعوب البربر بصفة عامة عدا قبائل الطوارق.

لعل أهم خصائص تنظيم المجتمع وجود عدد كبير من المجتمعات المحلية التى تسير وفقاً للنظام الديمقراطى وكل منها مستقل عن الآخر تماما ويحكم بإدارة الجماعة .. والقرية هى وحدة التنظيم الادارى وتخول الحكم الذاتى كاملا ، وقد تتحد قريتان أو أكثر بروابط إدارية — ولا شأن لهذا الاتحاد بصلات القرابة ويتكون من هذا الارتباط وحدة أكبر هى القبيلة فاذا اتحدت جملة قبائل فانها تكون اتحادا تعاهدياً Confederation . وفى وقت الحرب يعين رئيس لكل قبيلة وآخر للاتحاد . وفى أوقات السلم لا يتدخل الاتحاد البتة فى شأن أى من القبائل مالم تطلب القبيلة ذلك بصورة مباشرة ، وبالمثل فان القبيلة لا تتدخل فى شئون الحكومات المحلية للقرى التابعة لها وإنما تمارس القبيلة نوعا من الواجبات الإدارية كانشاء الطرق أو إدارة المرافق العامة كالمساجد أو مقابر الأولياء أو المؤسسات التعليمية مع فرض الضرائب الضرورية للانفاق عليها ، كما أن القبيلة تقرر مسائل الحرب والسلم وتفصل فى المنازعات التى قد تحـــدث بين القرى بعضها والبعض الآخر ولا يشغل مندوبو القرى وظائف دائمة محددة وإنما لكل قرية الحق فى أن ترسل عدداً غير محدد من المندوبين فى مجلس القبيلة .

وتتركز سلطة الحكومة فى القرية فيما يسمونه « مجلس الجمعية » وتتكون من الجمعية العامة للمواطنين التى تنتظم كل راشد عضواً فيها وتجتمع مرة واحدة كل أسبوع ، ولكل عضو من الناحية النظرية الحق فى أن يتكلم بينما لا يمارس هذا الحق من الناحية العملية سوى كبار السن ورؤساء العائلات . . وفى تقرير المسائل الهامة يشترط إجماع الآراء فإذا أخفق مجلس الجمعية فى الوصول إلى قرار ، ففى هذه الحالة قد يرجع إلى مجلس الجمعية فى قرية أخرى أو إلى قاض يفصل فى الأمر . . وتتغلغل سلطات الجماعة فى كل أمر كبر شأنه أم صغر

مادام يخص القرية ، فهى تمارس السلطة القضائية فى القضـايا المدنية والجنائية وإن كانت القضايا الجنائية قد غدت من اختصاص الحكومة المركزية ، كما أن للجماعة الحق فى أن تتدخل فى حياة الأفراد الخاصة .

وتختار الجماعة الرئيس أو « الأمين » ليتولى سلطات الحكومة ويقوم بتنفيذ قراراتها ، ولمـا كان الأمين يمثل السلطة التنفيذية الوحيدة فى حكومة القرية ، فان واجباته شاملة متنوعة ، غير أنه باستثناء بعض المسـائل البسيطة المتعلقة بحفظ النظام ، فان الأمين لا يستطيع التصرف من تلقاء نفسه ولا يمكنه أن يقرر أى عمل دون استشارة الجماعة . . ويتم اختيار الأمين بواسـطة الشخصيات من أصحاب النفوذ فى القرية ومن ثم تقر الجماعة هذا الاختيـار ، والأمين فى العادة يكون عضواً فى إحدى الأسر البارزة إذ على الرغم من أن أى شخص يمكنه أن يتولى منصب الأمانة فى قريته ، إلا أن مهام المنصب فى الواقع تحتم أن يكون الأمين من بين الأثرياء وأن يجد سنداً من إحدى الجمعيات الاجتماعية المعروفة بإسم « الصف » حتى يمكنه ممارسة سلطته ، ويساعد الأمين فى عمله مساعدون يختارهم هو ويناط بهم الإشراف على أقسام القرية المختلفة وينهون إلى الأمين كل مايجرى من أمور فيها .

والتماسك بين سكان القرية ظاهرة تسترعى النظر فى حياة أهلهاويتجلى هذا التعاون فى أن أهل القرية يقدمون المساعدة لكل عضو فيها وقت الحاجة فى موسم الحصاد أوفى أعمال الحقل وإذا شرع أحدهم فى بناء منزل فانه يستطيع أن يطلب مساعدة أهل قريته وتقدم هده المساعدة وفقاً لخطة وقواعد مرسومة .. وتسد حاجات الفقراء عن طريق الدخل العام لأهل القرية . فوحدة المجتمع ليست الفرد وإنمـا الأسرة ، والروابط الأسرية من القوة بحيث أن ممتلكات الأسرة كثيراً ماتترك دون تقسيم بين أفرادها وإنما يقتسمون ريعها بطريقة إشـتراكية .

وما دامت القرية هى وحدة التنظيم الإدارى بهذا الشكل الذى صورنا فهى

تبدو مستقلة تماما وكأنها فى عزلة عن سائر القرى الأخرى ولكنها ترتبط فى الواقع بالقرى المجاورة عن طريق هيئات أوجمعيات يطلق عليها إسم « الصف » وهى بمثابة هيئة شعارها الأخوة والمساعدة المتبادلة ، والمألوف أن ينتظم أفراد كل قرية فى هيئتين متقابلتين من هذا النوع ، ولما كان من النادر أن يتساوى كل منهما من الناحية العددية فالعادة أن ترتبط كل هيئة بهيئات الاخوان المماثلة فى فى القرى المجاورة حتى ليمتد تشعب الهيئة الواحدة فى مناطق بأجمعها .

وحقوق الهيئة تعلو المصالح الشخصية جميعها فى القرية لدرجة أنه قد يضحى بالروابط الأسرية إذا تعرضت مصالح الهيئة لخطر ما ، والفرد إذا كان عضوا هيئة قوية من هذه الهيئات فانه يستطيع أن يشعر بأمان على نفسه من ثأر أى فرد آخر بل إنه يأمن على نفسه من قصاص العدالة ويساعده فى ذلك إخوانه أعضاء الهيئة بكل الوسائل الممكنة من شهادة الزور إلى قتل الخصم . . ولكن بالرغم من ولاء الفرد لهيئة الإخوان التى ينتمى إليها فإن ولاءه للجماعة الكبرى « القبائل » تمليه عليه دوافع نفسه الداخلية ، فهو لا يكاد يفكر فى أن يتحول بمشاعره من الجماعة التى ينتمى إليها أصلا إلى الجماعة الأخرى مهما كان شعوره بأنه سيكسب كثيراً من وراء هذا التحول .، والحق أن عاطفة الولاء نحو هيئة الاخوان تأخذ فى الضعف فيما وراء القرية التى ينتمى إليها الفرد . . . ثم أنه فى حالة نشوب حرب أهلية بين الجماعات تهب الهيئة لمساعدة سائر الأعضاء التى ينتمى إليها من قريب أو بعيد وتمدهم بالمال والعتاد وتغمر اللاجئين منهم بالكرم . ولكن على الرغم من ذلك فإن الهيئة تتطلع إلى مقابل مادى فى نظير ماعسى أن ترسله من عون من رجال مسلحين . . أما زعماء جمعيات الاخوان هذه فهم فى العادة من « العائلات» الثرية ذات النفوذ وإليهم يعهد القوم بتنظيم المخصصات المالية التى يسهم بها الأعضاء فى صورة اشتراكات أو تبرعات وينفقون منها مبالغ ضخمة على الخدمات السرية دون أن يطالبوا بتقـــديم حساب عنها .

والبربر بصفة عامة مهرة فى الصناعات اليدوية ولمنتجـاتهم خصائصها التى

تميزها عن صناعات غيرهم من الشعوب . . . وفى هندسة التصميم يستخدمون الخطوط المستقيمة وفى الزخرفة تبرز عندهم الأشكال الهندسية ذات الزوايا القائمة وهى تقابل فى وضوح الرسوم والأشكال فى الفن العربى . . . وتتميز مساجد البربر بمآذنها المربعة وأحياناً السداسية الشكل وهى فى ذلك تختلف اختلافا بيناً عن المآذن ذات الشكل المستدير المألوف فى وادى النيل ، وبعض المآذن المغربية ذات شهرة عالمية كتلك القائمة فى مدينة مراكش أو أشبيليه باسبانيا .. ويستثنى من ذلك أضرحة الأولياء حيث تقوم عليها القباب العربية ذات الأبراج المستديرة ، أو ذات الجوانب الثمانية التى أخذها البربر عن العرب ، هذا فضلا عما أخذوه عنهم من استخدام الأقواس التى تعلو مداخل المبانى فى اطار من خطوط مستقيمة ولعل الفخار عند البربر ، كما يمثله فخار بلاد الجزائر ، من أكثر أنواع الفخار تميزاً بخصائصه . وقد نال من عناية الدارسين أكثر مما ناله سائر الفخار فى أى جزء من أجزاء القارة الإفريقية (فيما عدا وادى النيل) ولا يعنى كلامنا هذا أن فخار المغرب جميل أخاذ اجتذب الباحثين إليه أكثر من غيره ، وإنما ترجع أهميته إلى الرأى القائل بأنه قريب الشبه من الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى مصر فى عصر ماقبل الأسرات . وإذا نحن صرفنا النظر عن مناقشة هذا الرأى — مما لامحل له هنا الآن — فإنا نستطيع أن نقول فى شىء من الاطمئنان بأن فخار القبائل ببلاد المغرب يحمل فى خصائصه شبهاً كافياً لفخار المصريين الأوائل ، ويتمشى هذا الرأى جنباً لجنب مع استمرار بقاء الخصائص الجسمانية بعنصر المصريين الأوائل فى شعوب البربر .

فإذا انتقلنا إلى الفنون الصغيرة وجدنا صناعة المجوهرات من الفضة — وبوجه خاص فى إقليم جبال أوراس بالجزائر — تتميز بخصائص معينة وعلى شىء من جمال المنظر خصوصاً عند تطعيمها بالمرجان أو طلاء الميناء ... أما أشغال التطريز والنسيج فيظهر أنها ترجع إلى حد كبير إلى المؤثرات العربية ولكن حتى فى هذا المجال ، لا تزال بعض مدارس البربر تحتفظ بطابعها الخاص فى فنون الرسم .

وعلى الرغم من أن دراسة النظريات التى تتناول المعتقدات الإسلامية تقع خارج نطاق بحثنا هذا ، فإن حياة شعوب شمال إفريقية قد تأثرت بمظهرين من مظاهر هذه المعتقدات الإسلاميه فمن غير المناسب إذاً ألا نخص كلا منهما بإشارة بسيطة . . وأول هذين المظهرين نظرية « البركة » الشائعة بين العرب والبربر على السواء فهى توجد حيثما يوجد الإسلام ، ولكن نظراً لأن هذا المعتقد قد تطور عند البربر بشكل أغرقوا فيه ، فقد رأينا أن نعالجه فى هذا الفصل . . أما المظهر الثانى فهو خاص بالطرق الدينية وسنرجىء الحديث عنه إلى الفصل العاشر عند الكلام عن العرب لأن أهمية هذا المظهر وتطوره يبرز عند العرب فى صورة أوضح .

إن كلمة « بركة » معناها الحرفى فى لغة العرب « النعمة » ولكن يقصد بهذا اللفظ فى شمال إفريقية قوة خارقة للعادة فهى فضيلة مباركة ينعم بها من عند الله وهى فى معناها هذا تقرب جداً من اللفظ الانجليزية التى معناها « القداسة » . . وعلى ذلك فالاصطلاح بالنسبة لمن منحه الله بركة لدرجة استثنائية ، يمكن أن يترجم بلفظة « قديس » . ويعتقد أهالى شمال إفريقية أن جزءاً من بركة الرسول قد انتقلت إلى أحفاده الأشراف من نسل ابنته (السيدة) فاطمة . . وفيما عدا هؤلاء الأشراف فأصحاب البركة العاديون هم الأبطال ممن استشهدوا فى سبيل الإسلام .

أما أولياء الله المحليون فإنهم يدينون ببركاتهم إما إلى أنسابهم أو إلى شهرة اكتسبوها بسبب ما أتوا من أعمال خارقة أثناء حياتهم . وهناك طائفة أخرى قد منح أفرادها قدراً كبيراً من البركة ، وهم وإن كانوا أقل منزلة من الأشراف فإنهم يكونون بدورهم أرستقراطية دينية ويطلق عليهم « المرابطون » ، ولفظة مرابط تسمع فى كل أرجاء شمال إفريقية ، ويعنى بها الرجل المقدس « ولى الله » ، ومن خصائص البركة أنها فضيلة قابلة للتحول والانتقال من شخص إلى آخر ، ولعل أهم الوسائل وأقواها أثراً فى انتقالها أن يبصق ولى الله فى فم من يشاء

أن يمنحه البركة[١] ويمكن أن تتحقق النتيجة ذاتها ، إذا تناول ولى الله الطعام مع الشخص الذى يريد أن يمنحه إياه بركته وذلك قبل أن يفترقا ، وفى هذه الحالة ينطق ولى الله بعبارات تقليدية يمنحه بها بركته .

ومن المظاهر المادية للبركة ، وذات الأهمية الاجتماعية فى حياة الناس تلك المعابد والزوايا التى تقام حول مزارات الأولياء فلا يلفت النظر هناك أكثر من هذه المعابد ، ولا يقتصر المزار على الجدران الملاصقة له بل يشمل المساحة كلها الواقعة بين سلسلة من الشواهد الحجرية التى تقام فى العادة على بقع يرى منها المزار . ويعتقد القوم أن أى شخص يستطيع رؤية قبة مسجد هذا الولى أو ذاك فإنه يستظل بحمايته ويأمن على نفسه من أى اضطهاد قد يقع عليه . . وتحوى تلك المزارات عادة قبور الأولياء الصالحين وهى من أجل ذلك مقدسة عندهم يقسم بها القوم أقساما مغلظة .

والخوارق التى تحدث فى مزارات الأولياء غير محدودة ، ومن الأمور التى لا تحتاج إلى تأكيد أن البركة شديدة الحساسية بالمؤثرات الخارجية التى قد تدنسها أو تضعف قوتها .. وقد قيل إن أحد العوامل التى كانت سببا فى أن يفقد السلطان عبد العزيز نعمة «البركة» كثرة تردد الاوروبيين على بلاطه .

ومن شعوب البربر قبائل الطوارق ويعرفون عند العرب باسم «الملثمين» وهم يسكنون الصحراء ويمتد توزيعهم من توات Tuat إلى تمبكتو ومن فزان Fezzan إلى زندر Zinder على بعد ٣٠٠ ميل تقريباً غربى بحيرة تشاد . وينتظم الطوارق عـــدداً من القبائل أو الاتحادات القبلية ولكنهم جميعاً

---

(١) من عادة سلجمان مؤلف هذا الكتاب عندما يتعرض لبعض مظاهر الحياة الاسلامية ، أن يصور الأمور دون تمحيص جدى ويأخذها مأخذا سطحيا . (المترجم)

يتكلمون لغة واحدة تسمى لغـة تماجغ Temajigh كما أن لهم نوعا خاصا من الـكتابة .. وأقسام الطوارق الرئيسية هى :

طوارق حجار Ahaggar وطوارق عسكر Asger ولعلهم أنقى عناصرهم جميعا ، وطوارق الهـــواء The people of Air أوكما يسمون فى الحوصة طوارق عسبناوا Asbenawa واللفظ مشتق من كلمة Asben أى الهواء بلغـة السودان .. ثم طوارق الجنوب الغـربى ويشتملون على طوارق عفـوغاس Ifoghas وطوارق « علم ميـــدان » Aulim Midan ومن إليهم من طوارق النيجر وتمبـكتو .

ولـكل مجموعة من هذه المجموعات رئيس أعلى يسمى عمينوكال Amenokal ينتخبه قادة القبائل التى تنتظمها المجموعة .. ورئيس طوارق الهواء هو سلطان أغادس وسلطات الرئيس محدودة فى العادة كما أن حقه فى منصبه مزعزع كذلك وعلى الرغم من أن نظام الوراثة لا يتبع على وجه دقيق فالمعتاد أن يخلف ابن الأخت رئيس القبيلة فى منصبه .

وتقسم قبائل الطوارق على أساس طبقى إلى فئتين متميزتين هما قبائل السادة النبلاء وقبائل التابعين الموالين ، وزعيم أى من قبائل النبلاء هو القائد فى الحرب والقوام على العدالة فى أوقات السلم ، كما أنه فى مجلس رؤساء العشائر يمارس سلطته على قبائل التابعين التى قد تـكون متحدة مع قبيلته ، وذلك عن طريق رؤساء هذه القبائل الخاضعين لسلطانه ، ويلاحظ أن بعض القبائل التابعة هذه ، تتمتع بالثراء والاحترام وعلى الرغم من أنها لا تستطيع أن تغير من وضعها الاجتماعى وعليها مساعدة سادتها من قبائل النبلاء فى أوقات الحرب ، فهى لا تعتبر بأى حال من الأحوال ملكا لهؤلاء السادة النبلاء . ولا يفترض أن يؤدى أفرادها أى عمل من الأعمال الحقيرة لسادتهم فالأعمال والالتزامات تفرض على الجميع دون تمييز . وكلا الفئتين يمتلك الرقيق ومن بين هؤلاء محترفو الموسيقى الذين ينظر إليهم نظرة وضيعة ، والواقع أن الرقيق يكونون طبقة اجتماعية

ثالثة ويصنفون إلى فئتين: رقيق المنازل ورقيق خارج المنازل وهؤلاء يعتبرون من طبقة أعلى من نظرائهم رقيق المنازل وذلك على الرغم من أن كلا الفئتين يمكن أن ترتفع — خلال بضعة أجيال — إلى مرتبة القبائل التابعة . ويقدر مركز الرجل فى الطوارق بالطبقة التى تنتمى إليها أمه فإذا حدث وتزوج رجل من قبائل النبلاء زوجة من القبائل التابعة فإن أطفاله فى هذه الحالة ينسبون إلى طبقة القبائل التابعة ، وعلى الرغم من أن الانساب ترجع إلى الام فإن حكومة القبيلة تقوم على أساس النظام الأبوى وهو يشبه فى جوهره النظام الذى تسير عليه القبائل العربية مما سنأتى على ذكره فى الفصل العاشر من الكتاب .

واستعمال اللثام مظهر هام فى العشائر والطقوس ، وليس هناك فرد من الطوارق يشعر باحترام ذاته ويسمح لنفسه أن يراه حتى أقرب أصدقائه مكشوف الوجه ، يتساوى فى ذلك السادة والعبيد ، ويرتدى الطرقاوى هذا اللثام أثناء النهار وينام به أثناء الليل ولا يرفعه إلا عند تناول الطعام ولكنه حتى فى هذه الحالة يضع يده فوق فمه . ويتكون اللثام من شريحة طويلة من القماش ويلف حول الرأس مكوناً قلنسوة كما أنه يغطى الفم والأنف ، وفى اللثام شق مستطيل يبلغ عرضه حوالى بوصة عند فتحة العينين . . . وفى الشمال يتشح النبلاء لثاما أسود بينما يستعمل العبيد لثاما أبيض . . وعلى الرغم من أنه فى سن السادسة عشر أو السابعة عشر يبدأ شباب الطوارق فى حمل السيف ويضعون حول سواعدهم السوار الحجرى وينظر إليهم باعتبارهم أعضاء توفرت لهم مقومات العضوية الكاملة فى قبيلتهم أو قريتهم ، فإنهم لا يرتدون اللثام حتى يبلغ الواحد منهم سن الخامسة والعشرين تقريباً ويصحب ذلك إقامة الولائم وحفلات الطرب . .

ويتميز الطوارق بأنهم طوال القامة حيث يصل طول القامة بين طبقة النبلاء إلى ٦٩ بوصة ومن المؤكد أن هذا الرقم أعلى مما نجده عند طبقة التابعين والرقيق ، ومن خصائصهم كذلك أن عظامهم صغيرة وعضلاتهم ليست نامية بارزة ومع ذلك فإن

الطوارق يتميزون باحتمال المشاق البدنيه بشكل يثير الدهشة وهم يضحون فى سبيل اعتزازهم بأنفسهم واحتفاظهم برشاقتهم، وتبدو تقاطيعهم دقيقة والذقن مدببة فى وضوح ، والجبهة عريضة قليلة الانحدار ، والحواجب كثيفة ذات حافات بازة ، وعظام الوجنات تبرز بروزا خفيفاً والسحنة فى مجموعها حادة التقاطيع نوعا ، أما لون البشرة فأصفر مشرب بحمرة والعيون سوداء ، والشعر أسود مموج . . وطبقة النبلاء من الطوارق طوال الرأس فالنسبة الرأسية بينهم لا تتجاوز ٧٣ إلا قليلا ، وهذه النسبة أعلى قليلا من النسبة الرأسية فى المجموعات المختلطة وفضلا عن ذلك فعلى الرغم من وجود أفراد ذوى رءوس مستديرة أو تغلب على رءوسهم سمة الاستدارة ، فإنه يندر وجود هؤلاء ، ويمكننا أن نعتبر الطوارق أكثر شعوب الحاميين الشماليين ، من حيث طول الرأس . فالبربر الذين يقطنون بسكره Biskra والذين يلون هؤلاء فى طول الرأس ، يبلغ متوسط النسبة الرأسية بينهم أكثر من ٧٤ وتصل هذه النسبة فى المتوسط إلى ٧٧ تقريباً بين مئات من جماعات القبايل Kabyle فى الجزائر .

أما عن الأعداد المحدودة من ذوى الرءوس المستديرة بين الطوارق ، ففى ضوء ماسبق أن ذكرنا بشأن العناصر ذات الرءوس العريضة فى شمال أفريقية ، يبدو من المعقول أن نقرر بأنه فى هؤلاء الطوارق بعض بقايا وآثار من دمائهم على أنه ليس هنالك مايدل على حداثة هذه الآثار أو قدمها .

وعلى الرغم من عدم وجود اختلاف كبير بين طبقة التابعين وطبقة النبلاء فى شكل الرأس أو طول القامة أو فى لون الجلد أو شكل الشعر أو النسبة الأنفية إلا أنه يبدو فى تقاطيع التابعين نسبة أكبر من الدماء الزنجية وبوجه خاص فى الطبقات الدنيا منهم، وفضلا عن ذلك فلون بشرتهم أكثر سمرة وشعرهم قد يكون شديد التجعيد وتلك صفة لانجدها بين السادة النبلاء ، ومن سجاياهم أنهم يعشقون الحرية والاستقلال، ويبرز فيهم خلق الشجاعة والاندفاع والمروءة فى معاملة النساء ، هذا إلى ولعهم الشديد بالشعر والموسيقى . والطوارق رعاة أبل قبل كل شىء وإن كانوا يمتلكون قطعان الغنم والماعز . ومن مميزاتهم كذلك

أنهم شعب خفيف صبور وقد كانت لهم يوماً ما سمعة سيئة فى السلب والإغارة التى كان ينظر إليها على أنها رياضتهم الشعبية فكانوا يسطون على قرى العرب ، أو يغيرون على طرق التجارة فلم تكن القوافل تسلم من أذاهم مالم تدفع لهم المكوس مقابل مرورها بسلام أو فى مقابل حراستها أثناء رحلتها. ومن اسلحتهم الخاصة السيف والحربة والخنجر الذى يشد بحلقه إلى الذراع وهم لا يمارسون الصباغة أو الغزل أو النسج ، وتقوم نساؤهم بصنع الحصير وأشغال الجلد .

ومن عاداتهم عدم تعدد الزوجات وتتمتع المرأة فى قبائل الطوارق بمركز لا يعدله مركزها فى أى قطر من أقطار المسلمين إذ تحاط بقدر كبير من الكرامة والاحترام ويسمح لها بممارسة كامل حريتها كما أنها تسهم فى الحياة العامة ومجلس القبيلة وتبدو سافرة غير محجبة ، وتختلط بالرجال فى شتى المناسبات ؛ والمرأة تقوم بتعليم الأطفال فهى مستودع عملية التعليم والخبرة فى عرف الناس وقد أذهل الرحالة الكبير بن بطوطة ما رآه من الحرية التى منحها الطوارق لنسائهم فهو إذ يعلق على مركز المرأة عند الطوارق ، فانه يصف لنا كيف أنه قام بزيارة أحد أصدقائه الطوارق فوجده جالسا على بساط بينما جلست زوجته على متكأ وسط الدار تتبادل الحديث مع رجل يجلس بجوارها . قال ابن بطوطة : سألت صديقى الطرقاوى « أبو محمد » من تكون هذه السيدة ؟ فأجاب « إنها زوجتى » « ومن يكون هذا الرجل الذى يجلس معها ؟ » « إنه صديقها » « وهل أنت راض عن هذه الحال يامن قضيت شطراً من حياتك فى بلادنا وتعرف جيدا وصايا كتاب الله ؟ » فأجاب صديقى « إن علاقات النساء بالرجال فى بلادنا هذه علاقات طيبة وسليمة ، إنها علاقات قديمة وشريفة وهى فوق مثار الشبهات ، وفضلا عن ذلك فإن نساءنا لسن كنساء بلادكم » ويضيف ابن بطوطة قائلا « لقد دهشت من حماقة هذا الصديق وتركت داره إلى غير عودة ... »

وقد لخص أحد الرحالة المحدثين مركز المرأة عند الطوارق بأن اقتبس مثلهم الذى يقول « إن العلاقة المتبادلة بين الرجل والمرأة ليست لغرض الفراش

فحسب بل انها للعين والقلب » . وتشير كثرة استعمال الصليب فى الزينة والزخرفة عندهم باستمرار ، لأثرمسيحى غابر فالطوارق اليوم مسلمون وان كان ثمة شىء من التهاون فى رعاية شئون الدين وكما هو الحال عند سائر المسلمين يعتقد الطوارق فى عالم الأرواح ، ومن الأمور الذائعة بينهم أنه تحت سطح الأرض تسكن الصحراء طبقة من المخلوقات الخارقة للطبيعة ، وهى ولعة بأن تلعب فى مرح خبيث على كل عابر سبيل كما يعزى الطوارق كل ظاهرة يتعذر تفسيرها إلى قوى خفية ، وإلى صوت الجن يعزون ما قد يسمع فى سكون الليل من أصوات غامضة فى أرجاء الصحراء كأنها العويل أو قرع الطبول .

وللطوارق دون سائر شعوب شمال إفريقية كتابة خاصة بهم وأحرفها ليست عربية وتسمى كتابة « تى افيناج Tifinagh » وقد أبرز الأستاذان ايفانز وبترى أن هذه الكتابة تمثل نظامافريدا عرف فى مصر وكريت فى الشرق وفى أسبانيا فى الغرب ، وهذه الكتابة ذات أحرف هجائية وليست مقطعية ولكن نظراً للاختصارات التى طرأت عليها وخلوها من الحروف المتحركة فيما عدا الحرف A فهى تبدو شبه مقطعية وأصبحت تشبه نوعا الاختزال .

وتتراوح أحرف هذه الكتابة من ٢٠ إلى ٣٠ رمزاً وتختلف من منطقة إلى أخرى وذلك بالاضافة إلى ما يقرب من ١٢ أداة للوصل ، وتتكون كل أداة من ثلاثة أحرف . . وعند معظم قبائل الطوارق فى الوقت الحاضر تكاد تكون معرفة هذه اللغة مقصورة فقط على كبارالسن من النساء وكذا عدد قليل من الرجال فعلى الرغم من أن نساء الطوارق جميعهن كن يعرفن الكتابة ويقمن بتعليم أطفالهن فى الأزمنة الغابرة فإن الأمية تنتشر بين أبناء الجيل الحديث ولعل قبيلة الإيفاديين Ifadeyen وهى من أقدم وأنقى طوارق الهواء ، هى القبيلة الوحيدة التى لازالت تلم بلغة الطوارق وتعرفها قراءة وكتابة .. أما رجال الدين والكتبه فإنهم يستخدمون عادة اللغة العربية ، وعلى الرغم مما هومعروف عن هذه الكتابة بأنها كتابة الطوارق دون سواهم — ويؤيد ذلك أنها متطورة بينهم — فإن هذا لايعنى أكثر من أنهم احتفظوا باستعمالها حتى وقتنا الحاضر

فقد وجدت هذه الكتابة بعيداً عن بلاد الطوارق وفى منطقة واسعة فى شمال أفريقية حيث لم يكن هناك طوارق البتة بل وحيث يجب أن ينظر إليها على اعتبار أنها لغة حامية أو ليبية بالمعنى الواسع ، فالواقع أن أحرف هذه الكتابة معروفة بوجه خاص فى الإقليم الساحلى من القطاع الشرقى للجزائر .

التبـــو TIBU

يسكن التبو هضبة تبستى Tibesti ومنها اشتق اسمهم « تى ــ بو » Ti-bu ومعناها « شعب الصخر » وكانوا فيما مضى يحتلون واحـــة الكفرة حتى طردهم منها السنوسيون . ويشغل التبو فى الوقت الحاضر قطاعين : شمالى وتسمى قبائله ، « تدا » Teda وجنوبى وتسمى قبائله « دازا » Daza وعن طريق هؤلاء اندمج التبو تدريجياً فى الشعوب أشباه الزنوج الضاربة فى السودان الأوسط ، وهذا الامتزاج بالشعوب السوداء يرجع إلى عصور قديمة أما التبو الأصليون فى القطاع الشمالى فهم من البربر الأصليين . وعلى الرغم من أن قوام رجال التبو أغلظ من قوام نظرائهم من الطوارق ، فإن قوام نسائهم يوصف غالباً بأنه أدق قوام فى افريقيه قاطبة ولقـــد كان التبو فيما مضى ذوى بأس شديد حتى أنهم فى القرن السادس عشر كانوا يؤلفون نسبة كبيرة من القوى العسكرية لملكة كانم Kanem . . ومن أسلحتهم المستعملة السكين الراشقة ، وكان التبو إلى عهد قريب فى عداء مع جيرانهم الطوارق .. وقد اعتنقوا الاسلام خلال القرن الثامن عشر وعلى الرغم من ذلك فلا يزال عدد كبير منهم يمارس الطقوس الدينية ، ومن أمثلة ذلك ما يفعله أفراد قبيلة بعلى Baele أثناء الصلاة التى يرفعونها إلى الكائن الأعظم يدو Yido حيث ينثرون الدقيق ودم شاة ، يضحى بها ، على حجر مقدس .

الفـــولا FULA

توجد قبائل الفولا Fula أو كما تسمى فولانى Fulani أو فيلانى Filani الفلاتا Fellata أو فولبى Fullbe ، مبعثرة فى أرجاء شمال أفريقية من أعالى

نهر النيجر حتى نهر السنغال والفولا إما رعاة مسالمون متنقلون ، واما أنهم يعيشون مستقرين بين شعوب غريبة عنهم كطبقة حاكمة حيث يكونون القوة السياسية المتسلطة فى نيجريا الشمالية حيث يبلغ عددهم نحو مليونين ويحتشدون بصفة خاصة فى مديريات سوكوتو Sokoto وكانو Kano وأدموا Adamawa التى كانت تسمى فيما مضى يولا Yola . وعلى الرغم مما يذكره كثير من الكتاب من أن الفولا من أصل سامى إلا أنه يجب أن تنظر إليهم على أنهم فرع من مجموعة الحاميين الشماليين أخذوا ينشرون نفوذهم فى السودان الغربى وأعالى وأعالى السنغال أثناء قيام أمبراطورية غانة Ghana Empire ومن ثم شقوا طريقهم إلى نيجريا الشمالية فى أواخر القرن الثالث عشر .

ويبدأ تسلطهم على هذا الاقليم منذ عام ١٨٠٤ عندما نشبت الثورة بين قبائل الفولا المسلمين ومن إليهم من القبائل التى اعتنقت الاسلام من قبل ،ضد الجماعات الوثنية التى كانت من بينها طبقة الحكام فى تلك البقاع ، وقد أعلنها المسلمون حرباً مقدسة واختاروا عثمان دان فوديو Osman Dan Fodio الذى الذى ينتمى إلى عشيرة تورنكاوا Toronkawa من الفولا ، زعيما لهم أو كما يسمونه ساركن مسلمى Sarkin Musulmi أى عاهل المسلمين ، واتخذ الزعيم عثمان مدينة سوكوتو عاصمة لملكه .. وماوافت نهاية عام ١٨١٠ حتى دعم الفولا نفوذهم على سائر ولايات الحوصة Hausa . وقسم الإقليم إلى أمارته الحالية التى خضعت كل منها لسلطة حاكم من حكام الفولا .

وفى القرن الذى سبق الغزو البريطانى أى فى أواخر القرن التاسع عشر اتسعت رقعة أمبراطورية الفولا فشملت المديريات الشمالية جميعها فيما عدا منطقة بورنو Bornu والأصقاع النائية التى كانت خاضعة للقبائل الوثنية . . غير أنه قبل الغزو البريطانى مباشرة كانت تبدو فى أرجاء الأمبراطورية علامات الضعف والانحلال .

وينقسم الفولا فى غرب افريقيـة فى الوقت الحاضر إلى قسمين : الفولا

رعاة الماشية ويمثلهم خير تمثيل قبائل أبورى Abore أو بورورو Bororo والفولا المستقرين أو كما يسمون فى الحوصة فولا الجيدا Gidda وجيدا معناها البيت (كناية عن الاستقرار) . . ويعتبر الفولا الرعاة أنقى العناصر التى تمثل الدماء الحامية فى نيجيريا ويتميزون بشعر مستقيم وأنف مستقيم كذلك ، وشفاة دقيقة ، ورءوس طويلة ، وقوام نحيل ، وبشرة سمراء مشربة بحمرة وتتميز نساؤهم بتقاطيعهن الجميلة وهيئتهن الرشيقة .

ومن خلق الفولا أنهم قوم محافظون متطرفون يرتابون فى الغير ، ومن سماتهم الخجل كما يقال إنهم أذكياء خبثاء لدرجة أنه لا يستطيع أى أفريقى أن يبزهم فى خلق الرياء والدهاء .

أما الفولا المستقرون فقد امتص الزنوج عناصرهم على وجه سريع عن طريق التزاوج الحر معهم والاتجار فى السرايا والمحظيات مع الشعوب التى قهروها مما يبرز أثره فى خشونة تقاطيعهم وبناء أجسادهم بصفة عامة ومما يبدو فى المظهر الشائع بينهم من الشعر المفلفل والفك البارز من تقاطيع الزنوج ، وبحكم كونهم مسلمين فانهم لا يتزاوجون من الفولا رعاة البقر الوثنيين . كما أنهم تخلوا عن كثير من العادات الذائعة التى لا يزال يتبعها هؤلاء فى حياتهم .

وهؤلاء الرعاة الذين يبلغ عددهم حوالى ٣٠٠ ألف يعتمدون فى معيشتهم على قطعان ماشيتهم التى لا تنحر مطلقاً لغرض الغذاء إلا فى مناسبات الاحتفالات ، فالمادة الرئيسية فى غذائهم هى اللبن ، ويشرب طازجا أو خامراً كلبن رائب ، ويمارس الرجال أو النساء العقيمات عمليات حلب الماشية وليست هناك مراسيم خاصة بهذه العملية عند الفولا . ولا تقتصر ملكيتهم على قطعان الماشية وحدها وكثيراً ما يعهد إليهم الفولا المستقرون وأثرياء الحوصة برعاية ماشيتهم فى مراعى الكلأ .

وتتوفر فى مضارب مساكنهم أو كما يسمونها روجا Ruga عامل الحماية والوقاية وتتكون من أنواع بدائية من نوع بيوت النحل تحوطها أسوار من

عصى ومسقوفة بأعشاب جافة ، وفى الليل تأوى قطعان الماشية إلى حظائرها المسورة بالأشواك ، وتربط بعضها إلى بعض أزواجاً أزواجاً بحيث تتجه رءوسها إلى جهات مختلفه . وتدرب الماشية على أن تنطلق وتنتشر فى مروجها عند سماعها كلمة أمر من راعيها أو بمجرد إشارة من مزماره . ويعتقد البورورو من قبائل الفولا أن منشأ الماشية فى بلادهم يرجع إلى روح كان يسكن الماء لم يلبث أن خرج من النهر ومعه اثنتان وعشرون بقرة قسمها بين أبنائه بواسطة إحدى النسوة يقال لها باجى مونجو Bajemengo وهؤلاء الأبناء هم فى اعتقادهم أسلاف قبيلتهم .

ويتكلم الفولا لغة فوفولدى Fufulde وهى على جانب كبير جداً من من الأهمية لفهم كثير من مشكلات اللغة فى قارة افريقية وبوجه خاص مشكلة طائفة الأسماء عند البانتو . ويرى الأستاذ موريس دلفوس Maurice Delafosse الثقة الكبير فى الدراسات الأفريقية ، يرى أن هذه اللغة فى الأصل لغة زنجية ، وعلى الرغم مما يجب أن نقيمه من وزن لوجهة نظره ، فان الرأى الحديث والأكثر احتمالا هو أن لغة فوفولدى هذه إنما تمثل نمطاً قديماً من الكلام أنبثقت منه سائر لغات الحاميين .. وإذا جاز لنا استعمال الاستعارة والتشبيه فى مجال اللغات وعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر فإنا نستطيع القول بأن لغة فوفولدى ليست من جيل لغات البربر أو الصومال ولا يمكن أن ننظر إليها فى الوقت نفسه باعتبار أن هذه وتلك أخوات لسان واحد وإنما الأوفق أن نعتبر الفوفولدى منتمية إلى جيل أقدم فهى « العمة » أو من الممكن أن تكون العمة الكبرى للغات البربر كما يقول الأستاذ فوتو .

ولعل أهم مايسترعى الانتباه فى تركيب لغة فوفولدى وجود إزدواج فى أقسام طوائف الأسماء . فالقسم الأول ينتظم طوائف أربعة من الأسماء هى الأشخاص والأشياء وأسماء الزيادة وأسماء التحقير ويشار إلى تمييز الجنس ، ذكوراً وأناثاً باستخدام بعض ألفاظ معينة ، والقسم الثانى ينتظم طوائف

أخرى من الأسماء يميز كل منها مقاطع تضاف إلى أواخرها وقد ميز بعض الباحثين من هذه المقاطع خمسة وثلاثين مقطعاً كما ميز آخرون عدداً أكبر من هذه المقاطع ، ويلاحظ أن لكل طائفة من هذه الأسماء ضمائرها المميزة التى لها صلة معروفة بهذه المقاطع الاضافية . وبينما يبدو فى لغة البانتو أن الكلمات والأشياء تكون خليطاً غير متجانس فى كل طائفة من الطوائف على حدة فانه فى لغة فوفولدى يبدو غرض التصنيف إلى طوائف أكثر وضوحا فكل طائفة تحوى أسماء لمجموعات متجانسة من الأشياء ، فالمقطع الإضافى am لازم للسوائل مثال ذلك لفظة أدام Adiam ومعناها ماء ، وكوزام Kosam ومعناها لبن والمقطع هى Hi لازم للأشجار والمقطع رى re للأشياء ذات الأعداد الضخمة ومن أمثلة ذلك ثمار نخيل الزيت والأرز الخ ... وفى ضوء التقسيم إلى طوائف وفى ضوء مفردات الكلمات عند البانتو وما لهذا التقسيم والمفردات من أهمية ووزن ، يرى السير هارى جونستون Sir Harry Johnston أن نشأة لغة البانتو يمكن أن تفسر على أساس أنها ترجع فى الأصل إلى لغة ما تشبه لغة الفولا كان يتكلم بها مجموعة متسلطة قوية ضمن مجموعات الشعوب الســـودانية وقد استوعبت مفردات تلك اللغة ثم انتظمت بقايا من تعبيرات وأفكار من لغة الفولا تشبثت بها مجموعة اللغات الجديدة التى يطلق عليها « لغات « البانتو » .

ومن الممكن أن نشير كذلك إلى أن لغة مبوجو Mbugu وهى إحدى اللغات السودانية شرق أفريقية قد استعارت من لغة البانتو مقاطعها ولكنها ليست لغة بانتو فى أصولها .

الفصل السابع

أنصاف الحاميين والنيليين

قدم الحاميون إلى إفريقية ، كما ذكرنا من قبل ، أو إذا نحن أخذنا بالفرض القائل بأنهم من أصل إفريقي ، قدموا إلى بلاد الزنوج على موجات متعاقبة .. وقد يرجع تاريخ أولى هذه الموجات فى القدم إلى نهاية العصر المطير .

والغرض الأساسى من هذا الفصل مناقشة بعض النتائج الرئيسية لاختلاط العنصر الحامى بالعنصر الزنجى ، والتعريف ببعض المجموعات الكبرى ذوات الدم الخليط التى تكونت نتيجة لغزواتهم .

إن كل هذه الشعوب المختلطة شعوب زنجية حامية أو زنجية امتزجت بالعنصر الحامى بالإضافة ولا شك إلى عنصر الأقزام هنا وهناك ، هذا بالرغم من أن بعض أفراد مجموعة البانتو يدخل فى عنصرهم قدر بسيط من الدم الحامى ، وليس فيهم إلا القليل من سمات الثقافة الحامية .. ويخيل إلينا أن التقسيم الآتى إلى مجموعات قد يكون أفضل تقسيم نصل فيه إلى مصطلحات تكون خيراً من من الموجودة حالياً وتؤدى إلى معرفة أدق من تلك التى أمكننا الحصول عليها حتى الآن . ومما ينبغى ملاحظته أننا نستخدم فى تعريف هذه المجموعات معايير مختلفة وأن اللغة تلعب دوراً كبيراً كأحد هذه المعايير نظراً إلى عدم توفر المقاييس الجسمانية ، كما يجب أن نلحظ كذلك أن هذا التصنيف ينتظم جميع الشعوب التى تسمى عادة بالزنوج فيما عدا العنصر الزنجى الأصيل فى غربى إفريقية ، وكذلك بعض الشعوب التى نستبعدها مؤقتاً لأن معلوماتنا عنها محدودة .

ويمكن أن نفهم كيف نشأت الشعوب الزنجية الحامية إذ نحن أدركنا أن الحاميين القادمين كانوا رعاة من العنصر القوقازى أتوا موجة فى إثر موجة وقد كانوا أحسن سلاحا ، وأكثر تكيفاً من الزنوج السود المشتغلين بالزراعة إذ لابد أن نذكر أنه لم يكن هناك عنصر برونزى فى إفريقية ، ولنا أن نعتقد أن الزنجى الذى نراه اليوم عاملا ماهراً فى أشغال الحديد قد تعلم هذا الفن عن الحاميين .

ومن الممكن أن نتصور تتابع الخطوات التى تمت بها عملية الامتزاج بين الزنوج والحاميين كما يلى : يأخذ الحاميون فى أول الأمر — أو السادة منهم على الأقل — فى التزاوج من نساء حاميات ، ولكن لايمضى وقت طويل حتى تظهر بعض الجماعات التى يمتزج فيها الدم الزنجى بالدم الحامى ، ثم تصل الموجة التالية من الحاميين فتنظر إلى هذا الشعب الخليط — الذى هو أرقى مرتبة من الزنجى الأصيل — نظرة احتقار ، ولا تلبث أن تطرده إلى بقاع أبعد داخل القارة حيث يقوم هؤلاء بدور السادة الجدد أمام الزنوج الذين هيمنوا هم عليهم . . ثم تتكرر هذه العملية على مدى طويل من الزمن ، مع حدوث بعض التغيرات الطفيفة . . وفى كل مرة يحدث أن يؤكد الرعاة تفوقهم على المزارعين الذين كانوا يميلون دائماً إلى ترك أسلوبهم فى الحياة مفضلين عليه الرعى أو على الأقل مفضلين أن يضموا الرعى إليه .

ويمكننا أن نرى النتيجة النهائية لسلسلة واحدة من عمليات الامتزاج هذه متمثلة فى شعب الزولو ، ونتيجة سلسلة أخرى متمثلة فى شعب الباغندا بينما نجد نتيجة أشد وضوحا فى شعب الباهيما فى أنكولى والباهيرا . . . والباهيما شعب أرستقراطى يمتلكون الماشية يتميزون بقامة طويلة وأنف ضيق ووجه مستطيل ، ولا يكادون يشبهون الزنوج فى شيء (وإن كان شعرهم كشعر الزنوج دائماً) حتى أن جونستون ظن حين رآهم لأول مرة أنهم جنود مصريون تركهم أمين باشا[١] وراءه .. ويسكن الباهيما فى بلاد قبائل الباهيرا الزنوج ويتميزون بوجوههم

(١) كان أمين باشا يشغل منصب حاكم مديرية خط الاستواء من قبل حكومة مصر حتى قيام الثورة المهدية بالسودان .

العريضة القصيرة وهم يمدون الباهيما بالحبوب ولا شك فى أنه حدث تزاوج بين الشعبين فالشعر الصوفى ملحوظ حتى بين سادة قبائل الباهيرا ، وإن كان يقال اليوم إن كلا الشعبين يعيش بعيداً عن الآخر .

هذه الأمثلة تعطى فكرة تقريبية عن النوع الذى لا حد له للجماعات التى تدخل فى نطاق الزنوج ممن امتزجوا بالعنصر الحامى حتى أن صعوبة التصنيف لاتدعو إلى الدهشة بل إن نتائج التصنيف لهـذه الجماعات أمر مشكوك فيه لدرجة أن المجموعات الرئيسية ذاتها يتداخل بعضها فى بعض بشكل يصعب تحديده ، ومن هنا يضطر الباحث إلى الاستعانة بالحقائق التى يسهل تحديدها ويجدها قائمة فى اللغة كأساس لتصنيف تلك الجماعات . فإذا لاحظنا هذا الاعتبار أمكننا أن تنظر إلى الأقسام التالية كتقسيمات أولية للعناصر الزنجيـة الحامية (أنظر شكل ٣ صفحة ١٤٣) :

١ ـ أنصاف الحاميين .
٢ ـ النيليون ويستعمل هذا الاصطلاح بمعناه الضيق الذى أشرنا إليه سلفا .
٣ ـ البـانتو .

وفى هذا الفصل سنصف باختصار أنصاف الحاميين والنيليين على أن نفرد الفصل الثامن لمجموعة البانتو الإفريقية الهائلة .

أنصـــاف الحاميين

ينحصر توزيع أنصاف الحاميين فى شرق إفريقية وشرق إفريقية الوسطى وهم بذلك يحتلون القسم الأكبر من مستعمرة كينيا ، وأراضى أوغندة التى تمتد شمالا حتى حدود السودان . كما يشغلون معظم القسم الشمالى من أراضى تنجانيقـا .

ولقد نشأوا كما ذكرنا من قبل نتيجة لاختلاط العنصر الحامى بالعنصر الزنجى ويجرى فى عروقهم كما يدل على ذلك اسمهم قدر كبير من الدماء الحامية



خريطة رقم (٣) - جماعات البانتو

وهى أكثر ولا شك مما يجرى فى دماء البانتو والنيلين . وينعكس أثر هذا الميل النسبي إلى العنصر الحامى الذى ورثوه عن أجدادهم ، فى لهجاتهم ومظهرهم وثقافتهم لجميعهم يتكلمون لغات حامية ، وبالرغم من أن بشرتهم قاتمة اللون فان تقاطيع وجوههم أميل إلى أن تكون شبيهة بالزنوج منها بوجوه الزنوج ويبدو الفرق واضحا فى الأنف على الأخص . . أما عن أسلوب حياتهم فهم رعاة والكثير من قبائلهم يعتمد اعتمادا كليا على قطعانه ومن ثم يعيشون حياة أشبه بحياة البدو الرحل التى تفرضها هذه الظروف . واذا تركنا عامل اللغة كمقياس ، وجدنا قبائل من البانتو تطابق حياتها فى صورة أو أخرى هذه الظروف التى أشرنا إليها الآن ومثال ذلك أن الكثيرمن البانتو الأكيكويو ليسوا أقرب شبها بالزنجى النقى من أنصاف الحاميين بيد أنهم من قبائل الناندى المستقرين فى حين نجد أنه من الممكن المقارنة على الأقل بين حياة الرعاة التى تحياها قبائل الباهيما (وهم من البانتو) وحياة الماساى من أنصاف الحاميين . ومن هنا وجب تعريف أنصاف الحاميين بأنهم يتكلمون لهجات حامية ، رعاة أشبه بالزنوج فى الغالب ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن أقصى امتداد لهم يبدأ من المنطقة المجاورة لبحيرة رودلف فى كنيا شمالا إلى خط عرض ٥ أو ٦ فى أرض تنجانيقا جنوبا .

وأهم قبائل أنصاف الحاميين هى : الماساى ، والناندى ، واللبوى ، والكيو (ويمكن اعتبار هاتين القبيلتين متفرعتين من الناندى) والسوك (وهم فرع من الناندى) والتوركانا والكاراموجونج ، ويحتمل أن نضيف إلى هذه الجماعات الديدنجا أيضاً والتوبو ثاوالايتيسو . . وتتميز هذه القبائل جميعاً بأنهم طوال القامة نوعا ، نحاف ، ورؤسهم طويلة (وان يكن هذا ليس بنسبة أشباه الزنوج-النيلين- المقيمين بوادى النيل الأيمن الذين يمكن تتبع صلة قرباهم بقبائل لوتوكو وبارى) ولهم رءوس طويلة أحيانا ، وأنوفهم — بل ملامحهم عموما — تبعد كثيرا عن أنوف الزنوج الأصليين وملامحهم — ومن الممكن أن نعتبر الماساى والناندى والسوك كقبائل تتمثل فيهم خصائص المجموعة وقد يرجع

ذلك إلى أننا لا نعرف إلا القليل عن القبائل الأخرى من أنصاف الحاميين .

ومن الناحية الجسمانية فلا تتميز هذه القبائل (حتى قبائل توركانا رغم ما تشتهر به من ضخامة الأجسام (بالقامة الطويلة فان متوسط قامتهم تتراوح بين ٦٦٫٢ ، ٦٧ بوصة والنسبة الرأسية الشائعة بين قبائل الماساى والناندى وتوركانا هى ٧٣ ، ٧٤ بيد أن السوك متوسطو النسبة الرأسية نوعا فهى تبلغ حوالى ٧٧ ومما يلحظ أن أنف الماساى أدق شكلا من أنوف سائر القبائل التى ذكرناها فالنسبة الأنفية بين هذه القبائل هى : الماساى ٧٦ ، والناندى والسوك ٨٤ ، ٨٥ والتوركانا ٩٠ . هذا بالاضافة إلى أن بشرة قبائل الماساى تفصح عن دمهم القوقازى إذ توصف بشرتهم بأنها مشربة باللون البنى الضارب إلى الحمرة .

واذا صرفنا النظر عن التغيرات الحديثة التى جاءت نتيجة للاستعمار الأوربى فان قبائل الماساى والتوركانا رعاة متنقلون كما كان سائر أجدادهم جميعاً فى أغلب الظن ؛ أما قبائل الناندى والسوك والايتيسو فانها حتى يومنا هذا قبائل مستقرة تعيش عيشة زراعية بالاضافة إلى امتلاك الماشية . . ولعل أصدق وصف لمعيشة باقى القبائل الأخرى انها تحيا حياة شبه بدوية طابعها التنقل ولا شك أنها فى طريقها إلى الاستقرار كالنيليين حتى ولو استمرت الماشية محور اهتمامهم الأول .

ويمشى معظم الرجال من أنصاف الحاميين عراة عدا طاقية من الجلد يلبسها المسنون وتلبس البنات والنساء مئزرا من الجلد طويلا نوعا وكثيرا ما يكون موشى بالخرز كما يتحلين — كلما أمكن ذلك — بكتلة لولبية من سلك نحاسى تشد إلى الرسغ والذراع وحول الرقبة على الأخص حيث تدلى إلى الصدر . . ومعظم هذه القبائل أو جميعها تنزع القواطع السفلى كما تمارس قبائل الماساى والناندى والسوك عملية الختان .

ولعل من المستحيل ان نبالغ فى وصف أهمية الماشية بالنسبة للماساى وسائر من يتصل بهم من القبائل الأخرى . وينبغى ألا نتأمل فى وظيفتها العملية

فحسب ، بل لابد أن نتأمل قيمتها فى مجال الشعائر والمراسيم ، فالعشب ترجع أهمية فى طقوس هذه القبائل إلى كونه غذاء ماشيتهم المحببة إليهم . . ويترجم لنا الأستاذ « هوليز Hollis » النص الآتى من نصوص الماساى :

« تعرف كل بقرة ، كما يعرف الناس ، بالاسم ، وهنالك مثل يقول « إن للبقرة من القيمة ما للإنسان تماما . . فإذا كان لرجل بقرة يعنى بها ثم تلد ، فستمكنه من أن يعيش إذ أنه يتمكن من أن يتزوج وينجب أطفالا ، ومن ثم يصبح ثرياً .. وإذا ماحدث جدب وضعت النساء العشب على ملابسهن و توجهن إلى الإله بالصلاة .. وإذا ماعاد المحاربون من غارة ما ، ورغب القوم فى تكريم هؤلاء الذين قتلوا بعض أفراد العدو . أخذت الفتاة قصعة ملأى باللبن ، وغطتها بالعشب الأخضر ثم نثرت اللبن على هؤلاء الأبطال . »

والماساى يحبون العشب كثيراً فهناك مثل يقول :

« لقدمنحنا الإله الماشية والعشب معاً وما كان لنا أن نفرق نحن بين الأشياء التى منحنا الله إياها . »

وللماشية أهمية قصوى عند قبائل السوك ، ولعل هذا يكون صحيحاً بالنسبة للقبائل الأخرى ، حتى أنه إذا ماذكرت جملة تضمنت صفة ماولم يذكر موصوف لها ، فهم هذا الموصوف دائماً على أنه « البقرة » ويطلق السوك على جلد الثور لفظاً يختلف عن اللفظ الذى يطلقونه على جلد أى حيوان آخر ، وكذلك الموقف من اللبن ، فإذا تناول الشخص سائلا ما استخدموا كلمة « يشرب » للدلالة على ذلك بينما إذا تناول لبناً استخدموا كلمة أخرى وكذلك الشأن بالنسبة لكلمة قصعة إذ يطلق عليها قصعة إذا وضع فيها سائل غير اللبن أما إذا جمع فيها اللبن فإن لفظاً آخر يطلق عليها .. وفضلا عن ذلك فاللبن مقدس عند النانديى وهؤلاء — كما ينبغى أن تتذكر — زراع ورعاة فى الوقت نفسه ، حتى أنهم يتخذون احتياطات خاصة لمنع إختلاط اللبن باللحم فى جوفهم ، فعند تناول اللحم يمتنع المرء عن شرب اللبن زهاء اثنتى عشرة ساعة ولا يشربه إلا بعد أن يتناول ماء مخلوطا بالملح .

ومسكن الماساى — ويسمى تمبى — من نوع غير مألوف فهو أشبه مايكون بسرداب طويل له سقف مسطح يصنع من الحسك والطين ، وهو مقسم إلى أقسام ويخصص كل قسم منها لعائلة ولكل قسم بابه الخاص ، ويحيط بالبناء كله سور من الشوك تجمع بداخله الماشية ليلا . . ويمكننا القول بأن قبائل الناندى والسوك تعيش عادة فى مساكن محاطة بالحدائق كل له مسكنه الخاص به يقوم إما فى حقله أو بالقرب منه وبجوار الأكواخ توجد صوامع الغلال . . وهنا وهنالك تتبعثر أماكن المبيت المشتركة المسماه « سيجرونت» حيث ينام المحاربون غير المتزوجين وإلى هذه الأكواخ تقصد الفتيات لزيارة الشبان ويمضين معهم بضعة أيام فى كل زيارة . « ولا يسمح للمرأة المتزوجة بدخول هذه الأكواخ التى تعنى بها الفتيات أثناء غيبة أصدقائهن فى الحرب أو الإغارة ، وهناك أيضاً النادى الذى يتردد عليه المحاربون ويحتسى فيه المسنون شراب البيرة .. والمألوف أن يعيش الشبان والفتيات فى أكواخ بمفردهم أو مع عجائز النسوة ، وقد يحتفظ الرجل ببعض رءوس الماشية قريباً من كوخه بيد أن القسم الأكبر من قطعانه ترعى العشب معظم أيام السنة بعيدة بعض الشىء عن حقول الزراعة بالطبع . . ولاشك فى أن الناندى كانوا فى الأصل رعاة أيضاً لهم أسلوب فى الحياة يشابه أسلوب الماساى ولكنهم الآن زراعيون أكفاء بالرغم من أن تربية الماشية لا تزال أهم ما يشتغل به الرجال ، ونظرتهم إلى الماشية هى بعينها نظرة قبائل الماساى .

وبين هذه القبائل جميعاً يجرى تقسيم أفراد المجتمع حسب وظائفهم إلى صبية ومحاربين وشيوخ . . وبجانب هذا التقسيم الوظيفى المعتاد ، هناك تقسيم أكثر دقة وتكاملا أساسه فئات السن ؛ فالغلمان الذين يختتنون فى وقت واحد يقال إنهم ينتمون إلى سن واحدة أو إلى دورة زمنية واحدة مداها سبع سنوات ونصف سنة تحسب منذ إقامة حفلة الختان .

ولما كانت عملية الختان لا يقومون بها إلا بعد البلوغ بين سن الثالثة عشر والسابعة عشر عادة ، فالنتيجة اللازمة لذلك وجود بعض الفروق فى السن بين

من يعتبرون فى فئة واحدة أو من ينتمون إلى دورة زمنية واحدة .. ولعل هذا هو السبب فى أن كل فئة نجد فيها ثلاثة أقسام ثانوية يطلق عليها « النيران » إذ يجلس أفراد كل قسم حول موقدهم الخاص ولا يسمحون لأفراد الأقسام الأخرى بالجلوس معهم .. وترجع أهمية التقسيم على أساس فئات السن عند أنصاف الحاميين إلى حقيقة هامة ألا وهى أن المحاربين يعتبرون من فئة أو دورة زمنية واحدة وهم المسئولون — عندما يعقبون غيرهم — عن تسيير دفة الأمور فى القبيلة .. ويقام الحفل العظيم بتسليم مقاليد الأمور من فئة ما إلى الفئة التى تليها كل سبع سنوات ونصف ، وبعد مرور زهاء الأربع سنين على ختان الأفراد الصغار بهذه الفئة ، وفى الحفل يجتمع سائر الشبان غير المتزوجين أى المحاربين ويقوم الأوركويوت "or Koiyot" وهو كبير الأطباء والكهنة فى القبيلة بنحر ثور أبيض ، يزدرد لحمه الرجال الذين ينتمون إلى أكبر الفئات سناً بينما يقطع كل فرد ممن ينتمون إلى الفئة الصغيرة السن ، حلقة صغيرة من جلد الثور ويضعها فى إحدى أصابعه ولا يلبث كبير الأطباء أن يقف بجوار مقعد يهال عليه روث البقر مرصعاً بفاكهة تجلب من أحراش معينة ، وهنا يقف كبار السن بينما يجلس المحاربون الشبان الذين سيتولون مقاليد الأمور فى القبيلة . . وإذ يعطى الطبيب إشارة معينة ، تأخذ طبقة الكبار المتقاعدين فى نزع جلد المحاربين عن أجسادهم ويلبسون ملابس طبقة الشيوخ المصنوعة من الفراء ثم يعلن الحكام الجدد بأن سلامة الأرض وسعادة شعبها فى أيديهم ويقبهون فى لهجة حاسمة أن يحرسوا أرض آبائهم ثم تطلق الألقاب على كل فئة أو طبقة — وتشتق كما يخيل إلينا — من خصائص سلوكها أو من حادثة بارزة فى تاريخ القبيلة المعاصر .

ويعيش المحاربون الشبان فى قبائل الماساى على اللبن واللحم والدم فحسب فلا يسمح لهم بالتدخين أو تناول المسكرات ، وهم لا يقيمون مع عائلاتهم بل يعيشون فى أكواخ منفصلة مع الفتيات اللائى لم يبلغن سن النضج بعد ومن بينهن يختار كل منهم صديقته كما ذكرنا من قبل ، ولا يدخل الرجل فى طبقة الشيوخ إلا إذا تزوج ، وقديماً كان يؤجل الزواج إلى ما بعد سن الثلاثين .

وليس لنظام طبقات السن الذى صورناه الآن ما يماثله بين النساء فالفتيات يتعلمن الحقوق والواجبات أثناء الفترة التى تتم فيها عملية الختان .

ولا ينبغى أن نعتبر نظام طبقات السن هذا وهو شائع بين القبائل جميعها على أنه النظام الذى تحكم بمقتضاه القبيلة فحسب بل هو وسيلة للعمليات الحربية أيضاً فهو الأساس فى شن الاغارات . ولقد كانت هذه الاغارات التى يشنها الماساى سبباً فى نشر تقاليدهم وعاداتهم بين قبائل البانتو فى شرق إفريقية كما هو الحال فى قبائل أكامبا ، وواتينا ، وكيكويو ، وواشجا . ولكن على الرغم من ذلك فإنه يبدو أن نظام الرعاة هذا شبه العسكرى الذى يسير عليه أنصاف الحاميين يفسر كيف أنهم لم يؤسسوا مطلقاً أية دولة تضارع ممالك البحيرات العظمى فى أوغندة أو بونيورو .

ورجل الطب «الكاهن» هو أبرز شخصية عند قبائل أنصاف الحاميين فالاوركيوت عند قبائل الناندى الذى يناظره الـ « أيبونى ol-oiboni » عند قبائل الماساى من حيث الأهمية والوظيفة يعتبر «رجل الطب» الأول والرئيس الأعلى للقبيلة ، ويرفعه قومه إلى مرتبة التقديس وهو الذى يتنبأ بالمستقبل ويفسر الأحلام ويعرف بمهارته فى تفسير الطالع وقدرته على دفع الحظ السيء . ويقصد الناندى إلى «الأوركيوت» يستطلعون تعليماته عن أنسب الأوقات لزراعة محصولاتهم ، وهو الذى يجلب لهم المطر ، وبفضله تلد نساؤهم وماشيتهم ، ولا يكتب النصر لأى جماعة محاربة إلا إذا بارك هو إرسال حملتهم . ومن الواضح —والأمر كذلك— أن قوى «الأوركيوت» ووظائفه تشبه إلى حد كبير تلك التى ينسبها الشلك إلى مليكهم .. غير أن هذه المقارنة ليست صحيحة على طول الخط .. إذ بينما يعتبر اوركيوت مقدساً فى سائر المواقف ، نرى «كيمنيولى» "Kimnyole" رجل الطب — عند الشلك قد ضربه قومه بالعصى حتى مات عام ١٨٩٠ بسبب ماحل بهم من الكوارث التى اعتبر مسئولا عنها ، فقد حلت بهم المجاعة يومئذ وأصابهم المرض وقتل من محاربيهم خمسمائة فى إغارة واحدة .

ويعتقد أنصاف الحاميين عامة فى إله مرتبط فى ذهنهم بالسماء . وعند الماساى يعرف هذا الكائن باسم « نايتروكوب » Naiteru-Kop وهو فى اعتقادهم مبدع الأشياء وخالق النظام الحاضر وإن كان كمعظم الالهة الأفريقية ، لايهتم بعالمه الآن إلا قليلا ويردد الماساى كلمة انج آى Eng-Ai ويطلقونها فى الواقع على القوة التى يتقدمون إليها بالصلاة وليس لها مدلول محدد وإن كانوا يقصدون بها على وجه خاص المطر والسماء والبراكين .

ولعل معلوماتنا عن قبائل النائدى فى هذه الناحية أوفى مما نعرفه عن الماساى فإلههم الأعظم هو « اسيستا Asista » أى الشمس ، مقره السماء وهو الذى خلق الإنسان والحيوان على السواء . إنه مصدر رزقهم وإليه توجه الصلوات . وبجانبه آلهة شريرة وأخرى ترتبط عندهم بظاهرة الرعد ويبدو أن هذه الآلهة ذات صلة بظاهرة المطر عند قبائل السوك التى يعتبر « توروروت Tororut » أى السماء أعظم آلهتها . وتزعم بعض الروايات أن « الات » نفسه هو الاله الأعظم فهو رب الحياة والموت . وبالإضافة إلى هذه القوى الغامضة الموجودة بالسماء يعمل النائدى والماساى على استرضاء أرواح أسلافهم الراحلين ، وهؤلا فى اعتقادهم مسئولون عن طوالع النحس والسعادة ، والمرض والموت على وجه أخص . وإليهم يقدم الماساى والنائدى القرابين كلما دعت الضرورة إلى ذلك . ولاشك فى أن هذه العقائد ذاتها شائعة أيضاً بين السوك . وهناك اعتقاد سائد لديهم بأن روح الإنسان تحل عند مماته فى ثعبان ولذلك إذا ما دخل ثعبان ما بيتاً قيل إن روح قريب ما تحس الجوع فيسكب اللبن فى طريقه . ويقدم إليه اللحم والتبغ .

ونحن لا نكاد نعرف عن الصلوات نفسها إلا الشيء القليل ولعـــل أدق المعلومات عن هذه الناحية إنما تخص قبائل النائدى فهؤلاء لهم أسلوب محدد فى الصلاة وتبدأ أكثر تضرعاتهم شيوعا على النحو التالى :

أيها الاله أتوسل إليك أن تحفظ الأطفال والماشية ، ألا أتوجه إليك

صباحاً ومساء ؟ أيتها الأرواح . . أرواح الأجداد حافظى علينا . . . »

وعندما يذهب المحاربون إلى إغارة ماتتجه امهاتهم نحو الشمس فى الصباح الباكر ويبصقن ويصحن « قائلات امنحنا الصحة أيها الاله اسيس » ومن العادات الذائعة بين هذه القبائل أن يعرض جسم الميت فى الخلاء حيث تفترسه الضباع والنسور على حين يقتصر الدفن على رجال الطب وأقلية من الشيوخ ذوى النفوذ . . والمعلومات التى لدينا فى هذه الناحية عما يمارسه الناندى أكثر من تلك التى لدينا عن القبائل الأخرى . إذ يحمل الجسد ليلا بعد حدوث الوفاة إلى مسافة بضع مئات من الياردات غربى الكوخ وهناك يوضع على الأرض والمألوف أن يوضع الرجل على جنبه الأيمن وتوضع المرأة على جنبها الأيسر . . وعند وضع الجثة يصيح أقارب الميت « أيتها الضباع تعالى وانهشى . . . » وفى اليوم التالى للوفاة يأتى القوم للزيارة فإذا وجدوا أن الجثة لم تمس بعد ، ذبحوا شاة ووضعوا بعض لحمها على الجثة أو على مقربة منها لتجذب انتباه الوحوش المفترسة ، فإن لم تأت الوحوش رغم هذا استنتج القوم أن الميت لابد وأنه قد فارق الحياة بفضل السحر ، وانذاك تتخذ اجراءات معينة لا كتشاف المسئول عن الوفاة . . ومما تجدر ملاحظته أن تقرير من المذنب فى هذه الحالة ليس من اختصاصات «الاوركيوت» فوظيفته فى هذه الناحية تختلف اختلافا بينا عن الطبيب الساحر المعروف عند قبائل البانتو فى إفريقية الجنوبية .

ولعل من المناسب أن نصف هنا فى إيجاز قبائل البارى واللوتوكو ، على الرغم من أنها ليست من أنصاف الحاميين الحقيقيين . فالبارى من الناحية الجسمانية طوال القامة إذ يبلغ طول قامتهم ٦٨ بوصة فى المتوسط ، وهم ذوو رءوس طويلة إذ تتراوح النسبة الرأسية (بين ٧٣ ، ٧٤) وتنطبق هذه الأوصاف على قبائل البارى التى تقيم على الضفة الشرقية للنيل ، أما قبائل البارى المقيمة على الضفة الغربية فإنها أقصر قامة واكثر استدارة فى الرأس ويبلغ طول القامة بين الكاكوا Kakwa والفاجيلو Fajelu ٦٦ بوصة تقريباً وتبلغ نسبتهم الرأسية حوالى ٧٦ .

ولا نكاد نعرف إلا النزر اليسير عن التنظيم الاجتماعى ومعتقدات هذه القبائل الناطقة بلغة البارى المقيمين فى الضفة الغربية للنيل . . أما عن هؤلاء البارى المقيمين على الضفة الشرقية فنستطيع القول بأنهم ينقسمون إلى عشائر تسير على النظام الأبوى ولبعض فى هذه العشائر علاقات معينة ببعض الحيوانات حتى أنه ليبدو معقولا أن نفترض بأن هذه القبائل عرفت النظام الطوطمى فى يوم من الأيام . . وزعيم القبيلة عند هذه القبائل هو صانع المطر فى الوقت نفسه بيد أن مكانته تختلف كثيراً عن مكانة نظيره الملك المقدس عند قبائل النيليين . .فقد حدث أن قتل البارى زعيمهم عند ما اخفق فى استنزال المطر واستبدلوا به حاكما أكثر كفاءة ودراية . وبجانب صانع المطر ، يوجد زعماء آخرون يحمل كل منهم اسما محلياً معناه «أبو الأرض» ويطلق هذا اللقب على أول من يزيل الحشائش من مساحة من الأرض ويزرعها ويجرى تبعاً لذلك طقوساً سحرية معينة قبل بذر الحبوب وأثناء نمو المحصول ، وقد يجرى هذه الطقوس قبل القيام بغارة من غارات الصيد . وقد يطلق اللقب على ابنائه وأحفاده من بعده . وترجع أهمية آباء الأرض هؤلاء إلى قواهم السحرية إذ بدونهم لا يكتب النجاح لغارة الصيد أو العمل بالحقل بل إن لصيد الأسماك عندهم آباء مختصين به .. والمراسيم التى يجريها القوم فى حفلات استنزال المطر معقدة بعض الشىء ، ولكن يبدو أن أهم مظاهرها صب الماء والزيت على أحجار معينة وهى فى العادة من الصوان ومخصصة لهذا الغرض ثم تطلى هذه الأحجار بما يحويه جوف شاة تقدم ذبيحة لهذه المناسبة .. ونورد هنا ملخصاً لكيفية إجراء مراسيم الحفل . .

«يأخذ صانع المطر وعاء به أحجار معينة بعضها أخضر وبعضها أبيض ، ثم يغسلها فى الماء ويضعها على حجر رحى قديم كبير الحجم ، وهذا هو الحجر المخصص للمطر يطلى بزيت السمسم ، وعلى مقربة منه ، ينحر صانع المطر شاة سوداء ، يأكل هو ومساعدوه وشيوخ القبيلة من لحمها فلا يلبث أن يسقط المطر » .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن مراسيم هذا الحفل تجرى عادة على قبر سلف من الأسلاف كان يجلب المطر أو عند ضريح خاص كانت له علاقة به . أما القبائل الناطقة بلغة اللوتوكو فتشمل قبائل اللوتوكو Lotuko ولوكويا Lokoiya ولانجو Lango وتتميز هذه القبائل برأس مستطيل إذ تتراوح النسبة الرأسية بين ٧٣ و ٧٤ أو أعلى قليلا ، واللوتوكو أنفسهم طوال القامة بدرجة ملحوظة ، وأما سائر القبائل التى تنتمى إلى مجموعتهم فأقصر قامة بمقدار بوصتين تقريباً . وتنقسم قبائل اللوتوكو إلى عشائر طوطمية تتسلسل عن الآباء ، فأول مظهر من مظاهر معتقداتهم الطوطمية اعتقادهم الراسخ بأن كل فرد منهم لا يلبث أن يصبح حيوان عشيرته بعد الموت . . وكل ما نعرفه عن هذه القبائل ينطبق أكثر ما ينطبق على مجموعة من اللوتوكو تقيم فى منطقة قلبها ترانجولى . وتنتظم هذه المجموعة عشائر التمساح والقرد والفيل والنملة البيضاء والثعبان . وأقوى هذه العشائر جميعها قبيلة التمساح فمن بين صفوفها صانعو المطر لسائر العشائر . . ومراسيم استنزال المطر عند قبائل اللوتوكو تنتظم سلسلة من حفلات غاية فى التعقيد وهنا أيضاً كما هو الحال عند قبائل البارى — يبرز الدور الرئيسى للأحجار المخصصة للمطر ويضاف إليها رماح مقدسة خاصة ، ويجلب القوم الماء الذى توضع فيه هذه الأحجار من بركة مقدسة حيث تعيش التماسيح التى تتجسم فيها أرواح أجدادهم ممن كانوا يستنزلون المطر .

ولعادات دفن الموتى عند هذه القبائل أهمية خاصة إذ أنها تعطينا مثالا لذلك الاعتقاد السائد بينهم فى أن قوة الشعب على الانتاج ورفاهيته ترتبط بصورة ما باستخراج عظام موتاهم . ويحدث هذا عند اللوتوكو خلال فترة تتراوح بين ثلاثة وستة أشهر بعد الوفاة ، ومن المظاهر الهامة ممارسة عملية الدفن على وجه السرعة ثم اقامة ما تسميه تلك القبائل « الناميترى Nametere » ولعله يكون « شاهداً » يمثل الجسد بصورة أولية وترتبط به اقامة مراسيم الحداد الأولى . . ولا نعدو الصواب إذا قلنا إن « الناميترى » يمثل محاولة — وإن كانت فاشلة — لحفظ الجثة لإقامة هذه الطقوس . . أو بمعنى آخر يمثل محاولة لعملية التحنيط ، حدثت يوما ما ثم نسيت على مر الزمن .

النيليون

يمثل النيليون المجموعة الكبرى الثانية من الزنوج الحاميين وينحصر توزيعهم الجغرافى فى وادى النيل والأراضى التى تجاوره مباشرة حيث ينتشرون فى منطقة تمتد من جنوب الخرطوم بما يقرب من مائة ميل إلى بحيرة كيوجه ، وهؤلاء يكونون مجموعة واحدة تسمى جالوو Jaluo أو قبائل كافيرندو الناطقة بالنيلية تمييزاً لها عن قبائل كافيرندو الناطقة بلغة اليانتو . ويصل النيليون بتوزيعهم جنوباً إلى الشواطىء الشمالية الشرقية لبحيرة فيكتوريا ورغماً عن انتشارهم حتى أوغندة فان مركزهم هو أرض السودان حيث يكونون فى الغالب الوحدات الجنسية التى ينقسم إليها زنوج النيل ، ولعله من المناسب قبل أن نأتى على وصف النيلين أن نذكر شيئاً عن المشكلة الجنسية العامة التى نواجهها فى حوض النيل .

يتكلم النيليون لهجة سودانية مثلهم فى ذلك مثل غالبية القبائل الضاربة فى حوض النيل ، بيد أنه فى نطاق هذه المجموعة اللغوية السودانيـة الكبرى هناك اختلافات كثيرة قائمة حتى بين الجماعات النيلية ذاتها . . ولما كانت معلوماتنا عن الخصائص الجسمانية محدودة نسبياً فإنا نعلق أهمية كبرى على ما حاوله الأستاذ وسترمان من تصنيف تلك الشعوب على أسس لغوية . . وينبغى أن نوجه النظر إلى أن وسترمان إنما يستعمل كلمة «نيلى» لما يمت بحوض النيل بصلة ، بينما يستعمل عالم الأجناس هذا اللفظ — كما سيتضح لنا بعد قليل — للدلالة على شعب معين يتميز بخصائص جسمانية وثقافية معينة .

وفيما يلى تصنيف وسترمان للجماعات النيلية :

١ — مجموعة النيليين العليا : وتنتظم شعوب ميتو Mettu ومادى Madi وأبوكايا Abukaya وآباكا Abaka ولوبا Luba وويرا Wira ولندو Lendu ومورو Moru

٢ — مجموعة النيليين الوسطى : وتنتظم شعوب الشلك Shilluk ، والأنواك Anuak وبير Beir وجور Jur وبلاندا Belanda وأغلبية شعوب شرقى أوغندة، وآشولى Acholi ولانجو Jaluo وآتورو Aturu وجالوو Jahuo

٣ — مجموعة النيليين الدنيا : وتشمل شعوب الدنكا Dinka والنوير Nuer .

ومما يلاحظ على هذا التصنيف اتساع مداه الجغرافى فمن الواضح أنه ينتظم رقعة السودان جميعها ، وبالرغم من ذلك فالأستاذ وسترمان لم يذكر ضمن هذا التصنيف الشعوب الناطقة بلغة البارى بكل فروعها المتعددة ، والشعوب الناطقة بلغة اللوتوكو . . وإنما يدرج هؤلاء وهؤلاء ضمن القبائل التى يطلق عليها فى هذا الكتاب انصاف الحاميين أى ضمن قبائل الماساى والتوركانا وغيرها .

وفى ضوء هذا التصنيف نستطيع أن نقصر مدلول « الشعوب النيلية » من الوجهة الجغرافية الجنسية ، على الشلك والأنواك واللانجو والجالوو والدنكا والنوير . ولعله من الممكن أن نضيف إلى هذه الشعوب جماعة الجور ولو أننا لانعرف الآن مدى ما طرأ على هذه الجماعة من تغيرات وهى بعد محتفظة باسمها القبلى . . ولاشك فى أن الاشولى وبلاندا من أصل نيلى ولكن من المؤكد فى الوقت نفسه أن الخصائص الجسمانية لشعب الأشولى — وربما خصائص البلاندا كذلك — قد طرأ عليها شىء من التغيير نتيجة لاختلاطها بشعب أو شعوب أخرى . وقد يصدق هذا أيضاً على شعب اللانجو .. أما شعوب مجموعة النيليين العليا — فى نضيف وسترمان — فإنها فيما عدا شعب المادى على الأرجح مجموعة من القبائل تستوطن الأرض بين الكونغو والنيل ولا يعرف عنها إلا القليل ولا زالت فى حاجة إلى بحث ودراسة .

أما من ناحية الخصائص الجسمانية فإن الشعوب النيلية ، ويمثلها الشلك والدنكا أصدق تمثيل ، تتميز بالقامة الطويلة التى تتجاوز ٧٠ بوصة والرأس المستطيل . فالنسبة الرأسية حوالى ٧٢ . . ومظاهر الدم الحامى أوضح ما تكون فى الشلك فمن المألوف أن نجد بينهم رجالا ذوى وجوه دقيقة التقاطيع ، وجباه

قدت كأجمل مايكون (وأبعد ماتكون عن الانحدار) وشفاه رقيقة ، وأنوف دقيقة ذات قصبة عالية ، وخياشيم لاخشونة فى مظهرها البتة . . ومن الجلى أن معظم قبائل الشلك أشبه بأشباه الزنوج منهم بالزنوج وعلى الرغم من بشرتهم السوداء ومايجرى فى عروقهم من الدماء الزنجية الوفيرة فإن النيليين حاميون فى ثقافتهم وأسلوب حياتهم وفى ذلك يختلفون عن الزنوج .. إن أساس حياتهم الرعى والمعتاد أن يعجز الدنكا عن زراعة مايكفى من الحبوب لغذائهم وشرابهم من الجعة فى الفترة بين حصاد المحصول وظهور المحصول الثانى .

وفى أغلب الأحوال يمشى الرجال عراة الأجسام ولايسترون عورتهم مهما كانت الظروف وترتدى النساء مئزراً من الأمام والخلف والذائع بين هذه الشعوب النيلية بوجه عام نزع القواطع السفلى واحداث الندوب على الجباه وتدل هذه الندوب — أو لعلها كانت تدل يوما ما — على علامات مميزة للقبائل ومما يميز النيليين عن جيرانهم فى أرض الكنغو ممن يقطنون التخوم بين النيل والكنغو ، ان الأضحية البشرية نادرة بينهم وإن أكل لحوم البشر ليس معروفاً عندهم ، ومن الناحية النفسية يبدى النيليون ترفعا واعتزازاً بجنسهم ولايبدون رغبة فى اصطناع الملابس الأوربية أو الأشياء التى ترد عن طريق التجارة مما لانكاد نجده فى أية بقعة من بقاع أفريقية .. وينعكس أثر حياة الرعى التى تسود بينهم فى احترامهم لماشيتهم إلى درجة تقرب من التقديس الدينى ، فعند الدنكا مثلا يقام حفل محدد المراسيم يقدم فيه الأب ثوراً لإبنه وليس من المبالغة فى شىء أن نقول بأن الإبن يلتصق بثوره ويلازمه حتى لتتحقق مايسميه علماء النفس بعملية التقمص فهو يقضى الساعات يغنى لثوره ويلعب معه بل إنه يعرف بين أقرانه باسم ثوره ، ويعتبر موت الثور ثكلا له . . وليس من العجيب إذن ألا تذبح الماشية اللهم إلا فى مناسبات الحفلات ، فغذاء النيليين الأساسى هو اللبن والحبوب وليس للنساء أية علاقة بالماشية طالما يباشرن العملية الجنسية شأنهم فى ذلك شأن النساء فى القبائل التى تحترف الرعى فى إفريقية الجنوبية .. وإنما يوكل أمر العناية بالماشية كلية إلى الرجال والصبيان .

والرمح العريض هو السلاح الشائع بين الشعوب النيلية ، غير أن القوس والسهام معروفة عند بعض جماعات الدنكا التى تسكن غربى بحر الغزال . ومن المسلم به أنهم استعاروا استعمالها من جيرانهم من غير الشعوب النيلية . ويعتبر الدنكا المستوطنون فى اقليم السدود ، والنوير من أكبر صيادى فرس النهر إذ أن لحمه يكون القسم الأكبر من غذائهم .

ويختلف التنظيم الاجتماعى عند النيليين بين قبيلة وأخرى . فالدنكا تمثل جمعاً من القبائل لا تشغل ضفاف النيل فحسب بل تنتشر جماعاتهم بعيـــداً فى أراضى بحر الغزال وكل جماعة مستقلة عن الأخرى وليس هنالك مايدل على أن هذه الجماعات قد اجتمع شملها تحت قيادة زعيم واحد فى يوم من الأيام ، فالنظام القبلى الطوطمى هو السائد بينها ، هذا بينما نجد الشلك وهم أقل عدداً — ولا يتجاوزون ٥٠ ألفاً — تنتظم جميعاً بملكة واحدة قوية على رأسها ملك هو رمز السلطة الروحية والدنيوية العليا وإن كان الشلك قد عرفوا فى الماضى النظام الطوطمى السائد اليوم بين الدنكا فإن آثاره لا وجود لها الآن بينهم .

ويمكن الاعتماد على معلوماتنا عن الشلك والدنكا دون سائر الجماعات النيلية جميعاً فالحاكم هو صانع المطر عند هاتين القبيلتين سواء أكان هذا الحاكم هو الملك عند الشلك أو زعيم القبيلة عند الدنكا . وينتسب الحاكم إلى تلك الطبقة التى أطلق عليها « سير جيمس فريزر » « طبقة الملك المقدس » ، ولما كانت عقيدة الملكية المقدسة ، أوضح ماتبدو صورتها عند هذه القبائل ، ولما فيها من أهمية كمصدر لمعلوماتنا عن نظمها الاجتماعية فانه يتحتم علينا أن نفرد مكاناً خاصاً لمعالجتها .

هنا نجد معلوماتنا أوفى ماتكون عن ملك الشلك . لم يكن يسمح للملك قديماً أن يخوض المعارك وهو مايزال حتى اليوم محتفظاً بمكانته الملحوظة وسلطانه الواسع القديم كما يسمح له رسمياً بحرس خاص مسلح ، ويحكم شعبه من مقر حكمه فى فاشودة التى تبعد بمسافة ثمانية أميال عن فاشودة المدينة التاريخية

المعروفة والتى يطلق عليها اليوم إسم كودوك ولا يمكن أن يقوم دليل على مكانة الملك وقوته عند الشلك أبلغ من تلك الربوة المهيبة التى يشيد فوقها مقره . . ومن الضرورى أن نستطرد إلى كيفية تكوين أمة الشلك إذا أردنا أن نفهم طبيعة الملك المقدسة وهنا نرجع بأصل هذا الشعب إلى رجل يدعى « نيا كنج » Nyakang خرج هو وأتباعه من وطن آبائه شرقى بحر الغزال ثم أخذ الزعيم نيا كنج يتجول ، ويقهر الأعداء فى طريقه ، فعظمت شوكته وغدا له من القوة ما مكنه من تأسيس أسرة حاكمة وأمة ، فنيا كنج بطل الحضارة عند الشلك ولا بد وأن ننظر إليه كشخصية تاريخية ، ومن المحتمل أنه عاش فى أوائل القرن السابع عشر — وهو كسائر عظماء الرجال — فى اعتقادهم — لم يمت بل اختفى فى عاصفة عاتية . ومنذ اختفائه وقومه يقدمون له القرابين المقدسة وشبه المقدسة ويعتقدون أن روحه مستقرة فى كل ملك من ملوكهم وهذا الاستقرار هو الأصل بل هو سبب الحق الملكى المقدس . . ومادامت روح نيا كنج تتجسم فى الملك فانه المسئول الأول عن سعادة وطنه وشعبه . . وكان مما يمارسه الشلك قتل مليكهم إذا بدت عليه أعراض المرض ، أو الشيخوخة ، وغدا عاجزاً عن إرضاء زوجاته العديدات ، وعقيدتهم فى ذلك أن روح نيا كنج ينبغى أن تكون فى جسد غاية فى القوة فإن سكنت روحه المقدسة جسداً هزيلا فقد ينتقل هذا الضعف فى النشاط الجسدى إلى الروح ذاتها وحينئذ تمرض الماشية ولا تلد . . وكلما أخذت حيوية الملك فى الضعف فسدت المحاصيل فى الحقول وأصاب المرض الرجال وماتوا بأعداد متزايدة . . ومن الضرورى قبل أن نصور وفاة الملك وتقلد الملك الجديد مقاليد الحكم ، أن نشير إلى أن روح نيا كنج تأوى إلى الحاكم الجديد عند مباشرته السلطة . وهنا لا ينبغى أن نقارن بين حلول الروح المقدس أو استقرار روح نيا كنج وبركة الأولياء فى الإسلام التى أتينا على وصفها فى الفصل الثالث .

ويحدثنا القصص الشعبى عند الشلك بأنه مرت فترة من الزمن كان من الممكن لأى رجل من العائلة الملكية أن يقتل الملك وأن يحكم مكانه . ولعل هذا يوضح

لنا السر فيما يتبعه الملك حتى الآن من نوم أثناء النهار و يقظته أثناء الليل فلقد كان من الممكن أن تنجح محاولة قتل الملك ليلا عندما يكون وحيداً أو مع نسائه ويتحدث الشلك عن المعارك الدامية التى كانت تدور رحاها حول أكواخ زوجات الملك دون أن يطلق الملك أو خصمه صرخة الاستغاثة .. فقد كان من ضروب الشرف أن تنتهى العبارة بين الاثنين دون تدخل الغير . ويروى كثير من الشلك قصصاً من هذا القبيل . . ومن المؤكد أن شيئاً من هذا لا يحدث الآن فإن أفراداً من عائلات معينة تدعى « أورورو » تقوم اليوم بالدور الرئيسى فى مقتل الملك ويقال إنهم ينحدرون من سلالة الملك الثالث لشعب الشلك ومن الجائز أن الملك إلى عهد قريب جداً كان يقضى عليه بخنقه ومما لاشك فيه أنه منذ بضعة أجيال كان الملك يسجن فى كوخ حتى يموت .. ومهما تكن الطريقة التى كانت تتبع فى الخلاص منه ، فقد كانت تمر فترة من الزمن بعد وفاته تقدر بما يقرب من ثلاثة أشهر يجلب القوم بعدها إلى فاشودة نصباً « لنيا كنج » من بلدة « أكورا » بالقرب من حدود بلادهم الشمالية كما كانوا يحضرون معهم مقعداً ذا أرجل أربع يقال إنه كان يخص نيا كنج . وكان أبرز مشهد فى تقليد الملك الجديد شئون ملكه أن يوضع تمثال نيا كنج على المقعد لفترة يسيرة ، ثم يسحب التمثال حال أن يتبوأ الملك المقعد ويبدو أنه لا يمكن أن يكون لهذا المشهد من غرض سوى انتقال روح نيا كنج إلى الملك الجديد .

هذا المشهد الشائق — ولعله يكون المثال الوحيد المعروف لدينا عن الصلة المباشرة بين الملك وحلول الروح المقدس فيه ، خير شاهد على فهم « فريزر » العميق لهذه العقيدة فقد أوضح فى الطبعة الأولى من كتابه « غصن الذهب » الذى قام بنشره عام ١٨٩٠ ، أوضح أن الحفل الذى أقيم فى بلدة « نيمى » Nemi بأرض الشلك قد تضمن فيما تضمن مرور شيء مادى ، يمكن — فى رأيه — أن ننظر إليه على اعتبار انه الروح المقدسة أو شبه المقدسة .

ومن الطبيعى أن يكون ملك الشلك هو المسئول عن الحفل الكبير الذى يقام فى فاشودة من أجل المطر الذى ، يناشد رب السماء — عن طريق نيا كنج —

أن ينزل الغيث وفى سائر بقاع الشلك الأخرى يقوم ممثلو الملك بهذا الحفل وغيره من المراسيم المهمة ولقد كان صانعو المطر بين الدنكا — وهم ملوك مقدسون كزملائهم عند الشلك — لا يقتلون إلا بعد أن يكونوا قد أمعنوا فى طور الكهولة لدرجة تجعلهم يختارون لأنفسهم هذا المصير المحتوم ، وعقيدتهم فى ذلك أنهم لم يعودوا صالحين لإرشاد شعبهم أو قيادته وكان المألوف فى هذا الصدد أن يضطجع صانع المطر على محفة ثم يأذن لقومه أن يطرحوه فى القبر الذى أعد له من قبل حيث يرقد يوما كاملا وهو بين الفينة والفينة يروى لرجال قبيلته الذين تجمعوا حوله بعض القصص عن أعماله وقد يزودهم بالنصائح حتى إذا خارت قواه وشعر بأن ليس لديه مايقول ، أمر شعبه أن يهيلوا عليه التراب فلا يلبث أن يختنق بعد قليل ويرقد رقدته الأبدية .. ولقد كان ينظر إلى هذه المراسيم كأمر ضرورى لامندوحة عن اتباعها . . وقد سئل مرة أحد صانعى المطر عند الدنكا عما إذا كان يفضل ميتة طبيعية فما كان منه إلا أن رفض الفكرة بسخط شديد وأوضح أنه مالم يقتل وفقاً لهذه المراسيم فإن ابنه لن يستطيع أن يخلفه وحينئذ يفتقر شعبه إلى صانع المطر .

وإلى الجنوب من أرض الدنكا ، وعلى ضفتى النيل يقيم عدد من القبائل تتكلم لهجات مختلفة تنتمى جميعها إلى لغة البارى.. والمألوف أن يوضع البارى الأصليون مع الشعوب النيلية فى تصنيف واحد ، والحق أن البارى يشبهون الدنكا فى بعض النواحى، ولاشك فى أن الجماعات الشمالية المتفرعة عن البارى وبوجه خاص قبائل «شير» Shir قد اختلطت بشعب الدنكا إلى حد ما ، ولكنهم على وجه العموم أشد اتصالا وأوثق قربى بأنصاف الحاميين فى افريقية الشرقية ويتكلمون مثلهم لغة حامية ، وينطبق هذا القول على مجموعة القبائل التى تقطن الأرض شرقى قبائل البارى والتى يطلق عليها اسم الشعوب الناطقة باللوتوكو نسبة إلى أكثر هذه القبائل شهرة بينها ، وقد سبق أن ضمنا هذا الفصل بعض الفقرات عن كل من جماعات البارى واللوتوكو. (من صفحة ١٥٠ إلى صفحة ١٥٢)

الفصل الثامن

البانتو

البانتو مجموعة من الشعوب يغلب أنها تنتمي إلى وسط إفريقية وجنوبها وقد اشتق اسمهم وتحدد على أساس تلك اللغة الخاصة التي يتكلمون بها ، والتي يعتبر موطن نشأتها ونموها في منطقة البحيرات العظمى وبصرف النظر عن سكان البحيرات اللاكوسترين Lacustrians ، فإن اختلاط البانتو بالدم الحامي الذي يميزهم عن الزنوج الأنقياء ، أقوى ما يكون في الشرق والجنوب وأقل ما يكون في الغرب والشمال . وإنه لمن الممكن بفضل البحوث التي تناولت لغات البانتو ، أن نرسم خطاً يمثل حدود البانتو بدقة لا بأس بها (أنظر خريطة رقم ٢ صفحة ١٩) وإن كان من الصعب أن نحدد الخط تخطيطاً لفظياً :

فلنتصور خطاً يبدأ غرباً من ساحل البحر عند مدخل ريو ديل ري Rio del Rey الذي يفصل نيجريا الجنوبية عن الكمرون ، ثم يمتد شمالا مع انحراف نحو الشرق محازياً الحدود ثم يجنح الخط إلى الجنوب والشرق في تعرجات كثيرة حتى يصل إلى الركن الجنوبي الشرقي من الكامرون ، وهنا يتجه عبر الكونغو الفرنسي والبلجيكي جنوبي نهر ويلي Welle إلى رأس بحيرة البرت ، ثم يشق بحيرة كيوجا ماراً جنوبي قمة الجون Elgon متتبعاً الأرض الساحلية شرقي بحيرة فيكتوريا حتى يصل إلى ركنها الجنوبي الشرقي ، ومن هناك يمر في تعرجات عبر حدود تنجانيقا ثم يتجه شمالا إلى الأرض المجاورة لممبسة حيث تمتد شقة ضيقة من الأرض من الناحية الشمالية الغربية تؤدي إلى جبل كنيا ، ثم يعبر الخط نهر تانا ويتجه صوب الشمال إلى مصب جوبا منتظما منطقة ساحلية ضيقة بين هذين النهرين .

وهكذا يحتل البانتو بهذا الوضع ثلثى افريقية السوداء. ونحن نحددهم بمعايير لغوية صرفة بحيث لا يتضمن لفظ البانتو أكثر من أن القبائل الداخلة فى هذا النطاق تتكلم لغات تتميز بتصنيف الأسماء تصنيفات تعرف بالمقاطع التى تلحق بداياتها وهى تتراوح عادة مابين ١٢ إلى ١٥ مقطعاً ، كما تتميز بعدم وجود التذكير والتأنيث ووجود وحدة فى الجناس الحرفى إذ يتكرر مقطع كل طائفة من الأسماء بشكل من الأشكال فى كل الكلمات التى تتفق مع أى اسم فى هذه الطائفة فى الجملة . وتكرار هذا المقطع فى كل كلمة متفقة مع الاسم تعطى أثر الجناس هذا، الذى يطلق عليه هذا اللفظ ومن هنا تستعمل مقاطع أى طائفة من الأسماء مع كل صفة أو فعل أو ضمير يتفق مع الاسم كما يتضح فى الجملة التالية وهى من لغة الزولو :

um - ntu	w-etu	om u-hle	u-y banakala	Si — m tenda
أومو — نتو	و — اتو	أومو — هلى	أو — يابو ناكالا	سى — م — تاندا
رجل	نا	أنيق	هو يبدو	نحن هو نحب

فالمقطع اومو umu هو المقطع المفرد فى النوع الذى ينتمى إليه كلمة نتو ntu (رجل) أما المقطع الجمعى فهو با ba (والحرف الأول كما يقول ماينهوف Meinhof عبارة عن نسخة أو طبعة ثانية) فيصبح جمع الجملة كالآتى :

ابا — نتو ب — اتو اوبا — هلى با — يا — بو ناكالا سى — با — تاندا

رجال نا انيقون وهم يظهرون نحن نحب — هم

وإذا أراد القارىء التفاصيل الأخرى الخاصة بلغات البانتو فليرجع لكتاب الأستاذ ورنر Werner وهى مذكورة تحت عنوان «الأدب» الذى اقتبسنا عنه المثال السابق .

ويمكننا أن نعرف البانتو على صورة أبسط من هذه بأنهم هؤلاء السود الذين يستعملون شكلا من أشكال الكلمة « نتو » ntu على أنها تعنى « انسان » فإذا

أضفنا مقطع الجمع إلى هذا الأصل تصبح بانتو Bantu أى رجال « القبيلة » ومن هنا يتأتى ذلك اللفظ الذى يدل على المجموعة كلها والذى تداولته الأبحاث الأنثروبولوجية .

ورغماً عن تحديد البانتو بمعايير لغوية ، فإنه فى المناطق التى يتجاور فيها قبائل من البانتو وأخرى من غير البانتو ، نجد أن ثمة صفات جسدية معينة تميز كل مجموعة تنطق بلغة واحدة حتى أن المصطلحات اللغوية تفيدنا أيضاً فى التمييز بين المجموعات من ناحية الصفات الجسدية . ومنطقة الكمرون خير مثال على ذلك فبالإضافة إذن إلى القيمة اللغوية للفظ « بانتو » فإن اللفظ عند محاولة إطلاقه محليا قد يكون ذا دلالة جسمانية محددة ، وينطبق هذا القياس إلى حد كبير على معظم المجموعات الكبرى فى إفريقية التى تحمل اصطلاحا لغويا .

ومن الممكن تقسيم البانتو إلى المجموعات التالية على أساس التوزيع الجغرافى أولا مع إهمالنا العوامل الثقافية والتاريخية التى تحتل أهمية أقل من الاعتبار الجغرافى فى هذا التقسيم : —

١ — البانتو الشرقيون : وينتشر توزيعهم من أوغندة شمالا إلى مستعمرة كنيا وتنجانيقا وروديسيا الشمالية ونياسا وافريقية الشرقية البرتغالية حتى شمالى نهر الزمبيزى جنوباً .

٢ — البانتو الجنوبيون : جنوبى نهر الزمبيزى وكونيني وهو اقليم فسيح يشمل روديسيا الجنوبية والنصف الجنوبى لأفريقية الشرقية البرتغالية والأجزاء الشرقية والوسطى من اتحاد جنوب افريقية وسوازيلاند وبتشوانالاند وهما تحت الحماية البريطانية وجنوب غربى افريقية .

٣ — البانتو الغربيون : ويمتد توزيعهم من الأطلنطى شمالى نهر كونيني إلى شمال غربى روديسيا والأخدود (محور البحيرات العظمى) ثم ينتشرون شمالا بغرب حتى الممتلكات الفرنسية فى غربى افريقية والكمرون الجنوبى .

بيد أنه يجب أن ندرك أن هـذا التقسيم رغم فائدته ، تقسيم تقريبي جداً لدرجة أن الخطأ الذى ينطوى عليه إنما ينشأ من تبسيطه الزائد عن الحد إذ ينقسم البانتو الشرقيون تقسيماً طبيعياً إلى ثلاثة أقسام :

(أ) الشماليون : أوبانتو البحيرات Lacustrians فى أوغندة وشمال غربى تنجانيقا ويتجمعون حول بحيرة فيكتوريا .

(ب) الشماليون الشرقيون وينحصرون فى مستعمرة كنيا بوجه خاص .

(حـ) الشرقيون : ويحتلون بقية المنطقة (١) التى ذكرناها سابقاً .

وكذا ينتظم البانتو الجنوبيون أربعة أقسام معروفة عالجناها فى الصفحة التالية هذا فى الوقت الذى يجب أن نعتبر البانتو الغربيين قسمين ، القسم الأوسط والقسم الغربى .

ومن بين هذه المجموعات الثلاث الرئيسية ينتشر البانتو الجنوبيون والغربيون فى أكبر المناطق اتساعا وهم من الناحية العددية أكثر أهمية من غيرهم ومع ذلك فإنا لا نعرف عنهم إلا الشىء القليل نسبياً وفى الحق لا يمكننا أن نقول أن لدينا معلومات وافية منظمة إلا عن البانتو الجنوبيين وبانتو البحيرات بل حتى هؤلاء تنحصر معرفتنا عنهم فى الناحية الاجتماعية فحسب ، إذ لابد أن نؤكد مرة أخرى أن المقاييس الجسدية تكاد تنقصنا كلية .

ويمكنا إذن أن نعالج أولادون مراعاة للترتيب المنطقى المحكم مجموعة البانتو الجنوبيين وعندئذ نصف باختصار بعض القبائل المعروفة جيداً فى المجموعتين الأخريين مع الإشارة إلى الأمور الهامة فى مظاهرها الثقافية بوجه خاص .

يتفوق البانتو الجنوبيون بشكل واضح من حيث العدد على سائر مجموعات السكان الأصليين فى جنوب افريقية ويبلغ عددهم أربعة أمثال السكان الأوربيين المقيمين هناك . ويقرب عددهم فى اتحاد جنوب افريقية حسب تقدير ١٩٢٦ من

ستة ملايين ويزيدعددهم على الثمانية ملايين إذ نحن أضفنا إليهم سكان باسوتولاند وسوازيلاند وروديسيا الجنوبية وبتشوانالاند المحمية وكذا جنوب غرب افريقية مضافاً إليهم حوالى ثلاثة أرباع مليون آخرين يقيمون فى أفريقية الشرقية البرتغالية جنوبى نهر الزمبيزى .

ومن وجهة التنظيم السياسى ينقسم البانتو الجنوبيون إلى عدد كبير من الوحدات القبلية، تحمل كل منها إسما خاصاً يميزها وجود أسماء عامة يعرفون بها وتضم شعوباً على قدر كبير من التماسك ويتشابه البانتو الجنوبيون كثيراً فى أسلوب حياتهم ونظامهم الاجتماعى الدينى ولكن هناك بضع اختلافات هامة تتناول دقائق تاريخهم ولغتهم ومظاهر الثقافة المختلفة الأمر الذى يسمح لنا بأن نصنفهم فى أربع مجموعات رئيسية :

البانتو الشماليون (٢أ فى الخريطة ص١٩) وينتظم هؤلاء شعوب الشونا Shona فى روديسيا الجنوبية وأفريقية الشرقية البرتغالية جنوبى الزمبيزى حتى نهر سابى Sabi وبهذا الوضع تشمل هذه المجموعة قبائل باروزوى Barozwi ووازيزورو Wazezuru ووابوجحا Watawara أوبان ياى Banyai وماكوريكورى Makorekore ووتاتاوارا Wabujga ووامارى Wamari ووكارنجـــا Wakaranga ثم فاندو Vandau

البنانتو الشرقيون (٢ب فى الخريطة) وهم الزولو اكسوزا Zulu-Xosa ويتركزون بوجه خاص فى النطاق الساحلى فى جنوبى وشرقى جبال دراكنبرج وينتشر توزيعهم من نهر سابى شمالا إلى مقاطعة الكاب جنوباً وينتظمون فى تلك القبائل التى يطلق عليها اسم الكفير Kaffir وتشمل قبائل أماكسوزا Amaxosa واماتمبو Amatembu وامامبوندو Amampondo وامامبوندو ميزى Amampondo misi فى المقاطعة الشرقية ومناطق السكان الأصليين فى الكاب ، كما تضم هذه المجموعة الأمازولو Amazulu فى ناتال وزولولاند ، والأماسوازى Amaswazi فى سوازيلاند ، والباتونجا فى إفريقية الشرقيـة البرتغالية ، ثم قبائل الأمانديبلى Amandebele أو المـــاتيبيلى Matebele

فى ما تابيليلاند وروديسيا الجنوبيـة ثم قبائل الاماشانجانا Amashangana أو الشنجآن Shangaans والفاتوا Vatua أو الأباجازا فى أفريقية الشرقية البرتغالية وروديسيا الجنوبية ، وإلى جانب هؤلاء جميعاً مجموعات الأنجوشى المختلفة التى تصـــادفها شمالى نهر الزمبيزى فى روديسيا الشمالية وأرض نياسا وتنجانيقا ، وهم فروع من الأمازولو ، ويجب أن ندرجهم معهم فى الناحيتين اللغوية والثقافية .

المجموعة الوسطى (٢حـ فى الخريطة) وهم السوتوشوانا Suto-Chwana ويحتلون القسم الأكبر من الهضبة العالية شمالى نهر الأورنج وكذا غربى جبال دراكنبرج وشمالها وينتظم هؤلاء السوتوشوانا قبائل بتشوانا Bechwana (البارولونج Barolong والباتلهابنج Batlhaping والباكجاتلا Bakgatla والبانجواكتسى Bangwaketse والباكونا Bakwena الباماانجواتو Bamangwato والباهورتشى Bahurutshe) ويقيمون فى ولاية أورنج الحرة وبتشوانالاند البريطانية وبتشوانالاند المحمية والترنسفال ثم قبائل الباسوتو Basuto أو الباسوذو Bsotho فى باسوتولاند ثم البابيدى Bapedi والبافندا Bavenda فى القسم الشمالى من الترنسفال .

البانتو الغربيون (٢ د) وينتظم هؤلاء الهريرواوفامبو Herero-Ovambo فى النصف الشمالى لأفريقية الجنوبية الغربية والقسم الجنوبى من انجولا : ويندرج تحت هؤلاء أوفاهيريرو Ovaherero فى المناطق الوسطى لأفريقية الجنوبيـة الغربية واوفامبو Ovambu (أوفاندونجا Ovandonga واوفاكونياما Ovakwanyama) ويقيمون فى أوفامبولاند وجنوبى انجولا ثم اوقيمبوندو Ovimbundu فى مناطق بنجويلا وبايلوندو فى انجولا الجنوبية غربى نهر كوانزا.

ويقوم هـــذا التصنيف لهذه القبائل كما ذكرنا أولا على اعتبارات لغوية وثقافية بينها مفارقات واضحة كتلك التى توجـد بين المجموعات ذاتها ، أما من ناحية الصفات الجسمانية فحقيقـة أنهم جميعاً فى الأصل زنوج غـير أنه يوجد بينهم تنوع فى الصفات الجسمانيـة نظراً لأن الدم الحامى يجرى فى عروقهم

بدرجات متفاوتة ، ثم إنهم اختلطوا بالبوشمن وغيرهم بدرجات متفاوتة أيضاً .
ولكن برغم هذا كله تغلب عليهم صفات زنجية معينة وبخاصة نوع الشعر ، وأجسامهم فى العادة ممشوقة ، كما أن هيئتهم قوية مفتولة العضلات . وتبدو الرشاقة فى طلعتهم ومشيتهم وتظهر هذه الرشاقة على الأخص فى النساء اللائى اعتدن حمل الأثقال على رؤسهن ، وكثيراً ما يرى أفراد طوال القامة وبخاصة فى القبائل الشرقية على أنه يظهر من مجموعة من القياسات التى أخذت لبعض عمال المناجم فى جوهانسبرج أن قبائل البانتو فى جنوب إفريقية متوسطة القامة فى المعدل ولا يبدو أن هناك فروقا ملحوظة فى القامة بين مجاميع القبائل المختلفة كما تدل على ذلك الأرقام التالية :

أهالى الشاطىء الشرقى				بوصة	قدم
باثونجا Bathonga ، باشوبى Bachopi				٦½	٥
الأماشانجانا Amashangana	العينة	١٣٣٧	شخصاً	٦¼	٥
الكافير فى مستعمرة الكاب	»	٦٣٠	»	٥½	٥
أهالى روديسيا ومعظمهم من ماشونا	»	١٩٩	»	٦	٥
الباسوتو فى باسوتولاند	»	٥٢١	»	٦½	٥
بتشوانا Bechwana	»	٦٦	»	٥½	٥
دامارا Damara اى أوفاهيريرو	»	٤١	»	٦⅕	٥

وتدل جميع المقاييس التى أخذت من مخطوط مستر ترنر والمحفوظ بالمعهد الانثروبولوجى الملكى فى بريطانيا على أن متوسط قامة ٤٠٠٨ من بانتو جنوبى أفريقية ينتمون إلى سائر المجموعات كلها والذين يزيد عمرهم على ٢١ سنة ، تبلغ حوالى خمسة أقدام وخمس بوصات وثلاثة أرباع بوصة .

ويتأرجح لون البشرة بين اللون الأسود كما يبدو فى قبائل الأماسوازى Amaswazi إلى ذلك اللون الأسمر الضارب إلى الصفرة كما يبدو فى بعض

البتشوانا ويدل لون هؤلاء على قدر من الاختلاط يجب ألا نغفله ، بالبشمن والهتنتوت ، وعلى أى حال فاللون الغالب هو البنى القاتم يشبه لون الأرض المخفف الضارب إلى الحمرة ، والشعر عموما من النوع الزنجى المألوف ويتميز على الأخص بلولبيات متشابكة . أما الرأس فمستطيلة بوجه عام والعيون عادة واسعة سوداء اللون جاحظة ، وأما شكل الأنف فيختلف وهى على وجه العموم قصيرة وعريضة وقد تكون أحياناً ذات قصبة جميلة الشكل وخياشيم ضيقة نسبياً ، والوجه أدنى إلى أن يكون بيضاوياً ، والجبهة بارزة ، وعظمتا الوجنتين مرتفعتان ، والشفاة غليظة مكتنزة لحماً والقاعدة العامة ألا يوجد غير القليل من الشعر على الوجه ولاتنمو اللحية حتى أواسط الحلقة الثالثة من العمر ، والصلع نادر بيد أن بعض القبائل تعمد إلى حلق الرأس بين فترة وأخرى .

ويغلب هذا الوجه الزنجى بخصائصه على مجموعات البانتو جميعها وإن كنا نرى أحياناً جنباً لجنب مع الوجه الزنجى ، ملامح أكثر اتساقا وبخاصة فى المجموعة الشرقية (٢ ب) بين فئات الزولو والشونجا غالباً حيث توجد وجوه طويلة وضيقة نسبياً وشفاة رقيقة وأنف دقيق الشكل تذكرنا فى وضوح بذلك الوجه الحامى الخالص ويقال إن لهؤلاء السكان الأصليين قامة أطول عادة من المتوسط كما يقال إن هذا النوع الدقيق فى تقاطيعه يكون ٥٪ من الزولو . وقد يرى هذا العنصر الحامى بين الأفاهيريرو (لا الاوفامبو) ممثلا فى الوجه المستطيل والأنف الطويل الضيق المستقيم والشفاة الرقيقة نسبياً بما يلاحظ على الكثير من الأفراد أصحاب البنية الهزيلة والأكتاف المدببة . وغالباً مانجد وجه البشمن القصير المدبب بين تلك المجموعات القاتمة اللون نوعاً فى البتشوانا ، ويحمل هذا الوجه عادة أفراد لهم بنية أضعف وأكثر هزالا من غيرهم . وتوضح هذه الصفات المتباينة — إلى حد ما — طبيعة الخصائص الجسمانية التى شكلت دم شعوب البانتو الزنجية الأصل .

ولامندوحة من أن نعترف — لسوء الحظ — أن مانعرفه عن الخصائص

الجسمانية للبانتو رغم تفوقهم العددى الساحق ، أقل بكثير مما نعرف عن شعوب جنوب إفريقية الأصليين .

وهم يمارسون أنواعاً مختلفة من بتر أجزاء الجسم ، فالختان سائد بين القبائل الوسطى جميعها كجزء من طقوس البلوغ وبين فريق كسوزا Xosa فى المجموعة الشرقية، وكذلك فى القبائل الغربية . وقد كان هذا التقليد سائداً أيضاً بين الأقسام الأخرى فى المجموعة الشرقية كالزولو ، والتونجا ، والفنجو Fingo ولكن يبدو أنهم أقلعوا عنه منذ حوالى قرن ، واليوم لا تمارس هذه القبائل الختان ولم نسمع أنه أجرى بين قبائل الماشونا . ويبدو من الواضح أن عملية مماثلة تجرى للأناث بين القبائل الوسطى فقط ويصعب تحديد تفاصيلها بالضبط . وينتشر قطع الأسنان — إما بانتزاعها أو بردها إلى حد ما — بين القبائل الغربية عند جماعة يونجا المنتمية إلى المجموعة الشرقية وعند بعض قبائل الماشونا فى أقصى الشمال والشرق .

وعمل الندوب ذائع بين القبائل الشرقية والشمالية على الأخص وليس من السهولة بمكان أن نحدد مدى شيوع هذه العادة بين المجموعات الأخرى . وأخيراً يمكننا أن نذكر عادة بتر جزء من أحد الأصابع ويحدث هذا عادة فى المفصل الأخير فقط وتسود هذه العادة بين قبائل الزولو وكسوزا فحسب ولو أنها توجد أيضاً خارج نطاق البانتو عند البشمن والهتنتوت وربما أخذت القبائل الأخرى هذه العادة عنهم . ولبعض هذه الأشكال من بتر أجزاء الجسم وبخاصة الختان وانتزاع الأسنان أو برد جزء منها ، علاقة بالطقوس الخاصة بالبلوغ وأما العادات الأخرى فيظهر أنها للزينة فقط .

أما من ناحية التنظيم السياسى ، فيجتمع البانتو الجنوبيون فى عدد كبير من القبائل إذ يمكن تعريف قبيلة البانتو بأنها طائفة يكون أعضاؤها نظاما اجتماعيا وسياسيا تحت حكم رئيس يتولى الضبط والقيادة ، وهو مركز الحياة فى القبيلة ولكل قبيلة اسمها الخاص بها ووطنها الخاص طالما كانت مستقلة .

ويتكون الباسوتو Basuto المجموعة (٢ ج) من أجزاء وبقايا عدد عظيم من القبائل تتفرع فى الغالب عن الباكونا Bakwena وهم بهذا الوضع من عنصر شوانا Chwana ويوجدون على الأخص فى باسوتولاند وإن كانوا يتداخلون فى المناطق المجاورة ولقد مضى أقل من مائة عام منذ جمع الرئيس العظيم موشيش Moshesh شمل هذه القبائل جميعاً وكون منهم أمة الباسوتو . وهم وحدة سياسية هامة جداً حتى يعتبروا فى العادة قسما قائماً بذاته . وقد وصل البابيدى Bapedi أيضاً إلى درجة كبيرة من التنظيم السياسى (وهم متفرعون عن الباكاجاتلا Bakgatla وذلك تحت قيادة الرئيسين سكواتى Sekwati وسيكوكونى Sekukuni فى أواسط القرن الماضى . ويجب أن نعتبر هؤلاء البابيدى بالإضافة إلى عدد من القبائل الصغيرة الأخرى التى سيطروا عليها قسما مستقلا فى مجموعة السوتوشوانا Suto-Chwana .

ويعرف الآن سائر سكان ناتال وزولولاند باسم الزولو . وقد كانوا ينقسمون فى الأصل إلى أكثر من مائة قبيلة صغيرة كل مستقلة عن الأخرى ولكل منها اسمها الخاص بها . واسم الزولو مشتق عن إحدى هذه القبائل التى قهرت واستحوذت على معظم القبائل الأخرى تحت زعامة تشاكا Chaka فى نهاية القرن الثانى عشر ، وفى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، وبذلك تكون شعب الزولو الذى لعب دوراً هاما فى تاريخ جنوب أفريقية السياسى خلال القرن الماضى . ومن بين القبائل الأخرى الداخلة فى نطاق هذا القسم ذات الشهرة والأهمية التاريخية قبائل الأماتيتوا Amatetwa والأمانجوانى Amangwane والأماباكا Amabaca والأمابومفو Amabomovu ولاتزال هذه القبائل تتمثل فى ناتال وزولولاند .

ومن السهل علينا أن نرى — إذا نحن تذكرنا — تاريخ نشاكا وشعب الزولو — أن تاريخ جنوب أفريقية إن هو إلا جملة من أنواع الصراع والحروب والهجرة والإبادة ، مما أدى إلى نشوء وحدات قبلية جديدة مثل الماكولولو Makololo

وثمة مثالان أكثر أهمية من هؤلاء. وهما قبائل الماتابيلى Matabele والأنجونى Angoni (٢ ب) ففى عام ١٨١٧ :

« ثار أومسيليجازى Umsiligazi أحد الرؤساء التابعين لزعيم الزولو العظيم تشا كا وهرب شمالا مع عدد كبير من التابعين وهؤلاء كانوا الماتابيلى ، أقاموا فى أول الأمر فى ترنسفال ثم اتجهوا فيما بعد نحو الشمال بسبب مقدم البوير — إلى ذلك القسم من المنطقة المعروف باسم ماتابيليلاند بعد أن قهروا مستوطنى المنطقة من قبائل الماشونا ثم أقاموا عليهم حكومة عسكرية مطلقة .. ولا يفترق تاريخ الأنجونى عن هذا التاريخ فقد ثار هؤلاء أيضاً على تشا كا ثم انضموا إلى مجموعة أومسيلجازى من الماتا بيلى حوالى عام ١٨٣٠ بعد أن صالوا وجالوا على نهر سابى ، بيد أنه حدث أن اختصم زعيمهم زونجانداوا Zungandawa مع أوسيليجازى فقاد رجاله نحو الشمال بعد نشوب معركة بينهما عبر على أثرها نهر الزمبيزى وشق طريقه مقاتلا حتى فيبا Fipa فى أرض تنجانيقا — وكان أحد قواده ويدعى تشيكوس Chikusse قد انفصل عنه من قبل وأقام جنوبى نياسا ولقد أصاب الأنجونى الانقسام بعد موت زونجاندوا ودب الخلاف بين أبنائه فانسلخ الأندونا أو الرؤساء الأقوياء وأقاموا امارات مستقلة ، فجنح فرع نحو الشمال ونجح فى شق طريقه حتى فيكتوريا نيانزا حيث يعرفون باسم روجاروجا Ruga-Ruga ويوجد غيرهم فى شرق نياسا يحملون اسم مافيتى Maviti وفى المنطقة البرتغالية حيث يطلق عليهم اسم لاندين Landin وبلفظ أدق فاتوا Vatua أواباجازا Abagaza ومن بين القبائل المغيرة ذات الأصل الزولو والتى تمت بصلة قوية أو ضعيفة بالأنجونى ، قبائل المازيتو Mazitu إلى الشمال من نياساوالواتوتا Watuta إلى الشمال منهم والمانجوانجوارا Mangwangwara إلى الشرق .

وتتفاوت القبائل كثيراً فى حجمها ، فبعضها يتكون من عدد يتراوح بين بضع مئات وألفين على الأكثر وهذه حال معظم قبائل — تونجا ، وشونا وقبائل

شوانامن الترنسفال ، على حين يزيد عدد قبائل أخرى عن هذا العدد كثيراً ، ففى قسم شوانا (٢ ج) يبلغ عدد البكوينا Bakwena حوالى ٢٦٥٠٠ نسمة والباتاوانا Batawana ٤٢٠٠٠ والبامانجواتو Bamangwato مائة ألف أما بين قبائل الأفامبو فيبلغ عدد الأوفاندونجا Ovandonga ٦٥٠٠٠ والأوفاكوانياما Ovakwanyama ٥٥٠٠٠ ثم أن الأمازوازى Amaswazi يبلغ عددهم ١٤٠ ألف نفس ، بينما يبلغ عدد الباسوتو فى باسوتولاند (٢ ج) أكثر من نصف المليون وهم يفوقون جميع القبائل عدداً إلى حد يمكن معه أن ندعوهم « أمة » .

ويعيش أفراد المجموعات الشرقية والشمالية والغربية عادة فى أماكن صغيرة مبعثرة فى غير ما نظام فى البلاد كلها متباعد بعضها عن البعض الآخر بمسافات يسيرة . ويقطن فى كل من هذه الأماكن أو الكفور كما تسمى عادة فى جنوب أفريقية ، أفراد مجموعة واحدة من العائلات حتى لنجد أن المجموعة العائلية الواحدة بين هذه القبائل هى الوحدة الاجتماعية المحلية أيضاً ، ومن ناحية أخرى يجنح القوم فى القبائل الوسطى إلى التجمع فى قرى أو مدن تنتظم كل منها عدداً من المجموعات العائلية المختلفة . وهنالك فى باسوتولاند عدد عظيم من تلك القرى وهى فى العادة صغيرة الحجم تنتظم ما بين خمس وخمسين عائلة .

وفى تبشوانالاند يعيش أفراد القبيلة الواحدة فى مجموعة غير منتظمة تشمل عدداً كبيراً من العائلات المجتمعة حول بعضهما بحيث تكون مدينة كبيرة غالباً ما تكون عظيمة الإتساع ، وهكذا يبلغ عدد سكان سروى Serowe أهم مدن بامانجواتو Bamangwatu ٢٥ ألف نسمة كما يبلغ عدد سكان موليبولى Molepopole (باكوينا Bakwena) حوالى ١٢,٥٠٠ نسمة .

غير أن كل بيت عائلى مستقل تماماً عن سائر البيوت سواء أكان وحدة محلية محددة أم مجرد جزء من قرية أكثر اتساعاً أو مدينة ، وتسير المجموعات العائلية فى سائر القبائل الأخرى على نفس هذا النهج المحدد. فالمظهر الأول هو

حظيرة الماشية المستديرة والتى تسوى بعناية لتحفظ فيها الماشية والأغنام والماعز ليلا ، وتصطف أكواخ مختلف أفراد العائلة حولها وقد يبعد بعضها عن بعض بمسافات منتظمة . وتشبه أكواخ الأوفاهيريرو Ovaherero سائر أكواخ القبائل الشرقية — فيما عدا الفونجا — خلايا النحل فى شكلها بينما نجدها دائرية ذات سقوف مخروطية الشكل لدى سائر القبائل الأخرى (أكواخ الأوفامبو والمجموعة الوسطى والشمالية والفونجا) . ولكل كوخ فناء خاص صغير يطهى فيه الطعام ، ويتزود الكوخ بشجرة أو عصا ذات شعاب أو كومة من الأحجار أو أى مكان خاص تتخذ معبداً للسلف . وقد توجد العصا ذات الشعاب داخل الكوخ أو عند مدخل الكوخ الرئيسى أو عند بوابة القرية الرئيسية ذاتها . والمألوف أن يكون هناك فضاء عام ، وحكر يخصص للرجال على حين يطوق القرية كلها سور دائرى أو بيضاوى أو على شكل حدوة الحصان يقام بطرق مختلفة .

ويقوم نظام العشائر بين المجموعات الشرقية أو الشمالية والوسطى من قبائل البانتو الجنوبيين على أساس النظام الأبوى بينما يسير الأوفامبو من مجموعة القبائل الغربية على أساس نظام الأمومة كما يتبع الأوفاهيريرو النظامين معاً إذ ينتمى كل فرد لوحدتين تتسلسل احداهما عن طريق الأب والأخرى عن طريق الأم وكلا من الوحدتين يشبه نظام العشيرة من حيث التكوين العام حتى انه لو وجد إحداهما لأمكن أن يطلق عليها اسم العشيرة .

وفى القبائل الشرقية يحمل الأشخاص الذين من قبيلة واحدة لفظ « أزيبنجو » Isibonga وهذه كلمة يمكن أن تترجم بأنها اسم للمدح أو اسم « السلف » وتتخذ اسماً للمجموعة كلها ويزعم سائر الأعضاء الذين ينتمون إلى « أزيبنجو » أنهم من نسل واحد من ناحية الأب ، والأزيبنجو عادة هو هذا السلف وعلى هذا النحو يزعم سائر أفراد المجموعة التى يتم فيها التخاطب باسم تشيزى Tshezi أنهم من نسل تشيزى مباشرة عن طريق الأب ويعرفون جميعاً باسم

ــ أما تشيزى ــ Ama Tshezi وكثيراً ما يخاطب أى عضو فى هذه المجموعة باسم ــ تشيزى ــ فيتخذ أزيبنجو فى مجموعة كهذه لقب شرف لأفراد المجموعة كلها ومن باب الأطراء أو آداب الحديث أن يخاطب الرجل باسم أزيبنجو مجموعته لا باسمه الخاص ولا يسمح بأى اسم آخر غيره فى مقام الخطاب فى بعض ظروف معينة .

ويلتزم سائر الأفراد الذين يربطهم ازيبنجو مشترك على هذه الصورة بواجبات وحقوق مختلفة . فلا يستطيع أشخاص اتحدوا فى ازيبنجوا واحد أن يتزاوجوا إذ لا يباح الزواج إلا لأشخاص لا ينتمون إلى ازيبنجو مشترك . وكذلك يستحيل على الناس شرب اللبن بعضهم مع بعض إلا إذا كانوا يحملون لقب ازيبنجو مشترك ، وتناول شراب اللبن مع فرد آخر من قبيلة أخرى يعد عند الامازولو Amazulu والأمامبوندو Amampondo بمثابة عهد بالمؤاخاة مع تلك القبيلة بما قد يمنع الرجل من أن يتزوج امرأة منها . وهنالك محظورات أخرى عند بعض أقسام هذه المجموعة وبخاصة الزولو تتعلق بكل ازيبنجو منها ، ومعلوماتنا عن هذه المحرمات لا تشفى غليلا . فبالرغم من أن الزواج مستحيل بين أفراد العشيرة الواحدة، وكثيراً ما يحدث أن تتفكك عرى العشيرة الواحدة وعندئذ تتكون عشيرة جديدة قوامها فرع جديد يتخذ لنفسه اسم سلف مباشر باعتباره الازيبنجو الذى ينتمى إليه ، وبذلك يصبح الزواج ممكنا بين العشيرة الأصلية والفرع الجديد .

وتنقسم القبائل الوسطى أيضاً إلى مجموعات يحمل أعضاؤها اسما مشتركا هو السبوكو Seboko ويتخذ كلقب وكوسيلة للتخاطب الرسمى أو على سبيل الاحترام والتقدير . وليس السبوكو اسم سلف مشترك بل يراد به اسم حيوان أو معدن كالحديد أو ظاهرة طبيعية كالمطر ، وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للقبائل الشمالية ويظهر أنه كان هنالك قديماً محظورات وأمور مرعية وأغان ورقصات متصلة بهذه الأنواع من الحيوان أو الجماد الذى يطلق عليه اسم سبوكو الخاص بمجموعة من المجموعات .

ويعتمد البانتو الجنوبيون فى قوتهم على الرعى وزراعة نبات Hoe بوجه خاص وهم يربون الماشية والأغنام والماعز التى تمدهم بالجانب الأكبر من غذائهم وهو اللبن الذى يشربونه خاثراً كما تمدهم بالمواد الخـــام ممثلة فى الجلود التى يستغلونها فى بعض حرفهم وصناعاتهم . ويندر ذبح الماشية بغية الحصول على لحومها للغذاء اللهم إلا فى المناسبات والطقوس ، والسبيل الأول للحصول على اللحوم هو القنص . يضاف إلى ما تقدم أن زراعة الحبوب تشتغل بها القبيلة بأسرها باستثناء قبائل الاوفاهيرورو Ovaherero وأهم تلك الحبوب الذرة بنوعيها بالإضافة إلى بعض أنواع الخضروات التى تستنبت بين عيدانها كالكرنب واللوبيا والبسلة وبينما يقوم الرجال برعاية الماشية وحلبها تقوم النساء بالاشراف على الحقول وتمنعهن التقاليد الدينية من أن يكون لهن أدنى صلة بالماشية . وبين الاوفاهيرورو Ovaherero فقط نجد النساء يقمن بحلب الماشية وهن بذلك يقمن بأعمال تشذ عن المألوف ليس بين قبائل البانتو فحسب بل بين سائر الشعوب الزنجية الحامية بوجه عام .

وعبادة السلف هى قوام الحياة الدينية عند البانتو واولى خصائص هذه العبادة انها ديانة اسرية تعتمد فى جميع الحالات على الجانب الابوى للاسرة فالرجل يعبد أسلافه من الذكور وهولاء هم الاقارب الوحيدون الذين يستطيع ان يرتبط بهم ابدا . ورب الاسرة هو الذى يسير طقوس العبادة . وايا كان منشأ هذه العبادة الاسريه فان اظهر وظائفها الابقاء على الروابط الاجتماعية فى الاسرة كما تجعل سائر افراد الاسرة تابعين للعائل الذى ينفرد وحده بالقدرة على الشفاعة لدى الموتى : ومثال ذلك أنه عند مايتشاجر شقيقان من الباتونجان يتعين على الاخ الاصغر منهما ان يقدم تضحية خاصة على سبيل الارضاء لاخيه الاكبر كيما يستطيع هذا الاخير ان يعود الى الشفاعة لدى ارواح الموتى من اجله ، والشذوذ الوحيد فى الطبيعة الاسرية لهذه الديانة ان اسلاف الزعيم المتوفين يعتبرون مصدر القوة للقبيلة باسرها فكما ان الزعيم واسرته يرعون مصالح الاحياء فكذلك اجداده يرعون شعب حفيدهم الحاكم وليس فى مقدور

أحد أن يتقرب الى هؤلاء الاسلاف بالاصالة عن القبيلة كلها سوى اعضاء أسرة الزعيم . ومن هنا يضفى الدين عند البانتو قداسة قوية على منصب الزعامة .

وعندما يقضى رجل نحبه يتحتم اداء سلسلة طويلة من الفروض والمراسيم قبل ان يعاد الميت فى النهاية الى الدار كسلف من الاجداد . فبعد أنقضاء مابين ثلاثة وتسعة اشهر على مراسيم الحداد المختلفة يحدث مايسميه الامازولو Amazulu ارجاع الايتونجو Itongo أو الروح الى الدار وهى فى مضمونها الطقوس التى تشمل تقديم الأضحية الأولى للميت (بوصفه سلفا) . و قبل حلول ذلك يكون الميت قد اعلن وجودها اما فى صورة ثعبان او سحلاة تتلظى فى الشمس قرب قبره واما بزيارته حظيرة الماشية او الا كواخ ، او بالظهور لاقاربه فى حلم وان لم يات احدى هذه الامور ثارت الريب حول وجود «عمل» خبيث وعندئذ يستدعى ساحر ليعيده الى الدار .

ويشارك الأجداد شعبهم فى مسائل الحياة على مر الأيام فلا يقام حفل الجعة إلا نالوا نصيبهم ، ولا يحتفل بعيد إلا حظوا بقسطهم . بيد أن هناك مناسبات خاصة فى حياة الأسرة والقبيلة يتحتم فيها بنوع خاص على الأجداد أن يجمعوا شملهم . وتلك هى مناسبات تقديم القرابين . ويرتبط بعبادة السلف اشعال النار المقدسة التى نجدها عند القبائل الغربية : فلكل مجموعة اسرية بين الأوفاهيريرو ناحية خاصة بها وعلى الجانب الأيسر من هذه الناحية يقع كوخ الزوجة الأولى للعائل ، وفى مواجهته يقوم المذبح ويقال له أوكورو Okuruo وفيه تشعل نار الاسلاف المقدسة بصفة دائمة ، وتقوم على حراستها الزوجة الأولى للعائل أو بناتها ليـــلا ونهار ، ففى المساء تحمل النار إلى الكوخ وترفع ثانية إلى المذبح ثانية كل صباح وعند تلك النار تنحر الثيران فى أعياد الأضحية وتترك جماجمها من حولها حيث يتخذها رجال الناحية مقاعد لهم بينما توجد على مقربة منها شجرة الأومومبورومبونجا Umumborombonga الصغيرة أى شجرة التين المقدسة ، أو فرع جاف من شجيرات الأوموفابو Omuvapu التى يمكن استخدامها إن لم تتوفر السبل إلى انماء شجرة تين .

وشجرة التين هي رمز الأسلاف . وشمالى موطن الهيريرو تقوم شجرة تين ضخمة يعتقد القوم أنها مقعد الأسلاف أجمعين ومن هنا كان لها قداسة كبيرة .

وإلى جانب اعتقادهم فى أرواح السلف يؤمن البانتو الجنوبيون باله عالمى لم يسبق له أن كان بشراً أو على اتصال بالبشر . ومهما اختلفت فكرة ادراك هذا الاله العالمى من شعب إلى شعب فما لاشك فيه أن أغلب القبائل تنظر إليه باعتباره قوة تظهر مكنونها فى الظواهر الطبيعية أكثر منه باعتباره الها وذلك على الرغم من أنه كثيرا ما يوصف ببعض الصفات الشخصية . وتلك القوة تعبر عن نفسها فى صورة جلية فى ظاهرات الجو كالمطر والرعد والبرق . وبين قبائل الباثونجا تعرف هذه القوة على نحو غير شخصى (آدمى) فينظرون إلى تيلو Tilo (السماء) باعتبار أنها تهيمن على كل ظواهر الجو الحتمية والتى تجل عن الحصر ، كما تهيمن على المزارع ، وبقاء البشرية ، ويخاطب القوم تيلو بلفظ هوزى Hosi أى السيد ، ويبدو أن تلك القوة لاتكاد يحدها نطاق الشخصية فهى إلى حد ما قوة خالقة ، إلى جانب كونها كناية رمزية للجو وقوة ذات جبروت تعمل فى الكون .

ولقد ظهرت هذه المعتقدات فى صورة متبلورة عند الأمازولو فنجد إله الخليقة انكلونكولو Unkulunkulu الكائن العظيم جدا وإله الجو انكوزى Inkosi أو الزعيم الذى يشبه فى كثير من الوجوه تيلو Tilo لدى التونجا Thonga ؛ وقد خرج الجنس البشرى طبقاً لأساطير الزولو من مخدع من الغاب (تثلانجا Nthlanga) وأن انكلونكولو هو الذى أطلق الأمم من التثلانجا ولذا يعتبر خالق الانسان كما أنه هو الذى أبدع الشمس والقمر وغيرهما . وأن كل الموجودات على حد تعبير الأمازولو قد أبدعها انكولونكولو أول إنسان فى الوجود ، وهو وحده الذى صنعها . وهو فى نفس الوقت السلف الأعظم للشعب . غير أن بيته لايمثل على الأرض فى هذه الأيام ، فقد جاء قبل الناس جميعاً . وعلى الرغم من أن انكولونكولو يستحوذ على قوى وسلطان أبعد

مدى مما يستحوز عليه أسلاف الأحياء من الناس ، فليس معنى هذا أن يقارن بعقيدة اليهود أو المسيحيين في الخالق . فهو الإنسان الأول العظيم الرائع بيد أنه لا يتلقى فروض العبادة فليس يوجد على الأرض من يمثله تمثيلا صادقا . أما انكوزى (ازولو Izulu) فهو فى عالم الأفلاك وهو الذى يبعث العواصف والأحداث الطبيعية . وهنالك نفر من الناس المقربين إلى ازولو أو انكوزى وفى استطاعتهم سيادة السماء إن هم عاشوا حياة صفاء وطهر ملتزمين طقوساً صارمة ، كما ان السماء بدورها تنتقم لهم ممن يلحق بهم أى ضرر أو أذى .

ولأمثال هذه المعتقدات شبيه لدى الموديمو Modimo عند القبائل الوسطى وعند الكالونجا Kalunga (أوفامبو Ovambo أولدى الندجامبي والكارونجا Nljambi - Karunga (أوفا هيريرو Ovahcrero) من قبائل ناما كولاند Namaqulland من البانتو الغربيين .

ومن وجهة التوزيع السياسي يوجد البانتو الغربيون فى الكمرون الفرنسية وريو منتى Rio Munti الأسبانية وجابون Gaboon الفرنسية ، وإفريقية الاستوائية الفرنسية والكنغو البلجيكية ، وانجولا البرتغالية وردوديسيا وجزء يسير من شرق إفريقية البرتغالية شمالى نهر الزمبيزى . وفى هذه الرقعة الواسعة يقع قلب أفريقية الحقيق ، فهنا غابات الكنغو الاستوائية بامطارها الغزيرة ، حيث مأوى الوحوش التى لا نعرف عنها سوى النزر اليسير أمثال الأوكابى Okapi وهنا أيضاً قبائل الأقزام القناصة بعاداتها ومعتقداتها التى نجهل كل شىء عنها تقريبا . ثم إن هذه المساحة الجغرافية تشمل أو كانت تشمل فى الماضى حدود ممالك كثيرة دقيقة التنظيم كممالك الكنغو والبالوندا Balunda فى العصور الوسطى وامبراطورية البوشنجو Bushongo فى العصور التى تلتها — وقد أورد جونستون Johnston فى مؤلفه الضخم عن لغات البانتو ذكر نيف ومائة وخمسين قبيلة فى تلك المنطقه تتكلم لغة البانتو أو لغات قريبة منها . ولا نملك هنا أكثر من الإشارة إلى بعض المجموعات ذات الأهمية الخاصة أو التاريخية .

أما من الناحية الاثنولوجية فالحافة الشمالية للبانتو الجنوبيين تندمج تدريجيا فى القبائل الوسطى للبانتو الغربيين كما هو حال قبائل الباروتسى Barotse حيث نجد أحد فروعها الملقب بالالوى Aluyi يقع فى منطقة نفوذ السادة الجنوبيين. وبالمثل يلاحظ بين الباجوكى Bajokwe أوكيوكو Kioko فى أنجولا والكنغو بعض التشابه مع الجنوبيين ، بينما نجد البايلا وهم مهاجرون من البانتو الشرقيين مختلطين بدرجة كبيرة مع الومبا Wemba وإلى الشمال من تلك القبائل وقريباتها نجد كتلة قبائل اللوباومبا Luba-Wemba التى يمتد توزيعها على وجه التقريب فيما بين تنجانيقا ونياسا فى شرق كاساى Kasai غربا ، وإلى هذه المجموعة ينتمى الباشيلانجى Bashilange ، وباهمبا Bahemba أو كما تسمى أومبا Awemba وبابيسا Babisha وبانالولوا Banalulua وباسونجى Basonge وباروا Barua التى تعتبر بمثابة الحد الدال على قبائل بالوباهمبا Baluba-hemba وإلى الشمال من نهر سانكورو Sankuru وجزء من كاساى يوجد خليط من القبائل يطلق عليه اسم الباسونجومينو Basongo-Meno التى تعتبر بمثابة حلقة اتصال بين مجموعة لوبا ومبا Luba-Wemba وبعض القبائل الأخرى أمثال باتيتلا Batetela وبانكوتو Bankutu التى تقيم إلى الشمال من خط ٤ جنوباً . وإلى الشرق من نهر لوانجوا Loango تقع منطقة نفوذ باكونجو — باشيليلى — بوشونجو Bakongo-Bàshilele-Bushongo وقد عرفوا بوجه خاص بمهارتهم فى الحفر على الخشب . وحدود البانتو الغربيين كما أشرنا من قبل ليست واضحة ، ذلك أن تكوين امبراطورية اللوند Lunda Empire وغارات الجاجا Jaga وماتلاها من اعتداءات الباجوكوى (كيوكو) Bajokwe - Kioko كان لها أعمق الأثر فى إضعاف التنظيم القبلى. ويحتل الباتيكى Bateke (الأنزيك Anziques والانجيكا Angica وغيرهم اقليماً متسعاً على الضفة اليمنى للكنغو شمالى ستانلى بول Stanley Pool متوغلين فى انتشارهم نحو الداخل . والمنطقة الممتدة من أقصى الشمال من جابون Gaboon حتى أعالى أوجوى Ogowe آهلة اليوم بالبانجوى Pangwe الذين تميزت حياتهم بعدم الاستقرار والذين خلفوا آثاراً لا تمحى خلال حملاتهم العديدة وفتوحاتهم المؤقتة فى معظم القبائل

شمالى الاوجوى ، حيث نقاء العناصر أمر نادر الوجود . فإذا بلغنا الكمرون وصلنا إلى الحدود الشمالية للبانتو وهنا يبدأ أثرالنفوذ السودانى بشكل واضح.

ويحدثنا المكتشفون الأوائل عن بعض المظاهر فى مملكة الكنغو القديمة، فحين صدع الملاح ديجوساؤو Diego Cao بأمر البرنس هنرى عام ١٤٨٤ واكتشف الكنغو ألفى هذا جميع الزعماء المسيطرين على المنطقة من البحر إلى نهر الكوانجو Kwango ومن الكوانزا Cuanza إلى كويلو Kwilu تحت إمرة ملك واحد . ويحفظ لنا ماروواه نيفت Knivet سجلا عن الحال الذى كان عليه حكم الملك فى نهاية القرن السادس عشر . ويقول أنه « عندما يتوجه ملك الكنغو إلى المعسكرات ليتفقد جيشه ، يعتلى ظهر فيل تحفه مظاهر الجلال والسلطان . وعلى جانبي الفيل يسير ستة من الأرقاء من بينهم اثنان كانا ملكين أسرهما هو بنفسه فى حومة القتال . أما الباقون فجميعهم من سلالة النبلاء ، وبعضهم أشقاء ملك انسيكا Ancica (ارض باتيكى Bateke بالقرب من ستانلى بول) والبعض الآخرمن أرفع أقارب ملك بنجالا Bengala (امبانجالا Imbangala وهى اسم آخر للجاجا Jaga أو فرع منها) ثم يتبع ذلك إلى حديث بصوت مرتفع يدور حول الاشادة بذكر المليك ، والتمدح بفضائله وجرأته فى القتال ، وإطراء حكمته فى كل ماصنع وما أبرم . . . . » .

وإذا صرفنا النظر عن جانب المغالاة فى الروايات السالفة، ويمكنا أن نقول بصددمانقله نيفت Knivet إن الفيل الذى أشار إليه لابد من أن يكون مستأنسا — فما من شيء يدحض الدليل على وجود مملكة هامة عظيمة فى الكنغو فى يوم من الأيام ، أضف إلى ذلك أن بعض الأمبراطوريات أمثال امبراطورية لواندا Lunda نهضت وسادت فترة من الزمن ثم دالت دولتها وتلاشت حتى أننا لنجد فى هذه البقعة ، تباينا ملموسا فى ممالك ساحل غنيا التى يغلب عليها صفة الدوام نسبياً .. وهنا نجد مايحول — على ضوء معلوماتنا الحالية — أن ندعى بأن هذانتيجة لاندماج الدم الحامى ، بل لعل أسلم السبل أن نتبين أثر البيئة نفسها؛

وفى حالة مملكة الكنغو، يتركز هذا الأثر فى دخول المسيحية وتأثيراتها بصورة قوية منذ عهد مبكر . وقد كان السكان فيما يظهر يتألفون من شعوب تعيش فى مجموعات مستقلة ضئيلة العدد فى أغلب الأحوال لاتحتكم إلى أية حكومة مركزية ثم لم تلبث أن ساعدت القوة العسكرية المتفوقة للقبائل المهاجرة على إيجاد نوع من الإدارة السياسية بعض الوقت إلا أن ظروف البيئة ، ومن المحتمل أيضاً النفور الشديد من مثل هذا الشكل من الحكومة ، كانا يؤديان دائماً إلى الانحلال السريع . وغالباً ماترجع نشأة الدولة فى هذه الجهات إلى فرد أجنبى فائق المقدرة والاستعداد، وهذا ماينطبق على امبراطورية لوندا التى جرى العرف بأن مؤسسها صياد من بالوبا Baluba فى الشمال الشرقى جاء بصحبة عصابة من الاتباع واستقر بين البالوندا Balunda باعدادهم الغفيرة فى المرتفعات التى تضم أنجولا الشرقية والقسم الجنوبى الغربى من الكنغو . وتلك الامبراطورية التى ازدهرت إبان القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت تمتد من نهر كوانجو إلى اللوالاب . وهى لاتهمنا من الوجهة التاريخية فحسب ، بل من حيث أثرها فى تشكيل الحدود فى الوقت الحالى . ولقد كان ابن مؤسس امبراطورية اللوندا Lunda (وقد أنجبه من امرأة عريقة من قبيلة لاوندا) يسمى يانفو فأصبح مواتايانفو Muata Yanvo هو اللقب المتوارث لأباطرة لواندا وقد دأب هؤلاء الأباطرة على زيادة سلطانهم ببعث أقاربهم لتكوين ممالك موالية وبهذا الشكل نشأت دولتا كازمبى Kazembe فى الشرق وماى موينى Mai Munene فى الشمال ، كذلك كانت مملكة كاسنجو إلى الشمال قليلا على نهر لولابا احدى الممالك التى تولدت عن امبراطورية اللواندا وقد تقسمت عن طريق الأب بالوبا Baluba إلى عدد كبير من القبائل انتشرت بعرض القارة حتى كاساى ويعرفون فى القسم الشرقى باسم الباشيلانجى Bashilange والباسونجى Basonge قسم هام من البالوبا ، وإلى الشمال منهم يقيم الباتيتيلا Batetela وفى اقليم الكاساى يسكن شعب له أهمية خاصة يقال له شعب الباكوبا Bakuba ويدعون أنفسهم كما تعرفهم الشعوب الأخرى باسم باشنجو Bushongo أى شعب السكين المصوبة وينتظم عدداً من هذه القبائل الفرعية أهمها البامبالا Bambala وقد جاء هذا الشعب من الشمال الأقصى حول منطقة نهر أوبنجى Ubangi

وشارى Shari وترجع أهميتهم الخاصة إلى كونهم أسسوا امبراطورية بلغت ذروتها أبان الوقت الذى تأسست فيه امبراطوية اللوانداLuanda كما أنها كانت لاتزال محتفظة بأهميتها عندما ذهب المستر توردى Torday لدراستها منذ بضع سنوات . وإلى حد ما نستطيع أن نعتبر نظامهم الاجتماعى السياسى انعكاساً لنظام مملكة الكنغو القديمة .

ونتيجة لهذه الغزوات وغيرها يمكن القول بأن قبائل البانتو فى الكنغو تنتظم بمجموعتين هما المجموعة الغربية والمجموعة الجنوبية . وتشمل المجموعة الأولى شعوب الكنغو الأدنى والكاساى الأدنى أما المجموعة الثانية فتشمل أعالى كاساى والسانكورو Sankuru وكاتنجا Katanga وهذا التقسيم يرتبط بعض الشيء بالحدود الشمالية لأراضى البالوندا Balunda والبالوبا Baluba ومن يلوذ بهم من القبائل الأخرى .

أما فيما يختص بالمميزات الجسمانية للبانتو فى الكنغو فمن الجلى أنه لا مفر من وجود نواحى اختلاف وتباين فى مثل هذه المساحة الجغرافية الكبيرة . وبوجه عام يلاحظ أن الرأس طويل ، والأنف عريضة ومفرطحة (فطساء) فى الغالب كما يوجد فى العادة بروز ملحوظ، وأما الشفاة فغليظة والسيقان نحيلة كما هو المألوف بين الزنوج . بيد أننا نجد فى بعض القبائل كالباتاتيلا Batetela ظاهره الرأس المستديرة تماما . كما أننا نصادف فى كل منطقة تقريباً أفرادا تبرز فيهم الصفات الزنجية بالدرجة الواضحة عند اخوانهم . فهم يتميزون بشفاه أقل غلظة ، وأنوف أكثر ارتفاعا وأقل تفرطحاً وشعر أكثر نمواً على وجوههم، كما أن لون بشرتهم فى الغالب أفتح قليلا ، ومن المتعذر علينا أن نجرى لهم تصنيفاً مفيداً فى ضوء ما لدينا من معلومات فى الوقت الحاضر ما دمنا نرى هذين النوعين المتباينين موجودين فى القبيلة الواحدة بل وفى نفس القرية .

ولعل المقاييس التالية تضفى شيئاً من الدقة على تلك الأقوال التى تجنح إلى التعميم فقبائل الفيوتى أوالفجورت Fiote or Fjort فى حوض الكنغو الأدنى

(أى فى تلك المساحة التى كانت القلب الثقافى النابض لمملكة الكنغو القديمة ، تتميز بالرأس المستطيل ومتوسط قامتهم ٦٦ بوصة ، بينما يتميز الباكونجو Bakongo جنوبى النهر فى منطقة الشلال الممتدة إلى ستانلى بول بنسبة رأسية قدرها ٧٤ وقامة تبلغ ٦٥ بوصة ، على حين نجد البانجالا Bangala قرب انحناء النهر فى الوسط مستطيلى الرأس على نحو أوضح كما أن قامتهم أطول بعض الشىء . أما الباسوكو Basoko عند التقاء الكنغو بالأرويمى Congo-Aruwimi فأقصر قامة إذ يبلغ متوسط طول القامة بينهم ٦٣ ¾ بوصة ونكاد نعتبرهم عراض الرأس ، فالنسبة الرأسية تزيد قليلا بينهم على ٨٠ ، وكل هذه القبائل توجد فى منطقة نهر الكنغو الرئيسى . أما القبائل التى تحتل روافده كالبالوبا فى الكاساى وسانكورو فتتميز برأس متوسط ولكنه أدنى إلى أن يكون عريضاً فى أغلب الأحيـــان . ويتراوح طول القامة بين ٦٦ ½ بوصة ، ٦٥ ¾ بوصة . وتصل النسبة الرأسية بين الباتيتلا Batetela فى لوبيفو Lubefu إلى متوسط قدره ٧٨ للجمجمة ويقابل هذا المتوسط ٨٠ عند الأحياء . والمقاييس الخمسة العالية التى أخذت أظهرت أحجاما تتراوح بين ٨١ ، ٨٤ . ووجد فى مقاييس المجموعة كلها أن هناك ٩ فى كل ٥٠ (للذكور) ، ٢ فى كل ٢٧ (للأناث) . تبلغ النسبة الرأسية ٨٠ فصاعداً .

وأرقى جماعات البانتو الغربيين تقدما فى النظام الاجتماعى هم البوشنجو Bushongo بين نهرى السانكورو واللولوا ، فلديهم نظام حكومى دقيق للغاية قوامه عدد من الكهنة الوزراء على رأسهم الملك نيمى Nyimi وتتكون الوزارة من الوزير الأول (كيمى كامبو) Kimi Kambo ووزير الحرب (نييبتا) Nyibita. وممثلى الأقاليم الأربعة التى تنتظمها المملكة ، وسيدتين يتحتم أن تكونا من بنات ملوك سابقين . واحداهما تفوق الأخرى وهى التى تطوق جيدها فى زمن السلم بوتر قوس فإذا ما اندلعت الحرب تخلعه وتسلمه إلى (نبيتا) وزير الحرب فى هيبة ووقار . وفى يدها وحدها حق إصدار القرار النهائى بالدخول فى الحرب ، أو الاحتفاظ بالسلم . ويلى هذه الطائفة النبيلة عدد كبير

من المراتب خاص برجال البلاط وممثلى التجارة والنقابات والقبائل الثانوية بما فيها الأقزام . وثمة شخصية هامة أخرى هى شخصية المؤرخ الذى يشترط فيه أن يكون ابنا لملك وله الأفضلية على سائر الأمراء ، ومهمته الابقاء على الأساطير القديمة والتاريخ وفى اجتماعات المجلس الأعظم يجلس الملك على مصطبة يحوطه وزراؤه الستة من الذكور والسيدتين وإلى جانبه وعلى مقعد أعلى تجلس أمه التى يعتبر مركزها ارفع مكانة من مركز الملك نفسه . ويقوم كثير من الرجال الرسميين بالأعمال القضائية بحكم وظيفتهم كما أن هنالك أيضاً إثنى عشر قاضياً . ومن الناحية النظرية يرشح الملك مستشاريه ، وفى الحقيقة ليس له القول الفصل فى هذا الشأن . فالنقابة أو الطائفة نفسها هى التى تقرر من يمثلها كما أننا نجد الرأى العام فى سائر النواحى الأخرى هو الذى يبرم ويفصل فى جميع الشئون بغض النظر عن رغبات الملك التى قد تتعارض مع رغباته .

وسلطة الملك الزمنية محدودة فى الواقع إلى أبعد حد ممكن . حتى أنه لا يزيد عن كونه الزعيم السياسى للقطر عند بعض القبائل الفرعية مثل البانجوجو Bangongo والبانجندى Bangendi ولا يعتبر الملك عند البامبالا Bambala الزعيم الزمنى فحسب بل هو الزعيم الروحى أيضاً وحلقة الإتصال التى تربطهم بعضهم ببعض إذ يمتد نسبة إلى بومبا Bumba المؤسس الأول ، وهو بهذا الشكل يعد شمبى كونجى Chembe Kunji (إله على الأرض) . وفى كل ملك تتجسد روح بومبا الذى يجعل الشمس تشرق ، ويرسل المطر كما أنه المسئول عن نماء الكائنات الحية وخصبها ، وأن أية إهانة توجه للملك تعد إهانة للقبيلة كلها ، وأى إضعاف لقوته يعد خطراً على الشعب بأسره ، والواقع أن مركزه بين شعبه يشبه مقام ملك الشلوك . ولم يكن يسمح له فى الأزمنة السالفة بأن يلمس الأرض فكان يحمل على أكتاف الرجال وعندما كان يجلس كان يتخذ من ظهر أحد الأرقاء مقعداً .

وتمضى سلسلة نسب الملك إلى مائة وعشرين سلفا . ومن مراسيم حفلة التتويج أن يلقى الملك المنتخب على سامعيه أسماء هؤلاء الأجداد جميعهم ، والأسماء

القديمة بطبيعة الحال خرافية أكثر منها تاريخية غير أن واحداً من هؤلاء الحكام وهو شامبا بولونجو Shamba Bolongongo بطل بوشونجو Buchongo الوطنى الذى ينسب إليه كل العجائب الممكنة وتقتبس أقواله فى كل المناسبات، كان فيما يظهر إنسانا فذا فقد أعاد تنظيم الحكومة وشجع الفنون والصناعات وسعى إلى إلغاء الحروب بابطال استعمال القوس والسهم والشونجو (السكين المشددة) التى كانت حتى ذلك الوقت سلاح بوشنجو الوطنى . كما يقال أن عصره قد تميز بدخول الدخان واستخدام زيت النخيل وممارسة فن التطريز الذى تفوق فيه باشنجو Bushongo على سائر شعوب أفريقية كما استنبت نبات الكاسافا

ويصل الحد الشمالى الغربى للبانتو إلى الكمرون حيث نجد (إلى جانب الأقزام ، قوما من الزنوج يتكلمون السودانية . ويحتل البانتو بوجه عام نطاق الغابات بينما يحتل الزنوج السودانيون نطاق السفانا والمرتفعات . ولكن ينبغى ألا نغفل الاشارة إلى عدد من القبائل تعيش على طول خط الاتصال ، يقال إنها تتميز بخصائص جنسية مختلطة وتتكلم لهجات توصف بأنها شبيهة بالبانتو ، ولا يبدو أن هنالك فارقا عاما بين الخصائص الجسمانية للبانتو والخصائص الجسمانية للقبائل الناطقة بالسودانية فى الكمرون . فطول القامة يكاد يكون واحدا ، وإن كان وجود الأقزام من ذوى الرؤوس المستديرة فى هذه المنطقة يمكن أن يؤول إلى اتجـــاه عام نحو استعراض الرأس ، وأى اختلاف فى شكل الرأس لا يكاد يظهر فى المتوسط بقدر ما يظهر فى النسب المئوية فى هذه البقعة التى يغلب عليها الخلط والامتزاج . فبينما نجد المجموعتين فى أساسهما من متوسطى الرأس نرى البانتو أدنى إلى الرأس المستطيل على حين نرى السودانيين أدنى إلى الرأس العريض .

والبانجوى Pangwe والأوشيبا Oshyeba الناطقتان بلغة البـانتو (ويجب هنا ألا نخلط بين البانجوى والمبنجوى Mpongwe وهؤلاء من شعوب البانتو واستقروا فى جابون) بجموعة من القبائل تعرف باسم الفنج ويبدو أنها

نشأت فى مكان ما جهة الغرب من التقاء النيل بالكنغو ثم قامت بعدد من الغارات تجاه الغرب نحو الساحل . وهى الآن أهم شعب فى جابون وتحتل أغلب المساحة الجغرافية بين الحدود الجنوبية لغانا الأسبانية ونهر أوجوى ، وقد ذاعت شهرتهم لدرجة كبيرة كآكلة لحوم البشر ، وقد كتبت عنهم مارى كنجسلى Mary Kingsley فى شىء كثير من المبالغة وتقول عنهم إن الواحد منهم يأتى أعمال التوحش على طريقة خاصة كما يتراءى له ، فهو لا يتوانى عن التهام أقرب الأقربين القاطن بجواره ، ويبيع موتاه إلى جاره ولكنه لا يشترى الرقيق أو يسمنهم كما تفعل بعض قبائل الكنغو الوسطى ، فهو لا يملك أرقاء ولا أسرى حرب وليس له مدافن . . والفانج من الناحية الجسمية طوال القامة يبلغ طول قامتهم فى المتوسط ٦٦½ بوصة ، ورءوسهم متوسطة بدرجة كبيرة إن لم تكن مستعرضة،وعندما عرض لهم بوديخ Bowdich منذ أكثر من قرن، وصفهم بأنهم قوم يسكنون أواسط القارة ولهم تقاطيع منسجمة نسبيا حتى ظنهم أنهم ذوو صلة بالفولانى، ومعنى هذا أنه يجب أن نتبين فيهم الآن أثرا حاميا واضحا ، ولا شك فى أن امتزاج السلالات كان يسير بخطى سريعة خلال القرن الماضى، إلا أنهم يوصفون فى الوقت الحاضر ، بأنهم ذوو قوام رشيق فيمتازون بالطول والنحافة ، واللون البنى الذى يضرب فى الغالب إلى الصفرة ، واللحية الكاملة النمو والجبهة البارزة وبعض شهرتهم بالقسوة يرجع إلى اعتيادهم سن قواطعهم وأحيانا أسنانهم الأمامية حتى تصير مدببة الأطراف .

الفصل التاسع

البانتو الشرقيون

من بين البانتو الشرقيين تتميز القبائل أو الشعوب التي تتجمع حول شواطىء بحيرة فكتوريا وبحيرة البرت بأنها تشترك في جملة من الصفات التي تجعل من الممكن أن يشملها جميعاً لقب بانتو البحيرات Lacustrians اللاكوستريين (المجموعة الاولى «١» المشار اليها سابقا) وقد كونت هذه القبائل على مدى طويل ربما بلغ مئات السنين إمارات متعددة اشتهر من بينها الباجندا Baganda والبانيورو Banyoro ، والكراجوى Karagwe ، ولكن تاريخها يشير أيضاً إلى أنها انخرطت جميعاً في فترة من تاريخها تحت لواء امبراطورية كيتوارا Kitwara ومن قبائل بانتو البحيرات الأخرى قبائل وارواندا Waruanda شرقي بحيرة كيفو Kivu وقبائل وارندى Warundi شمالي بحيرة تنجانيقا ، وقبائل واسكوما Wasukuma في المنطقة التي تعرف باسمهم في جنوبي بحيرة فكتوريا ، وقبائل وانياموزى Wanyamiwezi في منطقة انياموزى Unyamiwezi شرقي بحيرة تنجانيقا ، ويبدو أن جميع هذه القبائل قد دخل فيها عنصر حامى من الجالا نتج عن اختلاطهم بقبائل الباهيما Bahima وهو اختلاط أحدث عهداً من تلك الموجات الحامية التي اختلطت بالزنوج وتكونت منها أصلا شعوب البانتو .

ولنعد بالحديث إلى امبراطورية كيتوارا التي تتحدث عنها الشعوب التي انضمت تحت لوائها ، كل بالطريقة التي يتمكن بها من إبراز أمجاده الخاصة ، ومع ذلك فانها تتفق جميعاً في أن مؤسس هذه الامبراطورية وحاكمها الأول هو كنتو Kintu قد جاء من الشمال ومعه بقرة واحدة ودجاجة واحدة وجذراً

لشجرة موز وآخر للبطاطا والتى سرعان ما أثمرت وأتت أكلها بطريقة خارقة جعلت هـذه الأرض عامرة بهذه المحاصيـل وكانت البطاطا من نصيب منطقة Banyoro بينما كان الموز من نصيب أوغندة . وعندما أصاب كنتو الإعياء من سفاهة قومه ومعاركهم اضطر إلى الاختفاء . ولما كان معروفا لدى أتباعه أنه لم يمت أصبح من واجباتهم التقليدية أن يبحثوا عنـه ، وأخيراً عثر عليه أحد ملوكهم وإسمه معاندا Ma'anda وألقاه شيخاً عجوزاً يجلس على عرش وسط الغابات ، وكانت لحيته بيضاء من الشيخوخة وكان أتباعه ذوى بشرة بيضاء كالبصل الأبيض ويرتدون الملابس البيضاء وتمضى الأسطورة فى زعمها بأن الملك معاندا قد قام بقتله ، وبهذا انتهى عهد كنتو كما اختفى أتباعه عن الأنظار أيضاً . وهكذا نجد أنفسنا أمام قصة واضحة تشير إلى مجىء أرستقراطية بيضاء « حاميـة » من الشمال ، وقد أورد أمين باشا قصة مماثلة ولو أنها أقل تعقيداً .

ولاشك أن مايوجد من مزيج غريب بين العناصر البدائية والعناصر المتقدمة فى ظواهر الحياة الاجتماعيـة فى مجتمعات بانتو البحيرات اللاكوستريين إنما يعزى جانب منه على الأقل إلى هذه المؤثرات القوقازية . ومن الأمثلة التى تدل على هـذا المزيج ما يحدث من مذابح بشرية بعد موت الملك فى قبائل الباجنـدا Baganda وهو مظهر من المظاهر البدائية ، وذلك فى الوقت الذ يوجد فيـه تنظيم حكومى يرأسه الملك الذى يعرف فى لغتهم باسم كاباكا Kabàka وله مجلس استشارى يعرف باسم لوكيكو Lukiko وأهم أعضائه رئيس الحكومة ورئيس القضاة الذى يسمى كاتيكيرو Katikiro ويضم أيضاً المسئول عن حراسة حبل الصرة الملكية التى يحتفظ بها بعد ولادته وكذلك الرئيس الأكبر من كل ولاية من الولايات الرئيسية التى تنقسم إليها المملكة .

والمفروض أن يقدم كل رئيس مطالب ولايته إلى رئيس الحكومة الذى يبلغها بدوره إلى الملك .

بيد أن امتزاج الغزاة الشماليين بجماعات البانيورو (أو على الأصح جماعات الباكيتارا كان بدرجة أقل من امتزاجهم بالسكان الأصليين من قبائل الباجندا

ومن ثم ظهرت طائفتان متميزتان فى التنظيم السياسى لملك الجماعة أحدهما طائفة الباهيما Bakima من الرعاة وطائفة الباهيرا Bahera وهم الزراع وأرباب الحرف من السكان الأصليين الذين تعتبرهم الطائفة الأولى فى منزلة الخدم أو رقيق . ثم ظهرت فى فترة ثالثة طائفة ثالثة تكون فى الوقت الحاضر الغالبية فى جماعة البانيورو (Banyora) وأصل هذه الطائفة الثالثة من أفراد الباهيرا الذين تقبلتهم طائفة من الرعاة من الباهيما وتزوجوا من بناتهم . وقد سبقت الإشارة إلى أن التنظيم الثلاثى قد انعكست صورته فى النظام الطوطمى الذى يتألف من ثلاث فئات من الطواطم ترتبط إحداها بالماشية وثانيتها بالماشية والنبات معاً ، وثالثتها بالنبات فقط . هذا والاعتراف بمثل هذه الفئات الثلاث إنما هو من نوع التقسيم المصطنع لتبسيط الموضوع .

على أن عملية التمثيل والامتزاج مع المؤثرات الشمالية لم تتم مع جماعة البانيانكولى Banyan Kole بنفس المدى الذى بلغته مع الباجندا أو حتى مع البانيورو . ويمكن القول على وجه التحقيق أن هذا التمثيل لم يتجاوز الاشتراك فى لغة واحدة بين الجماعة الدخيلة من الباهيما والسكان الأصليين من الباهيرا . والجماعة الأولى تعتمد فى حياتها على البقر ، فيملك أغنياؤها قطعانا كبيرة منه بينما يقوم فقراؤها برعيه . أما جماعة الباهيرا فلم يسمح لها إلا فى حالات نادرة أن تملك الماشية ، وكان عليها أن تعمل على تزويد الباهيما بما تحتاج إليه من الحبوب وشراب البوظة .

ويوجد بين قبائل الباجندا اختلافات كبيرة فى السمات الجسمانية ، وخاصة فى لون البشرة ونوع الأنف وغلظ الشفاة وغيرها من السمات التى تتأثر تأثراً ملحوظاً بمدى اختلاط العائلة أو القبيلة بالدم الحامى أو الزنجى ، إلا أن هذا الاختلاط لم يؤثر عموما فى طول القامة وشكل الرأس ، كما يتضح من المقاييس العديدة التى نشرت عنها . ويمكن اعتبار أفرادها من ذوى الأجسام الممتلئة المتوسطه الطول (حوالى ٦٥,٥ بوصة فى المتوسط) وتتراوح النسبة الرأسية

بينهم من ٧٢ إلى ٧٥ حسب النمط الغالب فى كل قبيلة ولكن المتوسط العام يبلغ حوالى ٧٣ أو يزيد قليلا . ولكن يبدو الاختلاف الواضح بينهم وبين جيرانهم فى النواحى السيكولوجية .

فإن أدبهم الجم كان دائماً مضرب الأمثال ، كما يتميزون عموما بحسن الهندام ونظافة المسكن وهى صفات لا تتوفر فى القبائل التى تجاورهم . وللرجال نظرة خاصة فى آداب السلوك والمظهر ، يحرصون على مراعاتها حتى ليقال إنه فى عهد الملك Metusa فرضت غرامة باهظة على رجال حاشيته الذين كانت تظهر سيقانهم عارية فى الحضرة الملكية . هذا فضلا عن أنهم أظهروا رغبة فى التعليم واستعداداً لتقبل حضارة الرجل الأبيض وديانته . ومهما كانت وجهة النظر فى هذا الاستعداد فإنه يجعل لحياة الباجندا طابعاً متميزاً عن جيرانهم . فبيت الرجل الميسور منهم يفضل كثيراً الكوخ الأفريقى المعروف ، سقفه المقوس مرتفع يسنده قوائم من جذع النخيل الباسقة وتغطيه طبقة من القش تكون رقيقة عند النهايات ، ويزين داخل البيت وأحواشه بأنواع من الزينة المصنوعة من الغاب والأعشاب ، والمعروف أن قبائل الباجندا تتميز بمثل هذه الأشغال الفنية .

ويتكون مقر الملك أو قصره عند قبائل بانتو البحيرات من مجموعة كبيرة من المبانى الفاخرة بعضها سور واحد . وفى هذا المقر توجد المبانى التى تودع فيها الطبول الملكية المقدسة وتقدم القرابين من البوظة واللبن لهذه الطبول عند جماعة بانيانكولى على الأقل . وللملك كذلك قطيع خاص مقدس يختص به عند جميع هذه القبائل ، يشرب لبنه وسط مظاهر الاحتفاء التقليدية . وتخضع الآلهة المتعددة فى أوغندة لسلطان الملك مباشرة . بينما توضع معبوداته الخاصة من الأرواح فى مصاف الآلهة نفسها وتحاط بآيات مماثلة من التكريم والقداسة . وقد كان موت الملك فى الأزمنة السالفة مصحوباً بكثير من المذابح البشرية ، إذ يروى أن أحد ملوك بانايورو دفن فى مقبرة مع زوجاته الأحياء وكذلك دفنت معه رهائنه أحياء ، وكان قد كسر أيديهم وأرجلهم أثناء حياته حتى لا يقدروا على

الهرب . وفى حاله الباجندا كان انطفاء النار المقدسة التى تشتعل أمام مدخل السور الذى يحيط بقصر الملك إعلاناً لنبأ وفاته . ويستتبع موته خنق الرئيس المكلف بحراسة هذه النار ، وكان يوارى جسد الملك التراب بعد معالجته بطرق خاصة كما يدفن معه عدداً من الضحايا ، وبعد مرور خمسة أشهر من دفنه تنتزع عظمة الفك من الجمجمة وتوضع مع حبل الصره — الذى كان يحاط بعناية تامة أثناء حياة الملك — فى معبد خاص تقوم على حراسته الملكة السابقة . ويدفن الرجل العادى من قبائل البانيانكولى فى كومة من روث الماشية بينما كان يؤخذ جسد الملك إلى مدفن ملكى خاص فى غابة انسانزى Ensanzi وبعد بضعة أيام من الدفن يأتى كاهن المدفن بشبل من أشبال الغابة ويقدمه لأفراد القبيلة على أنه روح الملك الفقيد . ويتم على أثر ذلك دفن الملك فى طقوس محدودة . أما الشبل فإنه يربى بعناية فائقة لمدة معينة يطلق سراحه بعدها لينضم إلى أقرانه من أسود الغابة التى يسود الاعتقاد بأنها تمثل أرواح الملوك السابقين ، ولذلك كانت الأسود مقدسة فى هذه الغابة ، بينما نجدها عرضة للقتل دون مبالاة فى جهات أخرى من المملكة.

وباستثناء جماعة بانتو البحيرات يمكن تقسيم البانتو الشرقيين إلى قسمين كبيرين هما القسم الشمالى الشرقى والقسم الذى يمكن تسميته حقيقة بالشرقى . أما القسم الشمالى الشرقى من البانتو الشرقيين (مجموعة ا ب فى الخريطة) فإنه يشمل قبائل واوكومو Wapokomo التى تقطن وادي تانا Tana وقبائل وانييكا Wanyika وقبائل أكامبا Akamba التى تقطن المنطقة الواقعة بين نهر تانا وجبال كليمنجارو ، وقبائل اكيكويو Akikuyu حول جبل كنيا Kenya وقبائل واتايتا Wataita فى منطقة تلال تايتا ، وقبائل واتشاجا Wachagaa فى السفوح الجنوبية لجبل كليمنجارو . ولعل أهم هذه القبائل وأشهرها أكامبا ، وأكيكويو وقد تأثرت إلى حد كبير ، كما تأثرت بقية قبائل هذا القسم ، بحضارة جماعة الماساى وغيرها من الشعوب النصف حامية .

وتقع قبائل البانتو الشرقية إلى الجنوب من القبائل الشمالية الشرقية (مجموعة

١ح فى الخريطة) وتنقسم إلى مجموعتين (١) مجموعة الساحل الشرقى فى منطقة تنجانيقا وأفريقية الشرقية البرتغالية . (٢) المجموعة الشرقية الوسطى المعروفة باسم بانتو نياسا فى منطقة Nyasa فى روديسيا الشمالية وحول بحيرة نياسا. وتضم المجموعة الأولى قبائل وازامبارا Wasambara ووازاجارا Wasagara فى المنطقة الشمالية الشرقية من تنجانيقا ووازانجو Wasango (أو واروري Warori كما تعرف أحياناً) وواجوجو Wagogo وواهيهى Wahche فى المنطقة الوسطى والجنوبية من تنجانيقا والسواحيلى الساحلية Swahili والماكندى Makondi القاطنة بين نهرى روفيجى وروفوما وواماكوا Wamakua التى تقطن المنطقة الممتدة من جنوبى نهر روفوما حتى النصف الشمالى من دلتا نهر الزمبيزى ، وتضم المجموعة الشرقية الوسطى أوانكوندى Awankonde فى الجزء الشمالى والشمالى الشرقى من منطقة بحيرة نياسا ممتدة حتى شواطىء بحيرة روكوا Rukwa ، وافيبا Wafipa على الشواطىء الجنوبية من بحيرة تنجانيقا، أنا يانجا (Anaynja بأقسامها اسينجا Asanga وأسينا Asena واتشيو Achewa وتقع فى المنطقة الممتدة من جنوب وجنوب شرق بحيرة نياسا حتى نهر الزمبيزى ووایاو Wayao (أجاوا Ajawa) بين نهر روفوما ولوجندو Lujendo شرقى بحيرة نياسا حيث تلتقى بقبيلة واماكوا .

ومما هو جدير بالذكر أن عدداً من هذه القبائل ينتمى إلى حد كبير لهجرات البانتو الأولى ، وأن بعض ما حدث من تحركاتها الطبيعية شمالا قد أدى إلى وقوع الاضطراب بينها وذلك قبل هجوم الجماعات العربية وإغارات الزولو (أنجونى Angoni) التى أضيفت إلى أسباب انتشار الخراب والدمار بين تلك القبائل .

وتشتق قبائل وانايكا (وهى من قبائل البانتو الشرقية الشمالية مجموعة « ١ ب ») اسمها من أحد ألفاظ اللغة السواحيلية الذى يعنى (بلاد الغابات والشجيرات الشوكية) وتتألف من مجموعة من القبائل اضطرت إلى الهجرة فى القرن السادس عشر تحت ضغط قبائل الجلا من المنطقة الفقيرة الواقعة على الضفة الشمالية لنهر تانا إلى المنطقة الساحلية . بيد أن هذه التسمية لقبائل وانايكا

لا تطلق دون تمييز على جميع القبائل التى تتصل بها من ناحية السلالة الجنسية فلا تطلق مثلا على قبائل وابوكومو Wapokomo التى ترتبط بها من ناحية السلالة . ولعل أهم قبائل الوانايكا قبائل جيرياما Giryama التى تعيش فى الوقت الحاضر فى المنطقة التى يمر بها خط العرض الثالث جنوبى خط الاستواء ويتميز الفرد فيها عموما بالقامة الطويلة والعضلات المفتولة وحسن التكوين الجسمانى والرأس العريض . ويرتدى الرجل غطاء يستر وسط الجسم ، وترتدى المرأة رداء منكسراً يغطيها من الوسط إلى أسفل تاركة ما فوق ذلك عاريا ، إلا أن زى المرأة الحديث يتجه الآن نحو تقليد زى المرأة السواحيلية .

وتنقسم قبائل النايكا إلى عشائر يحرم على أفرادها التزاوج داخل العشيرة الواحدة وتتفق هذه العشائر فى طقوس ومحرمات معينة كما تتفق فى التقديس العام للضباع وتشاركها فى ذلك جميع القبائل المجاورة ما عدا قبيلة بوكومو Pokomo ولكل عشيرة من هذه العشائر مكان خاص للاجتماع كما يوجد مكان يجتمع فيه رجال العشائر بعضهم مع بعض وتوضع فى هذا المكان طبلة تستخدم فى الإعلان عن اجتماع مجلس العشائر . وتعتمد هذه العشائر فى معيشتها على الزراعة وترعى الكثير من الغنم والماعز والقليل من الماشية . ويحمل أفراد بعض هذه القبائل إن لم يكن كلها سيفاً يستخدمونه كأداة من أدوات العمل ، كما يستخدمونه كسلاح أيضاً . وتختص قبائل جيرياما بحمل عصا خاصة تنفرد بها دون سائر القبائل الأخرى .

وتقوم قبيلة وانيكا بعبادة الإله مولونجو Mulungu الذى تنتشر عبادته بين قبائل البانتو الشرقية والذى يعتبر ضمن ما يعتبر المتصرف الخالق الذى نتج عن امتزاجه بالأرض كل ما يعمر الكون من أشياء ومن بينها الكائنات البشرية التى هى دجاج المعبود وأفراخه الصغار .

وتقطن قبائل أكامبا وهى أكبر قبائل أفريقية الشرقية البريطانية جانباً من السفح الشرقى لمرتفعات أفريقية الشرقية فيما بين أعالى نهر تانا وسكة حديد

أوغنده ويجاورهم فى الغرب والشمال الغربى قبائل اكيكويو كما يتاخمهم فى الجنوب أعداؤهم الألداء من الماساى أنصاف الحاميين ، ويعتبر الأكامبا من ذوى الرءوس الطويلة ويبلغ متوسط طول القامة بينهم حوالى ٦٥ بوصة . وينقسمون إلى عدد من العشائر الطوطمية التى تسمى كل منها فيما يبدو باسم الجد الذى تنتمى إليه ولو أنها تسمى أحياناً باسم الطوطم . والمفروض عادة أن يتصف أعضاء العشيرة بمميزات الحيوان الطوطمى ، ولهذا فإن أفراد العشيرة التى تتخذ الأسد طوطماً لها يكونون على جانب من الشجاعة والإقدام بينما يتصف الذين يتخذون الغول طوطماً بصفة الجشع المستمر . وليس لهذه القبائل رؤساء بالمعنى المعروف وإنما يتولى الحكم مجلس من الأعيان ذى سلطة محلية محدودة وليس له سلطان شامل على جميع أنحاء الأقاليم ، ولو أن أى رجل غنى ذو شخصية قوية يستطيع أحياناً أن يصل إلى مرتبة القيادة ويبسط سلطانة على منطقة واسعة . ولمجلس الأعيان سلطات قضائية ودينية ، فهو الذى يقرر مسائل الحرب والإغارات ، كما ينوب أعضاؤه من العشائر فى تقديم القرابين . أما فى أوقات الحرب فيختار قادة مؤقتين لهذه الظروف .

ويوجد لدى قبائل أكامبا Akamba مراتب اجتماعية تقوم على أساس السن ، وتنقسم كل من هـذه المراتب بدورها إلى طبقات ويتحدد مركز المرء فى مرتبته بالكمية التى يسمح له بأكلها من لحم الماعز الذى يقدم كرسم للاشتراك فى هذه المرتبة . ويستطيع أن ينضم إلى أية مرتبة اجتماعيـة شريطة أن يسدد الرسم المطلوب للانضمام إليها ، اللهم إلا فى حالة المراتب التى تخول لأصحابها شرف الانضمام إلى مجلس الأعيان ، وهى مرتبة لا يصل إليها الفرد عادة إلا فيما بين سن الأربعين والخمسين .

وللكاهن الطبيب عند هذه القبائل وظائف متنوعة منهـا التنبؤ بالغيب ، والتبريك وعلاج المرض والاستشارة فى المواقف المعقدة فى الحياة ، كما يشترك مع مجلس الأعيان فى القوامة على ديانة الأجداد ، ويبين لهم مواعيد تقديم القرابين للأرواح ، ويزودهم بالتعليمات للقيام بالطقوس والمراسيم اللازمة .

وقد كان رجال قبائل كامبا Kamba يسيرون عراة فيما مضى ، ولكنهم يرتدون اليوم أغطية أوربية أشبه بالبطاطين . ويمارس الناس وخاصة النساء (عادة تشريط الوجه) كما يقوم كلا الجنسين بتشكيل بعض أسنان الفك العلوى فى هيئة أطراف مدببة ، هذا فضلا عن خلع اثنين من قواطع الفك السفلى وينتج عن هذه العادة أن تنكسر الأسنان العلوية بحيث يبقى منها جزءاً كبيراً فى اللثة يركب عليه أسنان اصطناعية من عظم الماعز أو التيتل ومن أسلحتهم المألوفة الخنجر والقوس والسهم ولم يستعملوا الرمح والترس كأسلحة على الاطلاق .

وتعتمد قبائل أكامبا Akamba على الزراعة اعتماداً رئيسياً فى حياتها ، ويكاد يقتصر العمل فى هذه الحرفة على النساء ويستخدمن فيها من الآلات الفأس وعصا للحفر ولايجوز استعمال الآلات المصنوعة من الحديد خشية ألا يسقط المطر . وترعى هذه القبائل الماشية والغنم والماعز ويقوم الصبيان والرجال بهذه المهمة بينما تقوم النساء بعملية حلب الألبان . وتشبه قبائل أكامبا قبائل الماساى وكيكويو فى استنزاف دم البقر الذى يعتبر من أنواع الغذاء المفضلة. ويتم ادماء البقر عن طريق ربطها ربطاً محكما بحبل حول الرقبة يحدث انتفاخاً فى الشريان الأكبر ثم يطعن هذا الانتفاخ بسهم ويجمع الدم فى اناء ليشرب أو يعمل منه حساء بإضافة اللبن أودقيق الذرة إليه .

ومن معتقداتهم أن مولونجو الخالق والكائن الأعلى يسكن فى السماء ولذلك كانت عبادته نادرة بينهم . والزعم الشائع لديهم أن الاله مولونجو لايصيبهم بأذى ومن ثم لايوجد مبرر لتقديم القرابين إليه . وتقوم كل أسرة بتقديم القرابين إلى أرواح أجدادها عند كل طعام هذا فضلا عن طقوس الديانة العامة التى يشرف عليها مجلس الأعيان .

وفى بعض المناطق لايدفن الموتى بل تجر أجسامهم إلى الأحراش وتلقى هناك لتلتهمها الضباع . ومن طقوسهم أيضاً أنه على أثر وفاة أى شخص بالقرية

لايسمح بالجماع حتى تتطهر القرية ويتم ذلك عن طريق طقس خاص تقدم فيه شاة قربانا وينثر مافى جوفها على من تجمع من المحزونين وكذلك على جدار كوخ الميت والسرير الذى مات عليه . ولا تتم عملية التطهير إلا بعد أن تنام أرملة الميت مع أخيه أو مع من يخلفه كروحله وإذا ترك المتوفى أكثر من أرملة فيكفى أن تقوم بهذه المهمة الأرملة الكبرى .

وتقطن قبائل اكيكويو مرتفعات كينيا وتزعم أنها حلت هناك محل جماعة من المشتغلين بالصيد أو من المحتمل أن يكونوا أسلاف قبيلة معروفة فى الوقت الحاضر بإسم دوروبو Dorobo وجماعة صغيرة اسمها أجومبا Agumba وهى من الجماعات التى انقرضت فى (الوقت الحاضر) وتنسب قبائل اكيكويو أصولها إلى قبائل أكامبا التى تجاورهم فى الشمال الشرقى وتتشابه معها فى اللغة والعادات إلى حد كبير ولاتختلف عنها إلا اختلافا طفيفاً فى السمات الجسمانية (النسبة الرأسية ٧٦ وطول القامة حوالى ٦٤ بوصة) .

وتنقسم قبائل أكيكويو إلى عشائر أبوية وتتزاوج داخل العشيرة الواحدة ولا ترتبط العشيرة بمنطقة معينة قدر ارتباطها بصلة القرابة . ولبعض هذه العشائر رئيس معترف به فى حين لا يوجد مثل هذا النظام عند العشائر الأخرى ولكل من هذه العشائر محرماتها وتقاليدها الموروثة فتجد مثلا أنه يحرم على عشيرة أجاتشيكو أن تعمل بالحدادة أو تشتغل بعمليات الختان . كما نجد أن الرجال فى عشيرة ماويساجا M'wesaga يختصون بالقدرة على توقع سقوط المطر والعمل على إيقافه . وتتوقف مكانة الرجل فى القبيلة على نسبته إلى الجيل الناشىء من أولاده ، فيبلغ المرتبة الأولى حين يصبح أباً لولدين إذ يدخل فى المرتبة المعروفة بإسم مورانجى Moranje ويبلغ المرتبة الرسمية الثانية المعروفة بإسم كياما Kiama حين يصل ولده البكر إلى العمر الذى يسمح له بالدخول فى زمرة القبيلة وحينئذ يصبح الأب عضواً فى مجلس الأعيان أو الطائفة الحاكمة ويتسلم شارة الحكم كما يتحلى بنوع خاص من الأقراط .

وتعتبر المنطقة التى تقطنها قبائل الكيكويو خصبة للغاية ولذلك فإن أهلها يعتمدون أساسا على الزراعة فى معيشتهم وقد قطعت الأشجار من معظم جهات هذه المنطقة وقامت المزارع الكبيرة للموز والكسافا وقصب السكر وتعتبر الماشية لديهم رمز الثراء ويتمتع بملكيتها عدد قليل كما تعتبر المعزة وحدة لتقدير الثمن ، فيقال إن الرجل قد دفع عند زواجه عدد كذا من الماعز ولو أن الدفع الحقيقى قد يكون بقراً أو غنما أو ماعزاً . وتقدر قيمة البقر إلى الماعز بنسبة ١٣ إلى ١ . ويرعى البقر على حافات المزارع ويجمع بالليل فى زرائب يقومون على حراستها حراسة تامة . والمعروف أن الرجال والصبيان هم الذين يختصون بكل مايتصل برعاية البقر من أمور . ولكل زوجة نصيب خاص من الغنم والماعز تحتفظ به ليلا فى كوخها . وناجاى N'gai اسم إله هذه القبائل مشتق من لغة الماساى وله عندهم أمكنة مختلفة يقيم فيها ولعل أهم مواطنه التى يتقدم فيها مجلس الأعيان بالقرابين إليه هى جبل كينيا والأشجار المقدسة المعروفة فى لغتهم باسم موتيموجو Mutimugu وهى فى الغالب من فصيلة ficus والإله ناجاى سميع مجيب للدعوات . أما كوارث الحياة فانها تنسب إلى أرواح الموتى وعندئذ يستدعى الكاهن الطبيب لكى يفسر للناس مقاصـــد هذه الأرواح ويوجد لديهم إلى جانب هذه الديانة العامة معتقدات شبة سرية متصلة بعبادة الأفعى ، ويقوم الكاهن الطبيب بدور هام فى المجتمع وخاصة فيما يلزم من تطهير الفرد على أثر ما يصيبه من لوثة (وهذه الحالة معروفة فى لغتهم باسم تاهو Thahu وتنتج عن العبور على جثمان الميت أو لمسه ، أو عن حفر قبر وعن أكل طعام محرم .

ويتصرفون بجثة الميت إما بالقائها فى المناطق التى ليس بها زرع أو بتركها فى الكوخ حتى تأتى الضباع لتأخـــذها . ويقتصر دفن الجثة على كبار السن والأغنياء حيث يحفر أبناء المتوفى قبره خارج باب الكوخ ويرقد الجسد على جانبه ورأسه متجه نحو الغرب وركبتاه مرفوعتان إلى أعلى . ويستقر الرأس

على راحة اليد اليمنى إذا كان الميت ذكراً وعلى راحة اليد اليسرى إذا كانت أنثى ثم يهدم الكوخ ليطهر القبر بانقاضه .

ولعل من أغرب الطقوس الشائعة لدى قبائل كيكويو الطقس الرمزى المعروف بالمولد الثانى للطفل حيث يقوم الولد أو البنت فى سن العاشرة بتمثيل لعملية الولادة . وحتى يتم هذا الطقس لايجوز لأى فرد أن يختتن أو يرث أو يشارك فى الطقوس الدينية . وإذا لم تكن أم الطفل على قيد الحياة قامت امرأة أخرى بدورها فى هذه المهمة واعتبرت أمه منذ ذلك الوقت ، وكذلك يمكن أن يقوم رجل كبير السن بدور الأب فى حالة وفاته .

وتقطن قبائل واتشاجا Wachaga على سفوح كلمنجارو ، وهى مختلطة الأصول تتألف من عدة عشائر ، يدعى معظمها الانتساب إلى جد من جماعة كامبا أو جماعة تايتا. ويبدو أن واتشاجا قد هاجرت إلى هذه المنطقة منذ بضعة قرون ومازال منطقتهم مقسمة حتى الآن إلى ثمان وعشرين إمارة صغيرة يتراوح سكان كل منها فيما بين الألف والعشرين ألف من السكان. وتعتمد هذه القبائل أساساً على الزراعة فى معيشتها ولديها نظام دقيق للرى . ولا يقوم نظام حياتها الاجتماعية على أساس القرية المتجمعة وإنما يقيم رب الأسرة بيته وسط حقل الموز الذى يملكه ، وعلى هذا النحو يبدو المشهد الطبيعى على أنه سلسلة متصلة من حقول الموز تفصل بينها أسوار من النبات ووظيفة رئيس القبيلة لديهم وراثية فى العادة تنتقل من الأب إلى الابن الأكبر من الزوجة الأولى وتعامل أم الرئيس باحترام كبير عند القبيلة ويتمتع الرئيس بسلطان مطلق وذلك على الرغم من قلة مظاهر الأبهة التى تحيط بحضرته عموما ، فلا يتميز بأى شارة من شارات الحكم، ويشاركه فى الحكم فى الوقت الحاضر مجلس من الأعيان ورؤساء العشائر المحليين ، ومع ذلك فله الحق فى أن يتصرف فى شئون القبائل بما يراه هو مناسباً .

ويسود هنا نوعان من الأكواخ ، أحدهما مخروطى الشكل والآخر قد

يكون مقتبساً من أكواخ الماساى وهو أقل من النوع الأول فى الارتفاع وذو سقف منحن انحناء طفيفاً . وتشغل حظيرة الماشية حوالى نصف الكوخ ، إذ تملك هذه القبائل أعداد كبيرة من الماشية يضطر الأفراد إلى تغذيتها داخل البيت من الحشائش التى تقطع من الوادى وهو عمل يتطلب جهداً كبيراً وذلك لندرة المراعى الطبيعية . والاقليم مزدحم بالسكان ويتميز بالزراعة الكثيفة . ومن خصائص هذه القبائل مهارتها فى أعمال الخشب كما تتميز بعض العشائر بأعمال الحدادة وتقوم ببيع جزء كبير منها إلى قبائل الماساى وليس هناك من التقاليد ما يمنع التزاوج بين مختلف العشائر .

وتتم عملية الختان لكل من الجنسين، كما توجد طقوس منظمة تهىء الشباب للدخول فى مجتمع الكبار . ولا يسمح بختان الصبيان إلا عندما يبلغ أحد أبناء رئيس القبيلة سن المناسبة وعندئذ يقوم موسم عام لختان الصبيان فى القبيلة ينضمون بعده إلى جماعة منظمة تعرف فى لغتهم باسم ريكا rika ويطلق عليها اسم معين . وهذا النوع من التنظيم مستمد أيضاً من قبائل الماساى والغرض منه تهيئة طوائف جديدة من المحاربين. أما البنت فإنها بعد أن تمر فى هذه الطقوس توضع فى قفص داخل الكوخ مدة ثلاثة أشهر ، وتقوم أمها بإطعامها مواد غذائية دسمة ويدهن جسمها بالزيت كل يوم لتصبح بعد هذه المدة مهيأة للزواج .

وعند الموت يثنى جسد الميت وتربط قدماه برأسه حتى يشبه « البرميل الصغير » ويمسح بالدهن ويلون بالمغرة الحمراء . ثم يغطى الجسد بجلد ثور يذبح بهذه المناسبة ويوضع فى القبر على هيئة الرجل الجالس مواجهاً قمة كيبو kibo فى جبل كليمنجارو . ويدفن الرجل فى كوخ زوجته الكبرى . وبعد مضى ثمانية عشر شهراً على دفنه تستخرج عظامه لتحرق وتوضع فى حقل الموز أما الجمجمة فإنها تؤخذ إلى حقل أسلافه أو توضع فى إناء فخارى خاص كما يحدث فى بعض الحالات؛ أما رئيس القبيلة فإنه يدفن فى جذع شجرة مفرغ يقفل من طرفيه ولا يدفن فى جلد العجل كما هو الحال فى دفن العامة . وقد يترك أمر موت الرؤساء سراً لا يذاع لمدة قد تطول نحو عامين — وقد كانت العادة فيما مضى ألا يدفن

الأطفال أو الأشخاص الذين لم يخلفوا ذرية بل كان يترك شأنهم للضـــياع .

وتطلق قبائل وتشاجا اسم روا Ruwa على الكائن الأعلى ، وهو نفس الاسم الذى يطلق على الشمس . بيد أن الإله روا لا يعير الآدميين اهتماما فى الوقت الحاضر ولو أنه هو الذى خلصهم أول الأمر من المركب التى كانوا مسجونين فيها . ولذلك فإن ديانة وتشاجا ترتكز على عبادة أرواح السلف ، ففيها عودة إلى أولئك المجهولين الذين يوشكون أن يندثروا نتيجة لعدم تقديم القرابين إليهم على حد تعبيرهم . ومن معتقداتهم أيضاً ألا تقدم القرابين إلى أرواح الأسلاف الذين تقادم عليهم الزمن اللهم إلا إذا كانوا من مؤسسى العشائر ، سادة الأرض وأول من استقروا فيها . وينقسم الأسلاف إلى أهل اليمين وأهل اليسار . وأرواح أهل اليمين هى الأقوى ، ويتزعمها جد الأسرة من ناحية الأب على حين يتزعم أرواح أهل اليســار جد الأسرة من ناحية الأم . وتعزى حدوث الكوارث العامة إلى غضب أسلاف رئيس القبيلة أو إلى سخط أرواح رؤساء القبـائل الذين انتزعت منهم أراضى الإقليم على أثر هزيمتهم ولذلك كان من الضرورى استرضاء أرواحهم أيضاً .

أما عن القبائل التى تعتبر بحق البـانتو الشرقيين (مجموعة حـ) فإن أهمها قبائل السواحيلى Swahili خصوصاً وأن لغتها هى اللغة السائدة فى جزء كبير من جهات أفريقية الشرقية حيث تنتشر فى منطقة ممتـدة من غربى الكنغو إلى الشرق فى مناطق البحيرات العظمى ثم إلى المحيط حتى الساحل الشمالى الغربى من جزيرة مدغشقر . والمعروف أن أرخبيل لامو Lamu هو مهد هذه القبائل ولكنهم ينتشرون الآن فى منطقة تمتد امتداداً طويلا على النطاق الساحلى من خط الاستواء شمالا حتى خط عوض ١٦ جنوباً بما فى ذلك زنجبار وبمبا Pemba ويقال إن لغة السواحيلى قريبة الشبه بلغة قبائل نجرياما ولكنها تحوى كثيراً من الألفاظ العربية ونتفا من ألفاظ لغات أخرى كاللغة الصومالية والبرتغالية ولغة الجلا . وقد نتج عن ذلك كله خليط بمؤثرات محلية مما أدى إلى ظهور عدد كبير من اللهجات المحلية فى الوقت الحاضر . ومن ثم يصبح من العسير تحديد السمات

الجسمانية فقد نجد شخصاً يقـول إنه سواحيلي وهو عربي أو على الأقل يتحدث لغة عربية جيدة ويستطيع أن يقرأ القرآن وله تفـكير متأثر باتجاهات الحضارة العربية ، وقد نجد شخصاً آخر يقول إنه سواحيلي وهو أسود البشرة زنجي الملامح أنفه أفطس وشعره مفلفل ، وأمه من الرقيق وأبوه غير معروف . والحقيقة أن جماعة السواحيلي أخلاط في أخلاط تأثرت فيهـا العناصر الإفريقية من القرن السابع الميلادي فصاعداً بموجات متتابعة من بلاد فارس والعرب المشارقة . كذلك لا ينبغي عند تقديرنا للميزات الجسمانية أن نغفل أن زنجبار ظلت سنين عديدة أكبر سوق للعبيد في افريقية الشرقية .

وتزعم قبائل ياو Yao (والتي تعرف أحياناً باسم واياوا أو جاوا) أنها من نفس السلالة التي انحدرت منها قبائل انيانجا . ويبدو أن الموطن الأصلي لقبائل ياوا كان في المنطقة الجبلية بين بحيرة نياسا وساحل موزمبيق ، ثم اضطرت بعد إلى النزوح إلى مرتفعات شاير Shire واستطاعت على مضي الزمن أن تستقر فيها جنباً إلى جنب مع السكان المحليين وأن تتزاوج إلى درجـة كبيرة مع قبائل اليانجا ويوصف أفراد هذه القبائل بأنهم قادرون على التحمل وأنهم أقوى من أفراد انيانجا ، وفيهم نسبة عالية من طوال القامة ، وتـكثر الحاجة إليهم في العمل كحمالين . وتنقسم هذه القبائل إلى عشائر طوطمية لكل منها اسم خاص تتميز به .

ومن تقاليد ياو تشـكيل أطراف القواطع العليا في هيئـة أطراف مدببة كالمنشار كما يقومون بتشريط الصدغين . ويقام للذكور والأناث طقوس تدريبية ويرتـكز الزواج بينهم على أساس مبدأ الأمومة حيث يقيم الزوج — كما هو الحال عند قبائل الأنيانجا — في البيت الذي يبنيـه الزوج عند أهل الزوجة ، وبذلك بعد أن يحصل على موافقة العروس وأقاربها وخاصة خالها . ويتم التصديق على الزواج في حفل يحضره والدا الطرفين ويأكلون خلاله الثريد والدجاج ومن أول واجبات العريس بعد الزواج أن يعزق الحديقة لحماته وبما أن مبدأ الأمومة يحتم بقاء الزوجة في بيت أهلها ، كان على الرجل المتزوج من أكثر من واحدة أن يوزع وقته بين مختلف القرى التي تسكن فيها زوجاته . ويرث الرجل في هـذه

القبائل زوجات أخيـــه الأكبر ، وقد يرث زوجات خاله إذا لم يكن للخال أخ أصغر على قيد الحياة .

وتعتقد قبائل ياو كما تعتقد قبائل انيانجا فى الكائن الأعلى المسمى مولونجو الذى ينظم أرواح الموتى فى صفوف أوطبقات كما يعتقدون أيضاً فى آلهة خاصة به ترتبط بالاقليم الأصلى الذى نزحوا منه وربما تكون هذه الآلهة خاصة بأرواح رؤساء القبائل القدامى . كذلك يحيطون آلهة الاقليم القديمة بقدر معين من الاجلال ومن أمثلة هذه الآلهة القديمة أرواح رؤساء قبائل نيانجا وخاصة الرئيس كانجمبا Kangomba الذى يقطن الجبال الرئيسية التى التجأت إليها قبيله نيانجا بعد أن أن طردتها قبيلة ياو ويلجأ أهل ياو إلى أرواح رؤساء القبيلة المطرودة (نيانجا) عند الحاجة إلى استنزال المطر . وفى هذه الحالة يطلب رئيس ياو من أحد أفراد انيانجا ممن يتصل بأسباب القرابة بالرئيس كانجمبا أن يمد إليه يد المعونة فى الدعاء ولكل قرية هناك شجرة خاصة بالدعاء تقدم القرابين تحتها . ولا توجد لديهم طائفة متخصصة من رجال الدين وإنما تؤدى الوظائف الدينيـة العامة فى القبيلة عن طريق رئيسها ، وتؤدى فى القرية عن طريق رئيس القرية ، وفى الأسرة عن طريق الأب كما يؤديها الفرد بنفسه فى الامور التى تتعلق بحياته الخاصة .

وتمتد قبائل انيانجا Anyanja بأسمائها المختلفة والمعروفة أيضاً باسم منجانجا Mang'anja من وادى نهر شاير Shire إلى لوانجوا وتصـــل شمالا حتى منتصف بحيرة نياسا . ويبدو أن هذه القبائل كانت تقطن هذه المنطقة بأسرها فى وقت من الاوقات وذلك قبل مجىء بعض القبائل الدخيلة عليها واستيطانها فى بعض جهات هذا الاقليم . وقد كان من نتيجة اختلاط قبائل انيانجا بغيرها من القبائل أن أصبح من العسير تحديد نمط معين لسماتها الجسمانية .

ويوصفون بأنهم متوسطو القامة ، بيد أنه يوجد عدد كبير من أفرادها من طوال القامة . ويؤكد بعض الكتاب تميزهم بالفك الصغير والفم الضيق والذقن الصغير . وقد تزاوجت هذه القبائل بدرجة كبيرة مع قبائل ياو وقبائل ما كولولو .

Makololo التى تعتبر أحد فروع قبائل الباسوتو Basuto واضطرت إلى الهجرة من موطنها الاصلى تحت ضغط قبائل الماتيبيلا Matebele حوالى سنة ١٨٢٣ وكذلك نجد أن قبائل انيانجا القاطنة فى المنطقة الغربية من أعالى نهر شاير خاضعة لنفوذ الزولو انجونى ، مما يدعو إلى اختلاط الامر فى التمييز بين هاتين الجماعتين فى كثير من الاحيان . وقد اشتهرت قبائل انيانجا منذ العصور بالمصنوعات الحديدية .

ومن معتقدات هذه القبائل وجود كائن أعلى يعرف باسم مبامبى Matebele أو مولونجو ، يقدمون له الصلوات طلباً للمطر ، ويرادف اسم هذا الإله أحياناً اسم الرعد كما يطلق أيضاً على أرواح الموتى الذين تقدم إليهم القرابين للترضية فى بيوت خاصة تعرف باسم «أكواخ الارواح» مبنية من الاعشاب وارتفاعها لا يتجاوز قدمين .

ويدفن الموتى عادة فى الحقول أو الحدائق . ويوضع الجسم فى القبر منثنى الرجلين . ومن عاداتهم أن يهدم البيت من أساسه بعد موت صاحبه ، أما فى حالة رئيس القبيلة فإنه يدفن أحياناً فى بيته ثم يهجر هذا البيت بعد ذلك فلا يسكنه أحد .

الفصل العاشر

الساميون

قبل أن نتكلم عن العرب يجب أن نحدد مفهوم هذه الكلمة فى القارة الإفريقية وأن نذكر دلالته فى الجزيرة العربية ، وهى بلاد العرب الأصلية ، فالعربى فى عرف الكتب ذو رأس طويل ، ووجه دقيق بيضاوى وهو نوع من الوجوه يتصف فى حالات كثيرة بجماله المثالى ، إلا أنه لو استعرضنا ما كتب من أبحاث فى الموضوع لوجدنا بين العرب أفراداً من ذوى الرؤوس المستديرة وعددامساويا من ذوى الرؤوس المستطيلة . كما أن كل من زار السودان يعرف أن معظم العرب الذين يلتقى بهم هناك سمر البشرة وتقاطيع وجوههم تقاطيع زنجية دون شك . وهم فى بعض الأحيان سود الوجوه وشعرهم قريب جداً فى نوعه من شعر الزنوج . ويزيد المشكلة تعقيدا استعمال الفرنسيين لكلمة « عربى » بصورة لا تميز بين الخصائص . فالعربى فى عرفهم كل إفريقى مسلم يتكلم اللغة العربية ، وهذا الاستعمال للكلمة وان كان لا يؤدى إلى الاضطراب فى دلالته فيما يتعلق بسكان وادى النيل ،إلا أنه يؤدى حتما إلى ذلك فى الجزائر ومراكش حيث نجد أن العرب الذين يشير إليهم علماء الاجتماع الفرنسيين جميعهم منذ أيام « بروكا » ليس لهم أى صلة بالسلالة العربية أو أن صلتهم بها ضئيلة جدا مما يوجب اعتبارهم حاميين من البربر وليس عربا . بيد أنهم احتضنوا اللغة العربية وأفكار العرب وبذلك أصبحوا أتم عروبة من مواطنيهم من البربر الذين أبقوا على لغتهم كل هذا لا يفسر التناقض بين العربى ذى الرأس الطويل الذى تشير إليه الكتب وبين العرب الأصليين من ذوى الرؤوس المستديرة ممن لا

يقتصر وجودهم على الجزيرة العربية وحدها بل ينتشرون فى طرابلس الغرب أيضا كما يتبين ذلك من الجماجم الموجودة فى متحف فلورانسا . وقد نصل إلى حل لهذه المسألة اذا تذكرنا أنه وجد فى مقبرة عربية قديمة بجوار القاهرة عدد من الجماجم المستديرة استدارة كبيرة اذ كانت النسبة الرأسية تزيد على ٨٥ . وقد يستدل من هذا على أن المهاجرين من الجزيرة العربية الى وادى النيل والى طرابلس أيضا لم يكونوا من سكان شمال الجزيرة العربية من طويلى الرؤوس فحسب بل كانوا من سكان الجنوب أيضا ، والثابت أن سكان جنوبى الجزيرة من مستديرى الرؤوس . وفى العصور التالية كان هؤلاء الجنوبيون جزءا من القوات العربية التى أغارت على أسبانيا ، وقد تابع هؤلاء اليمنيون فى مقرهم الجديد صراعهم القديم مع اخوانهم من أهل الشمال .

من الواضح أن كلمة عربى فى إفريقية تعنى كل من يدين بدين الاسلام دون اعتبار لدرجة الدم الزنجى أو الدماء الغريبة الأخرى التى تدخل فى تكوينه الجنسى ، لهذه الكلمة اذاً مدلول ثقافى ، أما مدلولها من ناحية الجنسيات فهو ضئيل وقد يكون مضللا فى كثير من الأحيان . وباستثناء البربر يمكن أن تبقى لهذه الكلمة قيمتها فى تمييز مجموعة من القبائل تنسب نفسها الى أصل قوقازى حتى فى الأحوال التى لا يكون نسبها هذا صحيحا ، ويعتز جميع هذه القبائل بتاريخ متشابه وديانة واحدة كما تتكلم لغة سامية واحدة . وهكذا فان الجماعة التى نسميها عربا تختلف عن غيرها من سكان أفريقية بمعنى أن لها ثقافة موحدة مع أن الدماء التى تجرى فى عروقهم كثيراً ما تكون خالية من دماء أصحاب الثقافة التى ينتمون اليها .

ولعله من المستحسن أن نبين هنا كيف وصل العرب الى ما وصلوا اليه فى إفريقية : كان لدخول عمرو بن العاص مصر عام ٦٣٩ ميلادية تأثير ثقافى مهم ولكن عدد المحاربين الذين استقروا فى إفريقية فى ذلك الحين لم يكن كبيراً ومن ثم لم يكن لهذه الحملة تأثير ملحوظ من الناحية الجنسية ، هذا على الرغم مما يقال من أن بعض القرى الموجودة اليوم يرجع تاريخ تأسيسها الى ذلك

العصر . وليس قولهم هذا الازعما يمثل اعتزاز الأفريقيين الدائم بصلتهم بالاسيويين أو بالأحرى بالمسلمين . بيد أن غارات القرن الحادى عشر كانت على نطاق مختلف كل الاختلاف لا سيما هجرة بنى هلال والقبائل القريبة سنة ١٠٤٨ ميلادية وانتشارهم فى أفريقية فى شمال أفريقية حيث أرسلهم وزير الخليفة المستنصر الفاطمى فى تلك السنة ليكسروا من شوكة أتباع سيده الأقوياء فأعطى كل رجل منهم جملا وقطعة نقود ذهبية شريطة أن يستقر فى المغرب . وفى خلال عامين تمكن هؤلاء المغيرون من اجتياح برقة وطرابلس والاستيلاء على القيروان ، واستقر الأمر ببنى هلال فى طرابلس بينما استمر رفاقهم من القبائل الأخرى فى السير غربا حتى وصلوا الى مراكش . وعلى هذا النحو أخذت عملية التعريب تأخذ طريقها فى شمالى إفريقية وكذلك يعزى ما أصاب جزءامن وادى النيل من « تعريب » الى ارتداد بعض عناصر القبائل الهلالية شرقا وجنوبا . وهذا يفسر الى حد كبير أيضا توزيع القبائل العربية بالسودان فى الوقت الحاضر . أما كيف تم ذلك فعلا فانه يتضح مما أورده المؤرخ الكبير ابن خلدون حيث يقول ما معناه « فى أول الأمر حاول ملوك النوبة أن يردوا العرب على أعقابهم ولكنهم تمكنوا من استمالتهم عن طريق المصاهرة ، وعلى هذا النحو تفككت مملكة النوبة الأصليه ، وألقت مقاليد الأمور فيها الى بعض الذكور من قبيلة جهينة الذين كانت أمهاتهم من سلالة ملوك النوبة الحاكمين وذلك حسب التقاليد المرعية فى توارث العرش فى تلك المملكة عن طريق الأخت وأبناء الأخت ، وبهذه الطريقة اندثرت مملكة النوبة وأصبحت قبيلة جهينة صاحبة الشأن فى تلك الديار بيد أن حكم هذه القبيلة لم يتميز بأى مظهر من مظاهر الحكمة فى شئون السياسة بسبب الضعف الطبيعى فى تنظيم القبيلة نفسها ذلك التنظيم الذى لم تستقر فيه أنواع الضوابط القبيلة ولم يعترف فيه أحد بسلطان الآخر . . ولهذا ما تزال قبائل جهينة منقسمة الى طوائف وفرق ولا يوجد لديهم أى أثر من آثار السلطة المعترف بها وهم قبائل رحل يتبعون منابت العشب كما يفعل البدو فى الجزيرة العربية ولم يحدث أن قام أى تنظيم

للأمة فى تلك البلاد إذ لم يكن من نتيجة الاختلاط الذى حدث إلا أن استبدلت أساليب الحياة البدوية العربية بأساليب الحياة التقليدية فى بلاد النوبة .

ولعل أحسن معيار لتصنيف العرب فى شمالى افريقية فى الوقت الحاضر هو المعيار الطبيعى الذى يصنفهم على أساس طريقة حياتهم ، فهم إما عرب يعيشون حياة البداوة وإما عرب يعيشون حياة مستقرة. وينبغى أن نذكر إلى جانب هذا التصنيف أن أكثر العرب نقاوة من حيث الدم يوجدون فى المنطقة الشمالية والشرقية حيث تغلب العناصر القوقازية . أما عرب الجنوب والغرب ، فإنه رغم إطلاقهم لاسم العرب على أنفسهم قد اختلطوا كثيراً بالدم الزنجى بحكم إقامتهم فى هذه المناطق التى تغلب فيها العناصر الزنجية . وإذا اتخذنا هذا المعيار الاجتماعى لتصنيف العرب أمكننا أن نميز بينهم ثلاث مجموعات رئيسية :

١ ــ مجموعة البدو الحقيقيين المعروفين باسم أصحاب الابل .

٢ ــ مجموعة البقاره وهم رعاة الماشية ، وهم أقل بداوة من المجموعة الأولى .

٣ ــ مجموعة القبائل المستقرة وتشمل :

(ا) أهل السواقى ومنهم الزراع الذين يستثمرون الوديان النهرية :

(ب) سكان القرى المستقرة .

ولا يعتبر هذا النوع من التصنيف فاصلا يميز بين هذه الجماعات ، ففى بعض قبائل السودان مثل كنانة تتمثل طرق المعيشة الثلاثة حيث تجد بعض أقسام القبيلة الرحل مناطق للاستقرار وقد تكون بداوتها محدودة ، حين تقوم ببذر الحب فى الواحة أثناء الخريف ثم تأخذ حياتها صوراً متفاوتة من التنقل حتى يجىء الربيع أما التمييز بين أصحاب الجمال وأصحاب الماشية فأمر تتحكم فيه الظروف الجغرافية فى أغلب الأحوال إذ لا يمكن التنقل بالجمال وراء خط عرض ١٣ شمالا . أما أصحاب الماشيــــية من قبائل البقــارة فإنهم يحتاجون

إلى جهات يكثر فيها الماء والمرعى وهى المناطق التى تقع جنوبى ذلك الخط من غربى بحر العرب ممتدة حتى دار فور وبحيرة تشاد .

وتعتبر روابط التنظيم القبلى بين البدو أقوى منها بين الجماعات المستقرة التى كثيراً ماينظر إليها نظرة ازدراء من البدو الرحل اللهم إلا إذا كانت تلك الجماعات المستقرة منتمية إلى عائلة يحيط بها نوع من المهابة الدينية ، والحقيقة أنهـا أقل من الرحل نقاوة فى أنسابها . وحسب التنظيم القبلى تخضع كل قبيلة لرئيس يعرف بشيخ القبيـلة ، وفى حالة العشائر المتنقلة التى تتـكون من عدة أقسام يرأس كل قسم منها شيخ خاص ، ويطلق عليه فى السودان اسم « خشم بيت » . وفى كلا الحالين يغلب أن تقوم الرئاسة على مبدأ الوراثة ، ولو أنهـا تـكون بالانتخاب فى بعض الأحيـان ، وحيث يحتفظ التنظيم القبـلى بتماسكه التقليـدى يعترف شيخ الأقسـام لشيخ العشيرة الـكبرى بالسلطان ، ويكون « النحاس » وهو الاسم الخاص بها رمزاً لهذه السلطة الـكبرى . والنحاس اسم يطلق على الطبل الذى تستعمله القبيلة للنفير فى الحرب والذى يدور حوله كثير من الطقوس القبلية ، ولما كان التنظيم القبلى أضعف فى روابطه بين القبائل المستقرة كما سلفت الإشارة فإن مقومات البيئة ومقتضياتها تطغى فى تنظيم حياتها على النمط القبلى وذلك على الرغم من استمرار الأهمية التى تعطى لنسب القبيلة واصلها .

غير أن النمط العربى الخالص من الناحية الجسمانية إنما يتوفر بين البدو ، ففى الفلوات الواسعة القاسية التى تقع فى الشمال الشرقى لـكردفان تعيش قبيلتان من أغنى القبائل السودانية التى تمتلك ثروة من الجمال وهما الـكبابيش والـكواحلة وبين هاتين القبيلتين تنافس قديم يقوم على توزيع المرعى فى تلك المنطقة التى تمتد غرباً إلى حدود دار فور وجنوباً وشرقاً حتى حدود قبائل دار حميد ذات السلطان والنفوذ وهى من القبائل السودانية التى يغلب عليها الاستقرار . وحتى فى هاتين القبيلتين أو فى أقسامهما نجد درجات متفاوتة من نقاوة الدم والنسب مرتبطة بمدى ثروة القبيلة وسلطانها . فقد أخذ اختلاط القبائل العربية الغنيـة بالدماء الزنجية يزداد زيادة مضطردة تتمشى مع مالدى القبيلة من ثروة وبما يوجد

عندها من عبيد . فلم يكن غريباً إذا أن يكون شيخ قبائل الكبابيش ذا بشرة سوداء ، كما كان أسلافه لبضعة أجيال ، وهذا على الرغم من أن تقاطيعه ليست زنجية على الاطلاق ومن الاختلافات الموجودة في صفات البدو الجسمانية مايعرف باسم الأنف الأرمنى ، وهومن الأمور التىلاشك أنهاجاءت من شبه الجزيرة العربية ، ويعتبر سمة من السمات الشائعة ، بيد أن هذا الأنف كما هو معروف ، من المميزات الوراثية للجنس القوقازى ويرتبط فى العادة بذوى البشرة الفاتحة .

ولعله من العسير أن نقرر شيئاً عاما عن الخصائص الجسمانية للقبائل العربية فى السودان قبل أن تؤخذ المقاييس لعينات ممثلة لتلك القبائل . وكذلك لايمكننا الحكم على مدى ما استطاعت أن تحتفظ به القبائل العربية فى إفريقية من خصائصها الجسمانية القديمة . والواقع أنه ليس لدينا ما يمكن أن يلقى ضوءاً فى هذا الصدد إلا مقاييس لعدد قليل من الكبابيش وأولاد على . وتقطن قبيلة أولاد على فى الشمال الشرقى من منطقة طرابلس ولعلها أقوى قبائل تلك المنطقة ، وقد أخذت مقاييس قبائل الكبابيش من بين أفرادها المستقرين فى منطقة دنقلة ومن الرحل منهم فى كردفان . وقد أظهرت كل هذه المقاييس تماثلا فى نتائجها هو أقرب إلى التطابق ومما يزيد فى دلالات هذه المقاييس أن أجراها باحثون مختلفون لا علم لأحدهم بما قام به الآخر :

	النسبة الرأسية	النسبة الأنفية	القامة
أولاد على (٢٠ شخصاً)	٧٥,٣٩	٧٢,٣٤	٦٧ بوصة
الكبابيش ـ دنقلة (٩)	٧٤,٥	٦٨,٨	٦٧,٥ «
الكبابيش ـ كردفان (١٥)	٧٤,١٣	٧٠,٢	٦٧ «

ويجب الإشارة هنا إلى أن كلا من أولاد على والكبابيش يرجع نسبه إلى أصل عربى قديم هو بنى عقبة .

وليس ثمة ما يمكننا من الجزم بأية خصائص جسمانية تميز العرب المستقرين، إذ لا توجد لهم مقاييس يستدل بها . ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن أغلب القبائل التى استوطنت ضفتى وادى النيل شمالى الخرطوم تتميز عن العرب البدو فى الجنوب والغرب ببشرة أكثر سمرة ، وقامة أقصر ، وتكوين جسمانى أصغر .

وما تزال هناك فى مصر جماعات من العرب الخلص فى دمائهم وتقاليدهم استطاعت أن تحتفظ بأسمائها وتنظيماتها القبلية ، وأهمها :

١ــ قبائل المعازة فى الصحراء الشرقية .

٢ــ « أولاد على فى مديرية البحيرة وتمتد هذه القبيلة عبر الحدود إلى طرابلس مكونة أقوى قبيلة عربية فى صحراء طرابلس .

٣ــ قبائل حرابى فى الفيوم ، وما تزال من القبائل التى تعتمد على الرعى فى حياتها وتمتد حدودها القبلية حتى صحراء طرابلس .

٤ــ جماعات الصيدفى بحيرة المنزلة الذين يقال إنهم ينسبون موطنهم الأصلى إلى شبه جزيرة سينا .

٥ــ عرب الحويطات فى المطرية ، وهى الآن جماعة مستقرة .

وتتميز كل هذه القبائل بأنها من ذوى الرءوس الطويلة إذ يتراوح متوسط النسبة الرأسية بينها من ٧٣ إلى ٧٥ ، ومتوسط القامة من ٦٦ إلى ٦٧ بوصة (باستثناء قبائل حرابى التى تتميز بالطول نسبياً) وإلى جانب هذه القبائل المنظمة توجد جماعات صغيرة من سكان الخيام تزعم انتسابها إلى أصول عربية . وهم أشبه بجماعات الغجر تتنقل على حافة الوادى فى مصر العليا مصطحبة معها عدداً قليلا من الماعز الهزيل . ورغم استغلال الفلاحين لهؤلاء الغجر إلا أنهم يشعرون نحوهم بشعور للكراهية والخوف كما يشعر الأوربيون بنفس هذا الشعور نحو الغجر فى بلادهم .

وتشمل البقارة عدداً كبيراً من القبائل التى تعتمد اعتماداً رئيسياً على تربية

الماشية وكلهم من البدو الرحل الذين ينتقلون بالقدر الذى يضمن لهم الحصول على الماء والمرعى لقطعانهم . وهم فى تنقلهم يجوبون مناطق واسعة فى جنوبى السودان وخاصة فى إقليمى كردفان الجنوبى ودارفور ، وتنتشر غرباً حتى بحيرة تشاد ، ويؤثرون الابتعاد عن الجهات التى يكثر فيها ذباب تسى تسى . ولعل أهم ما يعتدون به من ثروتهم الحيوانية تلك العجول المدربة التى تستطيع أن تنقل حملا يتراوح وزنه بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ رطلا . ويعتمدون عليها فى نقل أطفالهم ومتاعهم أثناء هجرتهم من مكان إلى آخر . ومن الناحية الاثنولوجية نجد أن كثيراً من قبائل البقارة قد اختلط بالدم الزنجى وطغت سماته على السمات العربية ، ومع ذلك فإن هذا الخليط قد أنتج فى بعض الحالات أفراداً على جانب كبير من الوسامة يتميزون بالملامح المتسقة عامة والأنوف الجميلة خاصة رغم بشرتهم السوداء . ولعل قبائل البقارة من أشد القبائل السودانية مراساً فى الحروب ، فقد كان العمود الفقرى لجيش الخليفة مكوناً منهم ، والخليفة نفسه من قبيلة التعايشة وهى بطن من قبيلة الحبانية Habbania التى تمثل مع الحوازمة Hawazma والمسيرية Messiria فى كردفان والرزيقات فى دارفور أهم قبائل البقارة فى السودان

وفى نيجيريا توجد جماعات من العرب فى منطقة كانو Kano و فى بعض المراكز التجارية سوكوتو Sokoto وزاريه Zaria ولعل أهم هذه الجماعات كلها جماعات شوا Shuwa التى تقطن فى منطقة البرنو . وهم عرب يعيشون على الرعى ، والمعروف أن أجدادهم الذين يدعون انتسابهم إلى النبى كانوا يقيمون فى دارفور ووادای فى القرن الخامس عشر ، ولا شك أن بعض عرب البرنو فى الوقت الحاضر هم من هذه السلالة، بينما اندمجت بعض تفريعاتهم فى الشعوب النيجيرية كقبائل الكنورى Kanuri وقد تكون من قبائل شوا Shuwa فى الماضى أقوى عناصر الجيش فى برنو ، وعرف من بينهم الفرسان الذين كانوا يحمون أنفسهم بالدرع التى يقال أنها ترجع إلى أيام الحروب الصليبية . هذا فضلا عن أن لغتهم مازالت تحوى كثيراً من الألفاظ العربية الفصيحة التى اندثرت لدى غيرهم من لهجات الشعوب العربية الأفريقية التى تعتبر أكثر تحضراً .

ومن الطريف أيضاً أن نشير إلى أن بعض مصطلحاتهم الفنية هى نفس المصطلحات التى تستعملها الكبابيش فى مراعى منطقة بايوضا Bayuda

إن معظم القبائل العربية التى عالجناها حتى الآن قد استقرت فى جهاتها منذ قرون . بيد أن هناك قبيلة كان مجيئها إلى إفريقية منذ عهد قريب ، وهى قبيلة الرشايدة أو الزبيدية التى استوطنت فى قسم من المديريات الشرقية بالسودان واشتهرت بسلالة جمالها السريعة ذات اللون الأحمر البنى . ويتميز أفراد هذه القبيلة باللون القمحى الفاتح ويشدهون الناظر بجمال طلعتهم ولا يقل تشريط الوجه من حسن منظرهم . وقد يظهر عليهم من ناحية الخصائص الجسمانية والاجتماعية أنهم غير إفريقيين على الاطلاق ، والحقيقة أن سجلات أنسابهم تدل على أن معظم عائلاتهم لم تأت إلى افريقية إلا منذ أجيال معدودات .

وإذا استثنينا قبائل البقارة الذين يمكن اعتبارهم سريعى الاستثارة والهياج نتيجة لاختلاطهم بالدم الزنجى[١] فإننا نجد أن القبائل العربية فى شرق السودان أو غربه لم تظهر تعصباً فى مظاهر دياناتها الإسلامية، ولم يعرف عنها أنها تعتقد فى الخرافات بدرجة كبيرة . ونجد فى هذا الصدد أن هناك فروقا واضحة بين البدو والسكان الذين استقروا فى وادى النيل ومع ذلك فإن البدو ويلتزمون طقوساً خاصة كتلك التى تتصل بدفن الموتى . ومن المؤكد أنها ليست طقوساً إسلامية ويمكن أن تعزى إلى رواسب التقاليد الجاهلية فى بلاد العرب أو إلى طقوس قائمة فى افريقية قبل ظهور الإسلام .

وما تزال المذاهب الإسلامية وما يصحبها من حركات تلعب دوراً كبيراً فى حياة شمالى افريقية حيثما وجدت عناصر عربية كافية (كما هو شأن حركة المهدى فى السودان) وسوف نتعرض لهذا الدور بشىء من الإيجاز واضعين أمام أعيننا المجال الجغرافى الذى تقوم فيه المذاهب بدورها فى بلاد قاحلة شاسعة الأرجاء تتخللها واحات هنا وهناك وتربط بينها طرق لاماء فيها ومن ثم لايمكن أن

---

(١) لم يثبت علميا وجود ارتباط بين الصفات المزاجية والسلالات البشرية .

تجتازها إلا جماعات منظمة وهى بلاد لا تهيئوها ظروفها إلا لنوع معين من الطقوس الدينية والتنظيم السياسى الذى يمتزج بالنواحى الدينية .

وعلى الرغم من أن معظم الطرق التى تسمى بأسماء مؤسسيها كانت فى بداية الأمر طرقا صوفية تتشح بالطهرية والإصلاح الدينى لم تلبث زمناً طويلا حتى اتخذت فى جملتها طابعاً قوياً فى النواحى السياسية والعملية ، شأنها فى ذلك شأن المؤسسات الديرية التى ظهرت فى أوربا المسيحية فى العصور الوسطى . وتنظيم هذه الطرق الصوفية يكاد يكون واحداً ، إذ يرأسها شيخ أو إمام له سلطان مطلق يستمده من نفوذه الروحى ، ويشترك معه فى هذا السلطان من يقوم بإنابتهم عنه من الشيوخ المحليين . ولأتباع هذه الطرق نظام دقيق صارم ، وينضم إليهم فى الغالب أشخاص عاديون لا يلتزمون بمثل هذا النظام ولا يتعارض انضمامهم مع ماتتطلبه حياتهم اليومية . ويعرف المركز المحلى لأهل الطريقة الصوفية باسم زاوية ، ويكون مقره فى المسجد ، وقد يشمل فى العادة إلى جانب المسجد عدداً من المدارس والمساكن الخاصة بأهل الطريقة ، وقد يقام حولها التحصينات أحياناً . والمألوف أن تبنى الزاوية فى المحطات الرئيسية للاستراحة على طرق القوافل حيث يتوفر الماء ، وهذا مما يزيد فى أهميتها . ولكل طريقة قواعد مرعية تعود إلى مؤسسها ، كما أن لها طقوساً خاصة يمارسها أتباعها فى أثناء اجتماعهم . وقد تقتصر هذه الطقوس على مجرد ترديد لعبارة مقدسة ، وقد تكون أكثر تعقيداً كما يبدو فى حلقات الذكر التى يقيمها الدراويش (وهذا شأن الطريقة المولوية) أو فى قصائد الرفاعية وصيحاتهم الذين يؤثر عنهم أنهم حينما يصلون إلى حالة التجلى يأكلون الفحم الملتهب ، وقطع الزجاج وقد يجرحون أنفسهم بآلات حادة (وهذا شأن الطريقة العيسوية المنتشرة فى طرابلس) وللطقوس الرفاعية شأن خاص إذ يروى شيخ الطريقة أنه كان يمر بحصانه فوق أتباعه الذين انبطحوا على الأرض فى الاحتفال بليلة الدوسة (دخول البيت بعد الزواج) كما أنه يسود الاعتقاد بأن اتباع الطريقة الرفاعية لديهم مناعة ضد سموم الأفاعى وقد أدى هذا إلى موت أحد اتباعهم فى مصر من عضة ثعبان نتيجة لاعتقاده الراسخ فى هذه المناعة ورفضه أى علاج طبى .

ويحتل أصحاب المذهب السنوسى مكانة فريدة بين أرباب الطرق الاسلامية خصوصاً وقد اهتم بدراستهم الفرنسيون اهتماما بالغاً . وقد أنشأ سيدى محمد ابن على السنوسى أول زاوية للسنوسية فى بلاد العرب نفسها ، وما لبث أن زاد أتباعه فى برقة نتيجة لجهوده فى نشر تعاليم مذهبه فاستقر مع أتباعه فى واحة جغبوب داخل الحدود المصرية إذذاك واستمر بها حتى وفاته سنة ١٨٥٩ وخلفه إبنه سيدى المهدى الذى استعان بسلطان واداى (وكان حينئذ أقوى سلاطين الإمارات الاسلامية فى السودان الأوسط) وتمكن من بسط نفوذه الزمنى على منطقة واسعة تمتد من دارفور إلى واداى برنو حتى ساحل طربلس واستطاع أتباعه باستقرارهم وزراعتهم لشريط من الواحات يبدأ من سيوه حتى منطقة واداى وينتظم واحتى الكفره وبوركو ، استطاعوا بهذا الاستقرار أن يشجعوا التجارة ويقروا الأمن بين بدو الصحراء الذين دأبوا على الإغارات . وقد سمى سيدى المهدى بهذا الإسم لتشابه ملامحه الجسمانية من المهدى المنتظر ، فقد كان أزرق العينين ، وأحد ذراعيه أطول من الآخر ولكنه لم يدع أنه المهدى ، بل إنه عندما قام المهدى فى السودان بحركته عام ١٨٨١ رفض الانضمام اليها وحذر أتباعه منها ، ثم أنه اصطدم مع الفرنسيين فى ١٩٠٠ عندما كانوا يحاولون التقدم نحو منطقة كانم ولكنه أخفق فى محاولاته لايقاف هذا الزحف ، وتخلى عن الحكم لابن أخته الذى لم يستطع بدوره مقاومة الزحف الفرنسى واضطر إلى التقهقر والانزواء فى واحة الكفرة التى احتفظ فيها بمركزه كشيخ للسنوسية ، بيد أن هيبته أخذت فى الانكماش بعد محاولته الاغارة على الحدود المصرية عام ١٩١٥ — ١٩١٦ .

وينتشر أتباع السنوسية فى القسم الشرقى من الصحراء الكبرى ومنطقة واداى وتقوم زواياهم فى جميع الواحات والمدن الرئيسية بهذه المنطقة ، وقد تمكنوا حتى هجوم الايطاليين من الحرص على استقلالهم فى واحة الكفرة « مركز السنوسية » ، بل وجعلوا من العسير على الأوربيين اجتياز تلك المنطقة التى يسيطرون عليها . وعلى الرغم من أن السنوسية فى أصلها وليدة الحركة الوهابية

إلا أنها لم توغل فى الصوفية أو التزمت (رغم أن شرب القهوة والدخان محرم لديهم) وإذا استثنينا دعوة السنوسية إلى التبشير الاسلامى وتطهير الدين مما علق به من شوائب ، فإنه يمكن القول بأن هدف أتباعها الرئيسى كان أميل إلى الانعزال عن صخب الحياة . بيد أن تنظيم الحركة المحكم وانضمام طائفة من الرجال ذوى المكانة والثروة إليها مما لم يتوفر لغيرها من الطرق الصوفية ، قدهيأ لها أن تكون قوة فعالة فى ميدان السياسة والحرب وذلك على الرغم من ميول شيوخها المضادة فى بعض الأحيان .

ويقتصر اليهود فى إفريقية على منطقة شمالى إفريقية وذلك باستثناء قبائل الفلاشا الحامية التى سبقت الإشارة إليها فى الفصل الخامس ، وكذلك باستثناء الهجرات الجنوبية من أوربا ويعرفون باسم السفاردم Saphardim وهم من سلائل اليهود الذين طردوا من أسبانيا والبرتغال فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، ولا تختلف سماتهم كثيراً عن يهود أوربا . ويهود شمال افريقية من ذوى الرءوس المتوسطة فى أغلب الحالات وتبلغ متوسط النسبة الرأسية لديهم حوالى ٧٨ فى تونس .

وتعتبر اليهوديات فى الجزائر وتونس عموما مقبولات شكلا ، بل يعتبر بعضهن على جانب من الجمال . وفى عيونهن السوداء الواسعة تعبير قوى ، كما يكسبهن الشعر الأسود الطويل والملامح المعبرة مظهراً حسنا . إلا أن حجمهن الضخم حيث يزيد وزن معظم النساء عن مائتى رطل ، لايجعل لقوامهن اتساقا وربما كان هذا مطابقاً للفكرة الشرقية عن الجمال النسوى .

ويوصف يهود واحة مزاب M'Zab النائية فى جنوبى الجزائر بأنهم من ذوى الرءوس الطويلة ، ويبلغ متوسط النسبة الرأسية لديهم حوالى ٧٣ . ومهما كان مدى الدقة فى هذه النسبة فإنه مما لاشك فيه أن يهود شمالى افريقية أكثر استطالة فى رءوسهم من يهود أوربا .

والنسب الرأسية للفريقين كالآتى :

النسبة الرأسية	أوربا	شمالى افريقيا
أقل من ٨٠	٢٥٪	٧١٪
٨٠ — ٨٥	٦٦٪	٣٨٪

ومن الطريف أن نضيف هنا أن حوالى ٩٣ ٪ من يهود اليمن تبلغ نسبتهم الرأسية أقل من ٨٥٪ .

وهناك ظاهرة حضارية أخرى وصلت إلى إفريقية من الخارج وهى القوارب ذات المجداف وخاصة النوع الأوندونيسى ويوجد هذا النوع من القوارب فى جزيرة زنجبار والساحل الإفريقى المقابل لها . ولا مفر من اعتبار هذا امتداداً لحضارة العناصر الأندونيسية فى مدغشقر على الرغم من عدم قيام الشواهد على اختلاط هذا العنصر الاجنبي والعناصر الأفريقية الأصيلة .

جدول تحويل لمقاييس الطول بالبوصات والأمتار فيما بين ٥ و ٦ أقدام

(معدل لربع بوصة تقريباً)

بوصات	أمتار	بوصات	أمتار
٦٠	١,٥٢	٦٦	١,٦٨
٦ ¼	١,٥٣	٦٦½	١,٦٩
٦٠½	١,٤٤	٦٧	١,٧٠
٦١	١,٥٥	٦٧¼	١,٧١
٦١½	١,٥٦	٦٧¾	١,٧٢
٦١¾	١,٥٧	٦٨	١,٧٣
٦٢	١,٥٨	٦٨½	١,٧٤
٦٢½	١,٥٩	٦٩	١,٧٥
٦٣	١,٦٠	٦٩¼	١,٧٦
٦٣½	١,٦١	٦٩½	١,٧٧
٦٣¾	١,٦٢	٧٠	١,٧٨
٦٤	١,٦٣	٧٠½	١,٧٩
٦٤½	١,٦٤	٧١	١,٨٠
٦٥	١,٦٥	٧١¼	١,٨١
٦٥½	١,٦٦	٧١½	١,٨٢
٦٥¾	١,٦٧	٧٢	١,٨٣

نوجه نظر القارىء إلى أن ٩٥ ٪ من المقاييس التى يقابلها فى الكتاب تتعدى الأطوال المذكورة . والمقاييس التى تكبرها أو تصغرها من السهل تحويلها إذا تذكرنا أن البوصة يقابلها ٢½سم وأن كل ٦ بوصات يقابلها ١٥سم تقريباً .

فهرس

	صفحة
مقدمة الترجمة	٥
مقدمة المؤلف	٧
البشمن والهتنوت والنجريتو (الأقزام)	٢١ ـ ٤٦
الزنوج الحقيقيون	٤٧ ـ ٦٩
الزنوج الحقيقيون (تتمة)	٧٠ ـ ٨٥
الحاميون :	٨٦ ـ ١٣٩
الحاميون الشرقيون	٨٦ ـ ١١٣
الحاميون الشماليون	١١٤ ـ ١٣٩
أنصاف الحاميين والنيليين	١٤٠ ـ ١٦٠
النيليون	١٥٤ ـ ١٦٠
البانتو	١٦١ ـ ١٨٧
البانتو الشرقيون	١٨٨ ـ ٢٠٣
الساميون	٢٠٤ ـ ٢١٦



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة العالم العربى
٥ شارع كامل صدقى بالفجالة ت ٤٤٧٠٦



الثمن ٢٥

طبع بمطبعة العالم العربى بالقاهرة
٢٣ شارع الظاهر تليفون ٤٤٧٠٦